سلسلة روّاد المشرق العربي



مدينة في الرّمال

(قصة اكتشاف حاضرة إشنونّا السّومريّة)

مع رحلات في بلاد المشرق

للآثاريّة البريطانيّة

ماري تشَبْ

ترجمة: وفاء الذَهبي

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش

مدينة في الرّمال

(قصة اكتشاف حاضرة إشنونّا السّومريّة)
مع رحلات في بلاد المشرق

روّاد المشرق العربي

مدينة في الرّمال

(قصة اكتشاف حاضرة إشنونّا السّومريّة)
مع رحلات في بلاد المشرق

للآثاريّة البريطانيّة

ماري تشَبْ

ترجمة

وفاء الذّهبي

تحرير وتعليق

د. أحمد إيبش

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقـدّم «هيئة أبوظبي للثقافـة والتّراث» للمكتبة العربيّة بوجـه العموم، ومكتبة تراث جزيـرة العـرب بوجه الخصـوص، باكـورة نتاجها من هـذه السّلسـلة الثقافيّـة التّراثيّة تحـت عنـوان: «روّاد المشـرق العربـي». وهـي مـن خلالها تعكـس اهتمامهـا بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشـعب الإمـارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّـة، وذلك من خـلال الحرص على جمع كافّـة المصادر المتعلّقـة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا اسـتعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشـر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعـه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشـرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشـر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسـعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شـتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسـفة والفكر الإنساني، الفنون، وسـائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسـة ورياضيّـات وصيدلـة وكيمياء. ومنها أيضـاً الأدب الجغرافـي العربي وأدب الرّحلات.

ومـا دُمنـا بصدد ذكـر تُراثنا الجغرافي، فلا بُـدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّـاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروپيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

هذا الكتاب

يطيب لنا في هذا الكتاب أن نقدّم حلقة جديدة في سلسلة فريدة من «روّاد المشرق العربي»، هي سلسلة النساء الرّحّالات الرّائدات في مشرقنا. فبعد أن قدّمنا الرّحالة الألمانيّة دوروتيا فون لينكِه (المعروفة بالكونتيسة مالمينياتي) في رحلتها العجيبة عشيّة اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى المدينة المنوّرة، سنرافق اليوم باحثة بريطانيّة في الآثار، زارت مشرقنا في ريعان صباها وكان لها من العمر 30 عاماً، فشاركت في عام 1933 ببعثة أثريّة في العراق، قام بها المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو، فكانت حصيلتها مكتشفات مذهلة في مواقع مهمّة جداً تعود إلى الحضارتين السّومريّة والأكّادية، وكان من بين اللقى تماثيل عديدة لآلهة ، وحليّ وأختام أسطوانيّة، ونقوش كتابيّة فريدة.

بطلة قصتنا، ماري تشَبْ، لم تكن في الواقع عالمة آثار كبيرة، وكان دورها في البعثة المذكورة يقتصر على المشاركة الثانويّة والتلمذة على أيدي كبار الأخصائيين في علوم الآثار والفيلولوجيا: هانز فرانكفورت، سِتون لويد، توركيلد ياكوبسِن، جون بندلبُري، بيير دُلوغا.. وعلى الرّغم من ذلك، فقد لعبت في كتابها هذا دور الرّاوية التي أشركتنا جميعاً في أحداث القصّة، وجعلتنا نعيش أحداثها وروعة اكتشافاتها كما لو أن أشخاصها أحياء بيننا اليوم.

بروايتها السّردية الشائقة وتفاعلها مع الأحداث، ونبرة الحنين والوَجد التي تئنّ في صدرها شوقاً إلى المشرق بعد انقضاء فترتها في البعثة، جعلتنا ماري تشَب بحق نعيش تلك اللحظات الفريدة ما قبل 81 عاماً، حينما نفض هؤلاء العلماء الأفذاذ الغبار

المتراكم طوال 4000 سنة عن حلقة مفصليّة هامّة للغاية من تاريخ بلادنا.. هذا التاريخ الذي ينبغي لنا اليوم دراسته كسلسلة متصلة الأركان، وكفصول في سيرة واحدة تفضي بنا إلى نتيجة حتمية كبرى.

هـذه النتيجة الحتميّة هي: أسـبقيّة الـدّور الحضاري الرّائد لأمّتنـا العربيّة في تاريخ البشريّة.. هذه الأمّة التي انطلقت شعوبها من جزيرة العرب، وأرست قواعد حضارات راسخة في طول الجزيرة وعرضها، بجنوبها وشمالها وشرقها وغربها، ثم في امتداداتها الطبيعيّة في بلاد الرّافدين وبلاد الشـام، حتى حدوها الطبيعيّة: جبال زاغروس شـرقاً، وجبال طوروس وهضاب كيليكيا شمالاً، والبحر الأبيض المتوسّط غرباً.

هذا الدّور الرّائد في تاريخ البشـريّة يحفل في الواقع بسلسـلة ممتدّة من الإنجازات الحضاريّة، لكن يكفينا هنا أن نذكر أهمها: ظهور الكتابة المقطعيّة الأولى (المسماريّة) لـدى أواخر السّـومريين وأوائل الأكّاديين فـي بلاد الرّافدين بحدود عـام 3200 ق.م، وظهـور الأبجديّـة الأولـى (بعلامـة مفردة لـكل حرف) في جبيـل بالسّـاحل الفينيقي حوالـي عـام 1200 ق.م. وعلـى ذلـك يمكننا أن نزهـو ونفتخر بأنّ أجدادنـا قد علّموا الكتابة للبشـريّة قاطبة، ومن أبجديّة جبيل بالذات اقتبست أوروبا حروفها وكتابتها، لا بل وحتى اسمها!

❊ ❊ ❊

تعيدنـا ماري تشَـب هنا إلى عالـم زاخر بالتاريخ والفكر الأسـاطير والمكتشـفات المثيرة، هو عالم أواخر السّومريين وبدايات الأكّاديين، وهذا ما يسترعي منا هنا إدراج نبذة عن التاريخ الحضاري لهذين الشعبين:

كانـت الحاجـة للدفاع والـرّي من الدوافـع التي سـاعدت على تشـكيل الحضارة الأولى في بلاد الرافدين على يد سـكان ما بين النهرين القدماء، فقاموا بتسـوير مدنهم ومدّ قنوات المياه. وبعد سـنة 6000 ق.م ظهرت المسـتوطنات التي أصبحت مدناً في الألفية الرابعة ق.م، وأقدم هذه المستوطنات البشرية كانت تل حلف وأريدو وأوروك،

اللواتي أقيمت بها معابد من الطوب الطيني، وكانت مزيّنة بمشغولات معدنية وأحجار، واختُرعت بها الكتابة المسمارية. وترجع إلى السّومريين بدايات الثقافة الأولى، التي انتشرت من هناك شمالاً لأعالي الفرات في منطقة الجزيرة الفراتية. وأهم المدن السّومرية التي نشأت آنذاك: إيزين وكيش ولارسا وأور وأدب.

بدأ التاريخ السّومري بما يعرف بعصر أوروك من حوالي 4000 ق.م إلى 3000 ق.م، حيث نشأت العديد من المستوطنات والقرى الزراعية على الفرات، والتي تطور منها لاحقاً بعض المدن التي شكلت أوروك المدينة الأهم بينها، واشتهرت بمعبد إنانا.

وسومر دولة قديمة في العراق وشرق سوريا، وقد عُرف تاريخها من خلال الألواح الطينيّة المدوّنة باللغة المسمارية، وظهر اسم «سمر» (شمر) في بداية الألفية الثالثة ق.م. لكن مبتدأ السّومريين كان في الألفية الخامسة ق.م حيث استقر شعب «العُبيد» (وهذه تسمية نسبيّة حديثة) بجنوب العراق، وأسّسوا المدن السّومرية الرئيسة كأور ونيبور ولارسا ولغاش وكولاب وكيش وإيزين وإريدو وأدب. واختلط شعب «العُبيد» بأهل صحراء الشام والجزيرة العربية عن طريق الهجرة أو شنّ غارات عليهم. وبعد عام 3250 ق.م ابتكروا الكتابة على ألواح الطين، وظلّت الكتابة السومرية لمدّة 2000 عام لغة الاتصالات بين دول الشرق الأوسط وقتها.

وخلال القرون التي تلت الهجرة السّومرية، نَمَت الدولة وتطوّرت في الفنون والعمارة والعلوم. ويُعدّ الملك السّومري إيتانا ملك مدينة كيش أول من وحّد بلاد سومر منذ عام 1800 ق.م. وبعده ظهر (مِسكياغاشر) ملك مدينة أوروك (الوركاء) جنوبي مدينة كيش، فسيطر على كامل المنطقة الممتدّة من البحر الأبيض المتوسط غرباً حتى جبال زاغروس شرقاً. وخلفه ابنه إنمِركار عام 2750 ق.م فاستولى على مدينة أراتا بشمال شرق بلاد الرافدين. وفي عام 2700 ق.م أحكم إنمبارغاسي ملك دولة إتانا بكيش سيطرته على بلاد سومر، وانتصر علي دولة عيلام، وأقام معبداً للإله إنليل بمدينة نيبور التي أصبحت المركز الديني والحضاري لسومر. وفي سنة 2670

ق.م انتهى حكم إتانا بكيش بعد سقوطه على يد ميزنباد ملك مدينة أور، التي جعلها عاصمة بلاد سومر. لكن بعد موته بسطت مدينة أرك نفوذها السياسي عليها بواسطة ثلغاماش (2700 ق.م – 2650 ق.م) الذي دارت حوله الملحمة الشهيرة، (والشائع اسمه: جلجامش).

وقبل القرن 25 ق.م قامت الإمبراطورية السّومرية بقيادة لوغلالمند وبمدينة أدب (2525 ق.م – 2500 ق.م). وكانت تمتد من جبال طوروس حتى جبال زاغروس، ومن الخليج العربي حتى البحر الأبيض المتوسط. وعاشت سومر فترة اضطرابات داخلية حتى القرن 23 ق.م. حتى اجتاحها الملك سَرغون الأول «شارُكين» (2335 ق.م – 2279 ق.م) وأسّس عاصمة جديدة سماها أكّاد بأقصى شمال بلاد سومر، فغدت حينها أقوى وأغنى مدينة في العالم وقتها. واندمج الغزاة وأهل شمال بلاد سومر وانصهروا مكوّنين شعب أكّاد.. وأصبح يطلق عليها بلاد سومر وأكّاد.

وأثناء حكم حفيد سَرغون الملك نارامسِن (3355 ق.م. – 2218 ق.م.) نزح الثوار الغوتيون من جبال زاغروس واستولوا علي مدينة آكّاد وبقية سومر. لكن السّومريين بعد عدة أجيال طردوهم، وحصلت سومر على استقلالها على يد ملك مدينة أوروك يوتوهيغال (حكم من 2120 ق.م – 2112 ق.م). وأعقبه أحد قوّاده أور – نامو بالعهد الثالث في مدينة أور. وخلفه ابنه شلغي (2095 ق.م – 2047 ق.م). وكان قائداً عسكرياً ومصلحاً إجتماعياً كأبيه وأديباً، ووضع قانوناً قبل قانون حمورابي بثلاثة قرون، وفتح المدارس والجامعات.

وفي بداية الألفية الثالثة ق.م جاء العيلاميون الرّعاة من الصّحراء غربي بلاد سومر وأكّاد، فاستولوا على أهم مدنها، كإيزين وسيركا وأور وأسروا حاكمها. وأصبحت البلاد في فوضى، حتى جاء حمورابي ملك بابل وطرد العيلاميين عام 1763 ق.م وأصبح الحاكم الوحيد لبلاد سومر وأكّاد بعدما ضمّهما لبابل لتظهر الحضارة البابلية.

هذا ولقد خلّفت الحضارة السومرية آلاف الألواح المسمارية باللغة الأكّادية. ومنذ

أوائل الالف الخامس ق.م، شهد السّهل الرسوبي ما بين النهرين في العراق (دلتا الرافدين) الانتقال من القرى الزراعية إلى حياة المدن. وفي هذا السّهل قامت المدن الأولى مثل أريدو وأور والوركاء (وركا)، وفي هذه المدن كانت بدايات التخطيط للسيطرة على الفيضانات، وإنشاء السدود وحفر القنوات والجداول. وفي هذا السهل كانت شبكة القنوات معجزة من معجزات الرّي، مما جعل من السّومريين بُناة أقدم حضارة في التاريخ. وفي حدود سنة 3200 ق.م ابتكر السّومريون الكتابة ونشروها في عدة بلدان شرق أوسطية. وقامت في بلاد سومر أولى المدارس في التاريخ.

* * *

في بداية عصر السلالات المبكرة نشأت مجموعة من المدن الدول (أداب – إريدو – إيسن – كيش – لاغاش – لارسا – نيبور – أور – أوروك) والتي شكّل خضوعها لحكم واحد منذ 2800 ق.م الدولة السّومرية القديمة، وذلك عبر سلسلة من القادة الحكام من مدن وأسر حاكمة مختلفة كما يلي:

كيش: كان أول حاكم لسومر إتانا الذي عاش في فترة 2800 ق.م ، وكان ملك مدينة كيش.

أوروك: تلى ملك كيش، مِسكياغاشر ملك أوروك، وأسّس جنوباً من كيش أسرة حاكمة منافسة، ووسّع نفوذه حتى شمل كامل الهلال الخصيب تقريباً، وخلفه ففي العام 2750 ق.م ابنه إنمِركار، الذي خلفه أحد قادة جيشه المدعو لوغالبندا، ثم عاد حكم سومر في العام 2700 ق.م إلى أسرة كيش عن طريق الملك إنمبارغاسي.

وحّد الأكّاديون الذين سكنوا شمال سومر بقيادة سَرغون (شارُكين) سومر تحت حكم أسرة واحدة من 2371 ق.م وحتى 2191 ق.م، وفي هذه الحقبة أضحت اللغة الأكّادية لغة الدولة الرسمية، وانتهت هذه الفترة بغزو المنطقة من قبل الغوتيين.

الدولة السّومرية الحديثة:

دامت الدولة السّومرية الحديثة من عام 2112 ق.م حتى العام 2004 ق.م، وذلك تحت حكم أسرة أور الثالثة، التي أعادت الكتابة باللغة السومرية كلغة رسمية للدولة، ومن أعمالها بناء العديد من الزقورات. إلا أن نهاية هذه الفترة كانت قريبة على يد العيلاميين، ثم خضعت سومر بعد ذلك للدولة البابلية القديمة (1595 – 2000 ق.م) وآشور والدولة البابلية الحديثة (الكلدانية).

أور: موقع أثري لمدينة سومرية بتل المقير جنوب العراق، وكانت عاصمة للسّومريين عام 2100 ق.م. كانت بيضوية الشكل وتقع على مصبّ نهر الفرات في الخليج العربي قرب أريدو، إلا أنها حالياً تقع في منطقة نائية بعيدة عن النهر، وذلك بسبب تغير مجرى نهر الفرات على مدى آلاف السنين الماضية.

أوروك: أو أورك أو أرك، هي مدينة سومرية تبعد عن مدينة أور 35 ميلاً، وتسمي في العراق وركاء. ظهرت بها حضارة ما قبل التاريخ، حيث كان يصنع بها الفخار غير الملوّن على الدولاب الدوّار، كما صنعت الأوعية المعدنية. اخترعت بها الكتابة المسمارية، وهي عبارة عن مقاطع بسيطة للأصوات على ألواح طينية كانت تشوى.

كان خامس ملوكها غلغامش، وكانت موئلاً لعبادة الإله أنو ولعبت دوراً محورياً في ملحمة غلغامش، وكان بها معبد (إنانا) الأبيض الذي كان عبارة عن مصطبة. واشتهرت بالأختام الأسطوانية الغائرة. وكانت المدينة عاصمة لإقليم بابل السفلي، إلا أنها فقدت أهميتها بعد ظهور دولة أور.

❊ ❊ ❊

يُعدّ الدين في سومر من أقدم الأديان الموثقة (كتابياً) في تاريخ البشرية، وقد كان لنصوصه الدينية تأثير واضح على مجمل أديان الهلال الخصيب وأحياناً المناطق المحيطة به. لقد قدس السومريون، بالإضافة إلى الآلهة الرئيسية والقديمة، مجموعة من الآلهة الخاصة في كل مدينة على حدة، التي تنافست فيما بينها، وتدريجياً احتلت

مكان بعضها في حال تشابه الصفات الممنوحة للآلهة المختلفة، لتشكل بانثيون سومرياً، يمكن تتبعه في الكثير من النصوص، وعلى الأخص ملحمة غلغامش التي كُتبت أساساً في العهد السّومري، وبقيت الكثير من الشخصيات الإلهية السّومرية متضمنة بها، على الرغم من التحرير وإعادة الكتابة التي طالتها عبر تعاقب الثقافات.

❋ ❋ ❋

مؤلفة هذا الكتاب:

أمّا بطلة روايتنا ماري تْشَب Mary Chubb، فقد ولدت في منطقة بلومزبُري Bloomsbury بلندن في 22 مارس من عام 2003، وسرعان ما استهواها في صغرها البحث في الوثائق التي كانت أسرتها تقتنيها إبّان العهد الڤيكتوري، وهذا ما ولّد لديها شغفاً بدراسة الماضي واستكشاف أسراره. أتمّت دراستها في مدرسة هايغيت Highgate، ولكنها لم تتمكّن من السّفر بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى 1914–1918. وكانت منذ صباها تحلم بالانضمام إلى إحدى البعثات الأثريّة التي ألهبت مخيّلة المثقفين في عهد الملكين إدوارد السّابع وجورج الخامس، وخاصّة إبّان قيام الآثاري البريطاني الشهير هاورد كارتر (1874–1939) بالتنقيب في وادي الملوك بمصر بين 1905–1914 ثم ثم انتهى به الأمر إلى اكتشاف أعظم وأروع كنز أثري هو مقبرة الملك توت عنخ آمون في عام 1922.

بتأثير من والد جدّها جون تشَبْ John Chubb المقيم في بريدجووتر Bridgewater، الذي كان هاوياً موهوباً للفنّ، التحقت ماري بالمدرسة المركزيّة للفنون Central School of Art لدراسة النّحت، ونالت في الوقت ذاته وظيفة في جمعية استكشاف مصر Egypt Exploration Society، وقبل ذلك كانت قد درّست اللغة اللاتينية في مدرسة إعدادية للفتيان، ممّا نمّى لديها حب دراسة العوالم القديمة.

بعد أن أصابها الملل من وظيفتها بلندن، التحقت بوظيفة أمينة سرّ إحدى بعثات التنقيب في مصر، فسرعان ما انغمست في عشق دراسة الآثار والتنقيب عنها، وبدأت

باكتساب الخبرة. وبعد أكثر من عقدين من الزّمان ألّفت كتاباً هو: *Nefertiti Lived Here* «نفرتيتي عاشت هنا»، حول مكتشفات مدينة تلّ العَمارنة بمصر، التي كانت لفترة ما عاصمة للملك «الكافر» إخناتون وزوجته الجميلة نفرتيتي (التي تظلّ اليوم أجمل وجه وصلنا من العصور القديمة)، كما كانت هذه المدينة مرتع الطفولة للملك الشاب توت عنخ آمون، فازدهرت 14 عاماً ثم هُجرت وألغي ذكرها من السجلاّت الرّسمية لدولة الفراعنة لمدّة قرن من الزّمان.

❋ ❋ ❋

بعد هذه البعثة، توجّهت ماري من مصر إلى جزر اليونان، فزارت قصر كنوسوس في جزيرة كريت، ومواقع أثريّة أخرى في ميسينا وإپيداوروس وغيرها. ثمّ في عام 1933، التحقت بالبعثة الأثريّة التي يقوم بها المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو في العراق، كما ذكرنا في المقدّمة، وكانت حصيلتها اكتشاف مدينة إشنونّا السّومريّة، التابعة لمملكة أور. وهو ما تدور حوله أحداث هذا الكتاب الذي نُشر للمرة الأولى بلندن عام 1957.

تضافرت المهارة وحسن الطالع، فراح أفراد فريق العمل يستكشفون ويكتشفون الكثير، ومرّوا بتجارب مريرة من العواصف الرّمليّة والأفاعي، وشاقتهم متعة التعاطي مع المجهول، والفائدة التاريخيّة والأهميّة البالغة لما عثروا عليه، وكذلك بهجة ومتعة الحياة الجماعيّة اليوميّة. ذلك كلّه جعل رواية تشَب في هذا الكتاب أشبه ما تكون بقصّة، بأسلوبها الشخصي في الوصف وفي تلاحق أحداثها. ومن الواضح أنها امتلكت الموهبة في الرّبط ما بين العلم والمتعة، وفي تصوير دقائق الحياة الحميمة لمجموعة من الآثاريين كانوا أصدقاء أكثر ممّا كانوا زملاء.

في عام 1938، أمضت ماري عاماً كاملاً في جامعة شيكاغو، التي موّلت بعثة التنقيب الثانية، فتولّت تحرير التقارير العلميّة للبعثة، وأسهمت في نجاحها. ولدى اندلاع الحرب العالمية الثانية عام 1939 عادت إلى إنكلترا، وهنا وقعت لها كارثة فادحة أدّت إلى إنهاء مهنتها كباحثة في الآثار، عندما كانت تمتطي درّاجتها فصدمها

لـوري عسـكري وأصيبـت إصابة بالغة وفقـدت إحدى سـاقيها. ولعلمها أنهـا لـم يعد بوسـعها العمل في خارج البيت، فقد توجّهت إلى الكتابة، وكانت تذيع بعض البرامج الثقافيـة في هيئة الإذاعـة البريطنية BBC، وتكتب لمجلات متنوّعـة، ثم التفتت أخيراً إلى تأليف سلسـلة من القصص للأطفال حول الشـعوب القديمة: الإغريق، الرّومان، والآشوريين، ونفّذت رسومها جارتها الرّسامة جيل وايات Jill Wyatt.

عاشـت ماري تشَب قرناً كاملاً من الزّمان، وتوفّيت في يوم 22 يناير من عام 2003، فكانت تقريباً الأخيرة على قيد الحياة من فريق العمل الذي عاشـت معه أحلى سنة في حياتها قبل مصابها الأليم، فعاشـت ذكرى هذه الأيام الجميلة بين ضلوعها حيّة وثمينة لا تُنسـى. والفـرد الوحيـد الذي بقي بعدها علـى قيد الحياة كان الطفل يـون، ابن هانز فرانكفـورت وزوجتـه ييتي، فظلّ حيـاً إلى عام 2006 على الأقـل، ولا أدري بعدها إن مات أم ما زال على قيد الحياة.

* * *

لكن ثمّة فصلاً أخيراً أبى القدر إلا أن يلحقه بهذه الرّواية الجميلة، ولو أنّه لم يمهل ماري أن تعيش لشـهرين آخرين، لتشـهد بنفسها كما شـهد العالم كلّه سقوط بغداد في 9 أبريـل من عـام 2003، وكيف أصيب تاريخ الإنسـانية بأفدح مصيبة وأبشـع جريمة، عندما تمّ نهب المتحف العراقي في بغداد، واستبيحت جميع المواقع الأثريّة السّومريّة فـي جـوب العراق مـن قبل لصـوص الآثار. وبلـغ عدد القطـع الأثرية المسـروقة من المتحف 170 ألف قطعة، كما أُحرقت مكتبته النّادرة التي تضمّ أندر الوثائق والمصادر القديمة!

تـرى، ماذا كان شـعور هذه الكاتبة، بأن ترى موئل الحضـارة والكتابة الأول، الذي عشـقت تراثه وعاشت بين ربوعه أحلى سنة من سـني صباها وعمرها كله، وقد أُحرق وتدمّر؟ وكيف يكون شـعور عالم الآثار بأن يـرى تلك الكنوز الباهرة، التي صرف في استكشـافها وتصنيفها ودراسـتها ونقلها إلى المتاحف عصارة عمره، وقد صارت بين أيدي اللصوص وتجّار الآثار؟

سؤالٌ لا نملك الإجابة عليه..

لكننـا، نتـرك القـارئ مع هـذه الرّوايـة الجميلة فـي ربوع ديالـى بالعراق، فـي أيّام حكـم الملك فيصل بن الحُسـين، يوم كان العراق فـي أزهى أيامه ينعم بالأمن والأمان والاسـتقرار. وسـتكون لنا في وقت قريب عودة إلى موضوع قريب مشـابه، في كتاب عظيم للآثاري البريطاني أوسـتن هنري لايارد، ألا وهو: «مكتشـفات في أطلال نينوى وبابل».

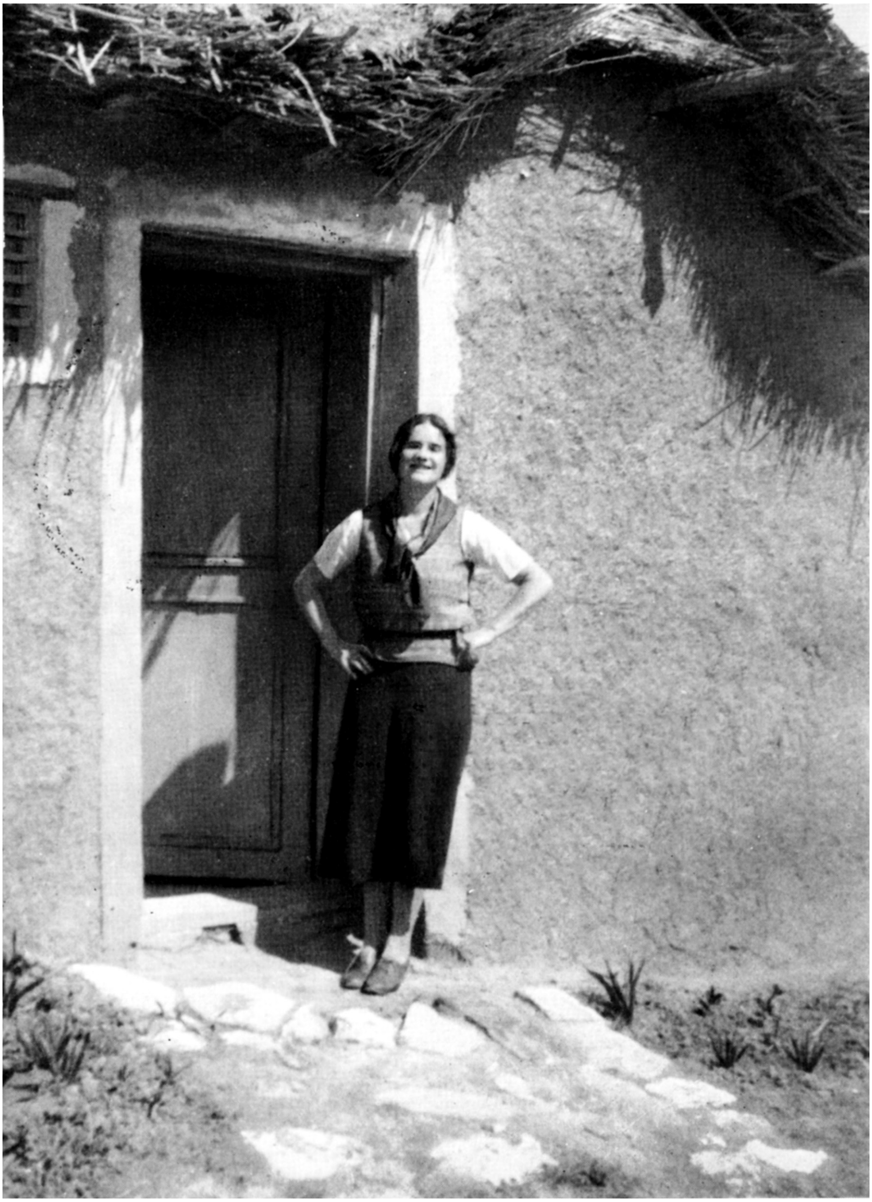
أمّا الآن، فبكل سـعادة نضمّ كتاب ماري تشَـبْ إلى سابقاتها من الرّحالات اللواتي كـنّ بأغلبهنّ بريطانيات، وسـنقرأ رحلاتهن فـي كتب قادمة: مـاري وورتلي مونتغيو، إستر ستانهوب، الليدي آن بلَنت، إيزابيل بُرتون، جين دِغبي، مايبل بِنت، أيمي زويمَر، مسز فوردَر، غرترود بِل، فريا ستارك، إيزابِل إرهارت، إميلي روث، ڤايولِت ديكسون، أليسون ليريك.

والحمد لله تعالى على ما وفّق وأعان.

جبيل، 10 فبراير 2011

د. أحمد إيبش

* * *



صورة المؤلفة، أبريل في خُرساباد

شكر وتقدير

أودُّ أن أتوجّه بالشكر إلى مدير المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو للطفه بالسّماح لي بتقديم تلك الصور التي تخص المعهد، والتي ترد في قائمة الرّسوم. كما أنني ممتنّة جداً للسيدة هيلدا پندلبُري Hilda Pendlebury لسماحها لي بنسخ صورة جون پندلبُري في هذا الكتاب.

لقد استندتُ في الكثير من المواد الأثريّة في هذا الكتاب إلى منشورات المعهد الشرقي وخصوصاً بعثات العراق الاستكشافية، تلك التي كتبها مدير التنقيب الرّاحل البروفسور هانز فرانكفورت Hans Frankfort؛ واستخدمتُ أيضاً الكتاب المعنون: «قناة سِنَّحْريب في جِروان» *Sennacherib's Aqueduct at Jerwan*، الذي ألّفه كل من البروفسور توركيلد ياكوبسن Thorkild Jacobsen والسيّد سِتون لويد Seton Lloyd. وأود أن أشير إلى أن أيّ خطأ من الممكن أن أكون قد وقعت فيه دون قصد، بالرغم من العناية الفائقة التي أوليتُها في قراءة تلك المنشورات، إنما تقع مسؤوليّته على كاهلي وحدي.

وكلّي أمل بأن يتكرّم هذان العالمان بغضّ النظر عن أي خطأ باللطف ذاته، كما أثق بأنه سيكون أيضاً ما يتكرّم به قائد بعثتنا التنقيبية.

فرويل Froyle 1957

ماري تْشَبْ

الفصل الأوّل

ترنّحت السّفينة الرّومانيّة القديمة بفعل الرّياح؛ لتشقّ طريقها متّجهة إلى پيرايوس[1] Piraeus فـي ليلتهـا الثّانيـة بعيداً عـن الإسـكندريّة، وبعد تأرجح عارضتها اسـتقامت وشـقّت طريقها برفق عبر المياه الهادئة. انسـللتُ من سـريري خارج المقطورة الحارّة فتلقّاني ثبات سـطح السّفينة تحت قدميّ. كانت السّاعة تقارب الواحدة صباحاً وكنتُ قـد أمضيـتُ فترة العاصفة معظم النّهار وأنا أشـعر بالدّوار ممّا سـبّب لي الملل من كلّ مـا يحيط بي. خلال لحظات الصّحو التي مررتُ بها كنتُ أمعن النظر في صور السّـيّد الرّوماني ذي الشّـارب الكبير لأفهم حركات أ، ب، ج في قميص النّجاة، فحفظت عن ظهـر قلب الملاحظات المعلّقة خلف البـاب، وقد ترجمت إلى الإنكليزيّة على أقرب وجه ممكن:

صفرة واحدة: وقت العشاء قد حان!

صفرتان: ثمّة من وقع في البحر!!

ثلاث صفرات: نزول إلى قارب النّجاة!!!

وهناك ملاحظة تقول: «نرجو من المسافرين إطفاء المصابيح عند منتصف اللّيل»، وهي قد تكون موجّهة لبعض الممارسات الشّعبيّة اليونانيّة المخصّصة لإله البحر، وتلك اللافتة التـي تطلق نداءً مـن القلب وجّهه قبطان البحر المولع بالموسـيقا والتـي تقول: «أرجو من المسافرين ألاّ يعزفوا على البيانو في الصّالون إن لم يكونوا يتقنون العزف».

(1) مدينة ساحليّة معروفة في إقليم أتيكا بضواحي أثينا جنوبي اليونان.

فتحـتُ باب المقصـورة بعد أن ارتديتُ معطفاً فوق بيجامتـي، وانتعلتُ الصّندل[1] المصري، فقابلني صمت في الممرّات الضّيّقة البيضاء يشـوبه صوت السّفينة المألوف وأصوات همهمة الآلات البعيدة يتميّز منه حفيف ضعيف لأصوات بقايا الغسول عائدة من السّـفينة إلى المياه الرّاكدة السّـوداء. لمع ضوء وحيد في ممر السّفينة المهجور، ثمّ هبّت نسمات بحريّة عبر المداخل في جانبيّ الدّهليز. خطوتُ في الظّلام على الألواح المتدرّجة في جانب السّـفينة الأيسـر، وشـققتُ طريقي إلى مؤخّرة السّـفينة مارّةً فوق ظهر المركب الرّطب بفعل الرّشقات المتناثرة على السّياج في فترات الطّقس السّيّئة.

كنّا ننساب في الفراغ الدّافئ، ويعمّ حولنا سكون سحري، وقد تدلّى القمر العسلي ـ في ذلك الوقت المتأخّر من اللّيل ـ منخفضاً فوق برّ مصر هناك في مكان بعيد خلفنا، ورغـم أنّـه قد بزغ للتـوّ فإنّ نوره كان مشـعّاً ممّا جعل السّـماء مضيئـة والأفق واضحاً للعيـان حولنا. لم يكن حولنا غير السّـماء الشّـاحبة المتوهّجة وظـلام البحر الحريري ونبضـات قلـب السّـفينة المكتومـة. وفجأة لمـع ضوء في قوس السّـفينة علـى جانبها الأيسـر، فحملقتُ في المياه ورأيتُ شـكلاً رماديّاً مخمليّاً قـد امتدّ على طول البحر له حواف متعرّجة رُسـمت قبالة السّـماء، وكأنّه وحش بحري يرقب مرورنا بعيون عنبريّة ناعسة. اجتزتُ السّفينة إلى سياجها في الجانب الآخر فرأيتُ خلفنا كتلةً أخرى داكنةً[2] تقابـل ممرَّ القمر، ومن هناك وميـض[3] أضواء ملاصق للمياه يختفي ويظهر كل بضعة ثوان. إنّها جزيرة اليونان.

إنّها لحظة من أجمل لحظات السّـعادة التي لن أنسـاها أبـداً، أن تكون وحيداً تماماً فـي هدوء إحدى ليالي البحر المتوسّـط يحدوك الأمل بقـرب الوصول إلى اليونان في كلّ لحظة، إذ أصبحنا بين نقاط الحدود الهادئة التي تبعث برسـائل التّرحيب المطمئنة بسلامة الوصول.

---

(1) الصندل: حذاء مفتوح.

(2) داكنة: الدكنة: لون مائل إلى السواد. (القاموس المحيط، ص 1544).

(3) وميض: ومض: لمع خفيفاً. (القاموس المحيط، ص 847).

انحنيتُ على السّياج لفترة طويلة أرقبُ الجزرَ تارة، وتارةً أرقبُ القمرَ البازغ، وتارةً أخرى أرقبُ المياه المكدّرة التي تتدفّق على امتداد صفحة السّفينة الجانبيّة، أترى لفعل هواء البحر خيالاً أم هل هي بوادر العسل وأقاحي الأعشاب وزهر البرتقال في اليونان؟

كنتُ عائدةً إلى لندن من مصر التي كنتُ أعمل فيها طوال الشّتاء (ولم أعلم وقتها بأنّها ستكون المرّة الأخيرة). كنّا في شهر مارس من عقد الثّلاثينيّات الوادع، وكنتُ أعمل سكرتيرةً لفريق يذهب كلّ سنة في بعثة من جمعيَّة استكشاف مصر للتّنقيب في موقع تلّ العمارنة في مدينة أخناتون، وأنا حسب اعتقادي في طريقي إلى إجازة مدّتها ثلاثة أسابيع أمضي بعضاً منها في اليونان لأعود بعدها مع صحبة هنيّة، وأقطع الوديان وأسير على الجبال.

عدْتُ إلى قمرتي في الأسفل بعد أن غلبني نعاس شديد زاده النّسيم البحري. كان الوقت جميلاً ورومانسيّاً لو استطعتُ أن أشهدَ بزوغ الفجر، ولكن كان من المستحيل الانتظار صباحاً لدقيقة أخرى. دخلتُ قمرتي وفتحتُ كوّتها على مصراعيها، ولوّحتُ إلى رؤوس الجزيرة التي كانت تختفي عن الأنظار شيئاً فشيئاً، ثمّ انسللتُ في سريري وبعد ثانية غفوتُ.

وصل إلى أثينا ثلاثة من فرق التّنقيب في تلّ العمارنة بمصر، وهم: جون پِندِلبُري[1] John Pendlebury مدير المنقّبين، وحتّى تلك اللّحظة مازال قيّم كنوسوس Knossos، وزوجته هيلدا وإحدى مهندسات التّنقيب وتدعى هيلاري، فوضعنا خططاً للتّنزّه حول قسم من أرغوليد Argolid في الپيلوپونيز لأنّني وهيلاري لم نكن نعرفها بعد، فقال جون: «نبدأ بميسينا Mycenae طبعاً ثمّ نتّجه جنوباً لنرى تيرينس[2] Tiryns ونمضي

---

(1) جون داڤيد سترينغفيلو پِندِلبُري (1904–1941) عالم آثار بريطاني قام عام 1928 بحفريات في تلّ العمارنة بمصر، وفي عام 1929 عيّنه السّير آرثر إيڤنز محافظاً للموقع الأثري في كنوسوس بوسط جزيرة كريت، فقام فيه بدراسات مهمّة حول عصر البرونز. عمل لصالح المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية، فقُتل في معركة كريت.

(2) تيرينس هو اسمها بالإغريقيّة القديمة: Τίρυνς، أما في اليونانيّة الحديثة فتسمّى: تيرينثا Τίρυνθα.

ليلـةً تقريبـاً في نوپليـا Nauplia ومن ثمّ ننعطف شـرقاً إلى إپيـداوروس Epidaurus، ومنها قد نذهب إلى الشّـاطئ الشّـرقي مـن إپيداوروس الجديدة ونحـاول العودة منها إلـى كورنثة عبر الجبال الواقعة شـمال إپيداوروس، فأنا لم أزرها مطلقاً وسـوف أبرق للنّزول فيها هذه اللّيلة».

اعتقـد جون أنّـه بإمكاننا أن نقوم بالجولـة خلال ثمانية أيّام. كنّـا نجلس جميعاً في مطعم ومشرب بيرة يُدعى لوبيرز *Loubier's* في شارع هرمز Herms وهو مكان بهيج ينجذب المرءُ إليه في المساء عندما تغدو نسماتُ بداية الرّبيع باردةً، كانت البيرة شاحبةً باردةً لا تُنسى، تصحبها دائماً أطباق لوجبات سريعة بكمّيّات كبيرة مصنوعة من الزّعتر البرّي. وبالطبع بإمكان المرء أن يشـرب الأوزو oozo (شـراب حارّ يُقدّم بكمّيّة قليلة) إن أحبّ، ولا يستسـيغه إلاّ مَن يحبّ نكهةَ اليَنسـون التي صُنع منها، وهو شراب ممتع إن كنت تشعر بالتعب والبرد الشّديد.

كانـت حانـة لوبيـرز مليئـةً باليونانييـن الضّاحكين؛ يشـاركهم بفكاهاتهـم جميعها صغـارُ عمّال الضّيافة النّشـيطين الذين يرتدون بزّات بيضاء. وفـي غمرة دفء الرّفاهية والضّوضاء ودعوات الشّراب الحلوة كنتُ أشعر دائماً بأنّني في مدينة غير عاديّة.

وقريباً جدّاً من مكان جلوسنا هناك في مكان ما وراء الصّخب والنّشاط في الشّوارع المضـاءة، تتطاول الصخرة العظيمة المتوّجة بالذّهب بتفاصيلها المدهشـة تحت أنوارُ المسـاء الأخيرة. وحيثما بحث المرء ومن أيّ مكان وجد نفسَـه في أثينا، يرى لمحات من الپارثينون Parthenon ولسـوف يجدها سـواءٌ كان مبحراً مع الغيوم في السّماء، أو استكان لمرأى السّماء الزّرقاء السّاكنة، وكذلك فإنّ معالم أثينا الحديثة ليست تقلّل أو تحجب استعادة الإحسـاس بتواصلها المستمرّ مع مجدها العريق. يظلّ الأكروپوليس Acropolis قلـبَ أثينـا النّابض، ومازالت حياتُها تدور حـول ذلك القلب، على الرُّغم من تقزّم سكّانها واختفائهم وراء هذا الرّمز الخالد لماضيها الباهر.

كانـت مشـترياتنا للرّحلـة في اليـوم التّالي تتألف من الشّـوكولاتة وأفـلام التّصوير وبعض المبيدات الحشـريّة. وفي المسـاء ذهبت هيلدا وجون إلى المدرسـة البريطانيّة

للقيـام ببعض الأعمال هنـاك، بينما ذهبتُ مع هيلاري إلى المتحـف كيما نرى الكنوز التي عثر عليها شـليمان[1] Schliemann في ميسـينا Mycenae عام 1876، من تيجان ذهبيّـة ودروع وحلي وحيوانـات منحوتة، أهمّها القناع الذّهبي الـذي رُفع بعناية كبيرة عن وجه أحد الأموات في قعر أحد القبور الذي يُعتقد بحماس شديد أنّه قبر أغاممنون Agamemnon. كانت السّـماء تُرسل ظلاًّ مستمرّاً من أمطار اليونان المباركة، فانسللنا بجرأة إلى أحد الأفلام اليونانيّة حتّى استطعنا أن نلتقي الآخرين ونحن بهندامنا الحسن فـي حانة لوبيـرز. كان الفيلم تجسـيداً لقصّة دافنيـس وكلـوي Daphnis and Chloe التّاريخيّة، وكان إنتاجه مؤنسـاً ومسـلّياً كقصّته، والمناظر خلابة حيث أدّى بطلا الفيلم الجميلان الشابان دورهما. كان فيلماً جميلاً ولم يبدُ أنّ أحداً لاحظ أثناء عرض الفيلم أو اهتمّ لمنظر دافنيس Daphnis وهو يقود قطيعه عبر الدّروب يرافقه سلكُ الهاتف أو أن تمرّ لبرهة حافلة عبر زوايا المنظر.

أسـرعنا بالمغـادرة قبـل بـدء الفيلم التّالـي، وهـو فيلم أمريكـي بصناعة سـينمائيّة متطوّرة، وقد أُعلن عن أسـماء أبطاله بأحرف يونانيّة وهي[2]: TSON MPARIMOR and MPILLI DOB . لقـد اسـتطاع اليونانيّـون بأفضـل وجه قولبة مشـكلة الحروف غيـر الموجـودة في أبجديّتهم، ففـي اليونانيّة يُلفظ حرف B مثـل V ولكنّها لن تفيد إذا كانت كلمة أجنبيّة تحوي حرف B فأقرب لفظ لها هو MP وبالطّريقة نفسها. فأفضل ما استطاعوا الوصول إليه في لفظ J هو TS وهو كافٍ لشرح لائحة أسماء مشاهد النّجوم الأمريكيين القدامى في ذلك اليوم الماطر في أثينا.

غادرنـا عصـر اليـوم التّالي على متـن قطار متّجـه إلـى البيلوبونيز بداية عبر أسـفل

---

(1) هاينريخ شليمان Heinrich Schliemann (1822 – 1890) رجل أعمال ألماني وعالم آثار، اشتهر بدفاعه عن نظريّة أن المواقع المذكورة في أعمال هوميروس لها مصادقيّة تاريخية وأنها حقيقية. اشتهر بتنقيباته في طروادة وميسينا وتيرينس، وأهمّها كما تذكر تشَب هنا قبر الملك الإغريقي أغاممنون، وفيه عثر على قناعه المحفوظ اليوم في المتحف الوطني للآثار في أثينا.

(2) والمقصود طبعاً: الممثل الأميركي جون باريمور John Barrymore، والممثلة الأميركية بيلي دَف Billie Dove.

التّلال غرب أثينا باتّجاه ميغارا Megara، ومن هنا بدأت الأراضي ترتفع بالتّدريج نحو المرتفعات الصّخريّة التي تسلّقها القطار ببطء نحو الأعلى إلى أن تركنا قوارب الصّيد بعيداً خلفنا من الأسفل على المياه المتلألئة. أصابنا الدّوارُ في بعض اللّحظات عند وصولنا إلى الحافّة، وحدّقتُ أحياناً عبر النّافذة محاولةً ألاّ أفكّر في الانهيارات الصّخريّة والهزّات الأرضيّة، لأنَّ الجَمال المطلق للمنظر فوق البحر جعلني أحرصُ على رؤيته، فقاومتُ إحساسي بالغثيان، وراقبْتُ قممَ الجبال الدّاكنة المتشابكة التي تميّز السّاحل الشّمالي للبيلوبونيز جنوباً قبالة المياه. وعندما نظرتُ إلى طريق قدومنا الذي خلّفناه وراءنا استطعتُ رؤية سَلاميس Salamis تمتد ملاصقةً لساحل أتيكا وهي تتلألأ تحت أشعّة شمس العصر بلون أخضر وذهبي. كنّا في علوّ شاهق سمح لنا برؤية الممرّات الزّرقاء في الأسفل حيث كان في ماضي الزّمان أبحر أسطول فارسي ضخم إلى مصيره المحتوم، وبعيداً عنه أيضاً رأينا جزر پسيتاليا Psittalia الصّغيرة المليئة برُفات الغزاة. فعندما اشتدّت المعارك غرقت قوارب الرّجال البائسين تحتهم فسبحوا للنّجاة بأرواحهم باتّجاه تلك الجزيرة حيث رجمهم اليونانيّون بالحجارة حتّى الموت، أو تقطّعوا بجروحهم عند زحفهم إلى الشّاطئ.

امتدّت كورنثة أمامنا فانعطفنا نحو الجنوب، وقطعنا القنالَ عن طريق الجسر الواقع في نهايتها الغربيّة. واختفت أتيكا Attica وخليج سارونيك[1] Saronic خلف رعن صخري، وصرنا الآن في البيلوپونيز مع مياه خليج كورنثة تطلّ من يمينها نحو غروب الشّمس جنوبي كورنثة في قلب السّهول الجبليّة. كان اللّيل يرخي سدوله ونحن نتسلّق عبرَ سهول منعزلة وصخور سوداء تتّجه نحو الأعلى على جانبيّ الطّريق الملتويّة وواد سحيق يترامى بعيداً عن الدّروب الضّيّقة.

كنا في بعض الأحيان نرى بالأسفل قامةً ساكنة لراع يحمل عصاه قربَ قطيعه، وكلبه جانب القطار يسابقه بجنون ليُبعد شخير التّنّين الذي يظنّ أنّه يهاجم قطيعه.

اتّسع الممرُّ وانزاحت الصّخورُ المرعبة لتظهرَ الهضاب المعتدلة، وبدأ القطار

(1) اسمه باليونانيّة: سارونيكوس كولپوس Σαρωνικός κόλπος.

البطيء بالتّسارع. كنّا نغادرُ الجبالَ، وعندما انعطفنا إلى الأسفل عبر قاعدة الهضاب بدت السّهولُ العظيمةُ منبسطةً – وفي الغسق نحو الجنوب بعيداً وأمامنا لمعت مجموعةُ أضواء.

قال جون: «هذه هي آرغوس Argos».

بدأ القطار بالتّباطؤ وهو يدخل في محطَّة صغيرة على بُعد عدّة أميال من المدينة الكبيرة الوحيدة في سهل آرغوس Argos ثمّ توقّف وانتظر وهو يهسهس[1] بهدوء. في تلك الأثناء جمعنا جربنديّاتنا[2] ونزلنا إلى الرّصيف حيث تدلّى من السّقف فانوس زيتي وحيد فأضاء لافتةَ الصّفيح المعلّقة على الحائط خلفَه والتي عرفنا اسَم المحطّة منها وهي ميسينا Mycenae.

هدر القطار مقلقلاً باتّجاه آرغوس وأقبل رجل نحو جون وهيلدا وصافحهما. لقد كان سپيرو Spiro، وهو الثّالث من أربعة إخوة يقومون على شؤون النّزل «هيلين الجميلة» Fair Helen قرب الموقع التّاريخي في ميسينا، فقد وصلتهم برقيّةُ جون فجاء سپيرو لاستقبالنا، وقادنا إلى خارج المحطّة، وهو يتحدّث بحماس، وانطلقنا عبر طريق طويل منبسط مستقيم يمرّ شرقاً بين أشجار السّرو السّوداء. وهكذا بدأ المسير فعلاً.

كنّا نتقدّم على طول قاعدة سلسلة الجبال التي قطعناها للتّوّ والمرتفعات الأرضيّة إلى اليسار، والسّهل إلى يميننا. وإلى الأمام استطعتُ أن أميّزَ الحدود العالية الدّاكنة لسلسلة أخرى تمتدّ شمالاً وجنوباً. كان الطّريق مبتلاً بسبب الأمطار التي هطلت على هذا الجانب من الجبال وكنّا نسمع صوتَ قطرات الماء على المنحدر، ويعبق الجوُّ برائحة الصّنوبر والعشب الرّطب. ومع ذلك كانت السّماءُ صافيةً، والنّجومُ تتلألأ بين شجرات السّرو التي بدت وكأنّها تسير معنا. ورغم أنّ القمر لم يكن بازغاً فإنَّ ظلالنا تطاولت وتصاغرت على سطح البحيرات في الطّريق، لأنّ سپيرو كان يحمل مصباحَ

(1) الجربنديّات أكياس رحلات تُحمل على الكتف.

(2) يهسهس: الهسهسة: كل ما له صوت خفي. (القاموس المحيط، ص 750).

نار متوهّج. وسـپيرو فتىً شـديدُ النّحول، وجهه شـاحب، تبرز عظـامُ خدوده، وفوقها عيون سوداءُ متّقدة يتوّجُها شعر متشابك مبعثر.

قطعنـا قرابةَ الميل سـيراً قبل أن تظهـرَ بعضُ المنازل المنعزلة علـى طرفَي الطّريق، ثمّ وصلنا إلى نُزل «هيلين الجميلة» Fair Helen الذي يقع يسـاراً خلف الطّريق، وهو عبـارة عن بناء أبيض غير مرتفع واسـمه المعـروف والمحبوب مكتـوب بألوان زرقاء باهتة فوق الباب حيث عُلّق الفانوس. تأخّر سـپيرو قليلاً ليفسـح لنا حتّى ندخلَ جميعاً ثـمّ صاح منادياً إخوتَه فدخلوا مبتسـمين واحداً تلو الآخر: كوسـتي Costi، وهو الأخ الأكبـر، رجـل قصيـرُ القامـة، أعرج عرجاً شـديداً. ثـمّ فتىً عمـلاق يُدعـى أغاممنون Agamemnon، ثـمّ الأخ الأصغـر أوريسـتِس Orestes، فتى في السّادسـة عشـرة من عمره له أنف حاد، قصير القامة ممتلؤها.

بعـد أن انتهينـا من رؤية غرفنا التي تقع في أعلى سـلّم خشـبي قبالة الجدار الخلفي للمنـزل نزلنـا إلى غرفة الجلـوس المتطاولة، واسـترحنا في أوّل ليلة مـن تلك اللّيالي المثاليّـة التـي تحـدث عندمـا يكون المـرء في ترحـال عبرَ الـدّروب الشّـاقة في ريف اليونان. لـم تخلُ النّوافذُ المعتمةُ من صفوف الوجوه المهتمّة التي تحدّق إلى الدّاخل؛ والمجمرة على الأرض في المنتصف من حلقة المستقبلين اللّطيفة والضّيوف والعمّال الذين دخلوا، وكلّ منهم يقدّم كؤوساً فيها قليل من شرب الأوزو أو البراندي أو البيرة، وأصوات الحديث تعلو وتنخفض، ثمّ وصَلتْ إلينا رائحةُ الطّبخ الشهية يحملها الهواءُ الدّخن الخارج من المطبخ.

سـأل جون سـپيرو إذا كان يعتقد أنّ بإمكانه مرافقتنا في مسـيرة الأسبوع التي نعتزم البدءَ بها، فيسـاعدنا فـي نواح متعدّدة، وكدليل لنا عبر الأجـزاء المجهولة من الطّريق. بدأ سـپيرو بالقول إنّه بالتأكيد سـيفعل، غير أنَّ أخوَيه الأكبر قالا: «لقد كان مريضاً في المدّة الماضية والجو الرّطب سيجعل حالته الصّحيّة أكثر سوءاً، غير أنّه سوف يتحسّن فـي فصـل الصّيف». جلس سـپيرو صامتـاً، وهزّ كتفيـه النّحيلين كمن أُسـقط في يده، ورفع يديه إلى الخارج بإشارة حزينة يملؤها الفضول. وافق الجميع على أن أوريستِس

يستطيع، فقد أصبح الآن شاباً وبإمكانه القيام بالرّحلة معنا، ولا يوجد عمل كثير في النّزل يستدعي وجوده إلى جانبنا. ستكون تجربةً جيّدةً له، فهو يرغبُ في أن يصبحَ دليلاً للمسافرين الرّحّالة أمثالنا، ثمّ إنّه يعرف الكثير من اللّغة الإنكليزيّة التي يتطلّبها هذا العمل. رفع أوريستِس نظره إلينا وهو يبتسم بحياء، بعد أن كان مقطّباً وهو يقرأ في كتاب صغير في إحدى الزّوايا، وهكذا تبيّن أنّه هو من سيذهب معنا.

صادفنا لاحقاً في المساء الكتاب الذي كان يدرسه أوريستِس عندما كنّا بمفردنا، كان كتاباً باليونانيّة لجمل بالإنكليزيّة مع التّهجئة بأحرف يونانيّة، وكانت الجمل نفسها غالباً غيرَ مترابطة كالجملة التي لا تُنسى «بحقّ السّماء، قد صُعق الحوذي بومضة برق» ومن المؤكّد أنّها كانت تقابل المشكلةَ القديمةَ MP وTS وهكذا. وحرف D الذي كان يُلفظ TH باليونانيّة الحديثة، كان لا يقوم مقامَ صوت حرف D في الإنكليزيّة لذلك حلّ محلّه NT.

وممّا جعلنا سعداء جدّاً قول المؤلّف: Ai lä–ik Rampmpits وأعلن فجأة ومن ثمّ بحياء نوعاً ما يحسبه المرء كتب:

Ntoo you lä_ik Rampmpits?

وتابعَ ليعزفَ على موضوع الأرنب لأكثر من نصف صفحة أخرى. وطوال مدّة الرّحلة قامت جملة ?Ntoo you lä-ik Rampmpits (هل تحبّ الأرانب؟) معنا تعليقاً عمليّاً لكلّ شيء من جملة: «هل ترغب في سيكارة؟» إلى: «هل أنت بخير؟» عندما تتعثّر بجذر غادر فيطرحك على وجهك أرضاً في الدّرب، أو جملة: «أليس هذا الصّباح ملائكيّاً؟»، نوع من الجمل الخرقاء المريحة التي تحاول لفت النّظر قد تغلغلت في معظم العائلات، ونحن الآن بعد المواسم التي أمضيناها في مصر مازلنا نتّبع ذلك الأمر.

كان صباحُ اليوم التّالي معتماً بفعل الغيوم، وبدأ الرّذاذُ يسقط عند بدئنا الرّحلة على طول الطّريق الممتدّ شرقاً، ولم نكن نحملُ عتادَ الرّحلة؛ لأنّنا سنعود لنبيتَ ليلةً أخرى

في النّزل. انعطفنا إلى اليسار، وبدأنا بالصّعود حيث تعرّج الطّريق صعوداً حول هضبة كبيرة. أصبح ظهرنا الآن باتّجاه السّهل، ونحن نصعد إلى داخل مدرّج يوناني أغلقته بإحكام صخور مسنّنة في ثلاثة جوانب منه. لم نتمكّن من رؤية مداها إلى الأعلى فقد كان الضباب منخفضاً فغطّاها. ويرتفع الطّريق دوماً باتّجاه الأعلى وقد يدور إلى اليمين متّبعاً انحناءَ الجبل، وتعرّجه على شكل حرف U ويدور باتّجاه اليمين إلى أن يصلَ إلى نقطة الوقوف التّام قبالةَ سفح الجبل عبر الوادي السّحيق. وفي الأسفل عند الحفرة الضّبابيّة حيث انخفضت الأرضُ بعيداً عن الطّريق توجد في الأعشاب كتلٌ لمّاعة قاتمة ضخمة من الآجرّ. بدا العالَم في ذلك الصّباح كأنّه قد خلا إلاّ منّا نحن الأربعة، ونحن ننطلق صعوداً ونميل إلى اليمين طوال الطّريق إلى أن وصلنا إلى نهايته حيث يمتدّ بين أطلال جدران ضخمة. ظهر الآن للعيان عبر الطّريق حاجزٌ منيع خلال ضباب صخور الجبل الصّامدة، وكنا كلّما اقتربنا منها يتبيّن كيف أنّ مركزها أصبح واهناً[1]، وقد ترقّق حتّى ضاع في الفراغ. لقد وصلنا في الأعلى إلى بوّابة الأسود التابعة لميسينا Mycenae.

على السّاكفة الضخمة المنحوتة من كتلة حجريّة واحدة ينتصب زوج من الأسود بمثابة شعار، على جانبي العمود المركزي المخروطي، وهما على وضعهما منذ أكثر من 2000 سنة، وقفنا لحظات دون كلام، في ذلك المكان الغريب في مدخل حصن أغاممنون وبينما تراكم الضّباب عبر البوّابة وتدفّق أمامنا منحدراً من الطّريق كطيف أحد المحاربين التّاريخيين انطلق مجدّداً نحو البحر باتّجاه طروادة البعيدة، تجاه الثأر.

قالت هيلاري ببطء: «يبدو لي أنَّ هذا هو اليوم الأنسب لرؤية هذا المكان للمرّة الأولى». تقدّم جون نحو حاجز البوّابة الحديث الذي حجز الطّريقَ إلى الدّاخل، فناوله الحارس في القرية المفتاح حيث أنّه كان عالم الآثار المتميّز. فقال وقد بدتْ على وجهه تعابيرُ الفخر: «أحسُّ بالعظمة وأنا أمسُك بيدي مفتاحَ مدينة ميسينا». كان يتكلّم مازحاً، ولكنّي أثق بأنّه وكعادته قد غلّف كلامَه بنغمة طوّقت كلماته كعباءة رقيقة

(1) واهناً: الوهن: الضعف. (القاموس المحيط، ص 1599).

بحيث كانت أيّ شيء عدا الهزل.

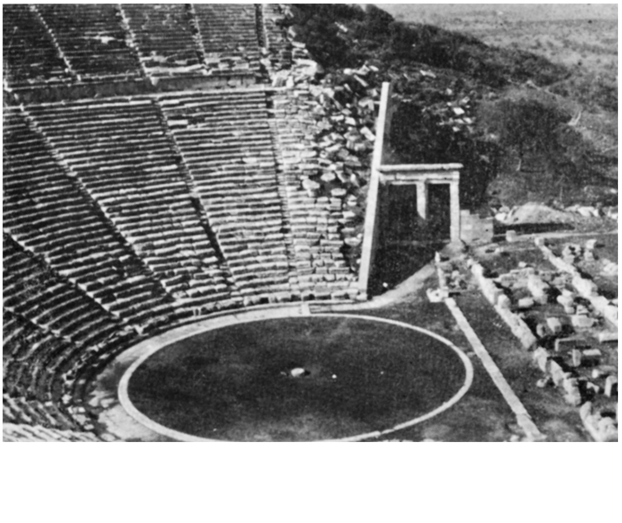
تحرّكنا عبر البوّابة الظّليلة إلى داخل حصن القلعة، وهناك على الجانب الأيمن بين الأعشـاب النّديّـة والأزهار كانت تقبـع الدّائرة المزدوجة للألـواح الصخريّة العموديّة حيـث وجـد شـليمان بداخلها منجـم القبـور، وحيث أمعـن النّظر في الأسـفل باتّجاه فجواتها المعتمة واخترق ثانيةً غطاءَها الأسـطوري، ووجد أنّه كما كان يؤمن دوماً بأنَّ الحقائقَ التّاريخيّةَ تقبع في قلبها.

تسـلّقنا باتّجاه قمّة القلعة فوق صخور الجدران الضّخمة إلى الأعلى باتّجاه قاعات أغاممنـون المعتمة. وهناك في الأعلـى فوق البوّابة حيث قواعد الأعمدة الأسـطوانيّة والبوّابـات التـي بنيـت منـذ 1000 سـنة وأكثر قبل أيّـام اليونـان القديمـة، كان ربما ما يـزال يمكن بوضوح رؤية تلك الزّوجةَ الخائنةَ كليتِمنِسـترا Clytemnestra وعشـيقَها إيغيسـتيوس Aegistheus يراقبان ظهورَ إشـارة من المنارة تحذّرهم بأنّ البطلَ قد عاد مـن طـروادة Troy وقد يكون الآن قادماً من السّـاحل. وقد يكون هنا قرب هذا الموقد المطمـور حيث كنّـا نقف، ربّما كان قد وقع مصروعاً حتّى حيـن تلفّظت بأوّل كلمات التّرحيب المزيّفة.

* * *



بوّابة الأسود في ميسينا
مدخل حصن أغاممنون



المسرح في إپيداوروس

انطلقنا في اليوم التّالي إلى تيرينس Tiryns باتّجاه الجنوب في ضوء الشّمس السّاطع، برفقتنا أوريستِس كانت قممُ الجبال المحيطةُ بميسينا شاهقةً وواضحةً الآن بلون بنيّ محمر قبالةَ اللّون الأزرق الهادئ. قطعنا قرىً صغيرةً ببيوت بيضاءَ قائمة بين بساتين من اللّيمون والبرتقال متلألئ الأوراق القاتمة بين الذّهب والياقوت الأصفر. أحضر أوريستِس عكّازاً اقتطعناه من أجمة[1] على جانب الطّريق لأنّي لم أمتلكْ واحدةً. شذّبها وهو يمشي، وشكّل لها قبضةً منحنيةً ولها فتحة لتتداخلَ في رأس العصا. وصاحَ متلطّفاً وهو يعطيني إيّاها «للآنسة ماري ـ Yia Thespeena Maria» أدركتُ بسرور أنَّ عبارة ثيسپينا Thespeena كانت الكلمة نفسها التي تعني السّيّدة ولكن تُلفظُ بطريقة أخرى ديسپوينا Despoina وكانت تُستعملُ في الماضي والمسرح. مازالت تلك العصا على جدار غرفتي حتّى هذا اليوم.

وهكذا وصلنا إلى تيرينس Tiryns وهي صخور جيريّة ضخمة تبرز إلى الأعلى في سهل منبسط متوجّه بجدران حصنُها ذات السّماكة الهائلة. روت الأساطيرُ أنّها مسقطَ رأس هرَقل Herakles وأكّدت الأساطيرُ أنَّ پروتوس Proetus كان ملك تيرينس وأنَّ عمالقةَ السيكلوپ Cyclops السّبعة قد وضعوا المقاطعَ المضلّعةَ الضخمةَ سويّة لتشكّلَ الجدران. ورفض علماءُ الآثار تلك الأطلال عام 1884 على أنّها من القرون الوسطى، وأنّها لا تستحقّ البحث، جميعهم ما عدا شليمان Schliemann الذي كان بمفرده يتبعُ حدسه بأنّ هناك في مكان ما سيجد التّاريخ وراءَ خيال الأساطير. قدم في ذلك العام إلى تيرينس ونقّب في قمّتها العالية، ووجدَ بقايا قصر من أجمل ما وُجد من القصور محاطاً بأسوار محصّنة، ولكونها من القرون الوسطى كانت الأواني الفخاريّة وما عثر عليه يُثبت أنّ تيرينس كانت من دون أيّ شك قديمةً قدم ميسينا Mycenae وفيها قصر محصّن عظيم بناه أحدُ الأمراء اليونان بداية عام 1500 ق. م. وهي أقدم قاعة أوروپّيّة بُنيت بجدران خارجيّة من الصّخر.

تسلّقنا في طريق شديد الانحدار قد شُقّ في الصّخر؛ واختير موقعُه بإحكام وتخطيط

---

(1) الأجمة: الشجر الكثيف الملتف. (القاموس المحيط، ص 1388).

ماكر إذا تسلّقه العدوُّ في هذا الجانب المكشوف (وهو الأيمن) يكون باتّجاه المدافعين، والتّرسُ يكون في جانب اليد اليسرى. فيصعبُ المرورُ عبرَ البوّابة الرّئيسة، ومن بين جدران مزدوجة رُصّت بشدّة. أمّا الجانبُ الدّاخلي لتلك الجدران فقد كانت صقيلةً تتلألأ في الظّل، وقد قال جون: «إنّ سبب ذلك هو صعودُ وهبوطُ عدد لا يحصى من قطعان الخراف إلى تلك الرّابية ومنها، فهي تلمّع الجدران بالزّيت الموجود في أصوافها، وهي تحتكّ ببطء على طول الجدران لتقضم من الأعشاب والأزهار النّابتة فيها».

أفضيْنا إلى السّهل الفسيح الأفيح، وطفْنا عبرَ السّور الخارجي حيث خُصّص للمخازن والإصطبلات. ومن ثمَّ عبَرْنا ما تبقّى من بوّابة ضخمة تفضي بنا إلى ساحة القصر التي تواجه مدخلَ الصّالة الرّئيسة التي كانت فيما مضى ذات أعمدة. استهلّت هذه الصّالة غرفٌ تتضمّنُ حمّاماً فيه حوضُ استحمام مطمور ومصارفُ للمياه.

امتدّت السّهولُ الخضراءُ حولَنا محاطةً من جهاتها الثّلاث بالجبال. وتجمّعت الغيومُ مجدّداً من جهة الشّمال فوق ميسينا Mycenae وانحدرت الجبالُ هناك قاتمةً ومخيفةً. امتدَّ البحرُ إلى الجنوب قريباً جدّاً منّا بزرقته المتلألئة بينما انتصبت جبالُ إسبرطة Sparta هناك عبرَ الخليج حيث تقع نوپليا وقد انعكست صورةُ الثّلوج البيضاءَ على الجبال في المياه السّاكنة. هبَّت ريح عليلة جعلت الزّهورَ المنتشرةَ بين الأطلال تتمايل متراقصةً على الطّريق المنحدرة البيضاء. كان راع يسير باتّجاه الشّمال يلحقُ به قطيع صغير على طول الطّريق الذي قد يكون أغاممنون[1] Agamemnon قد سار عليه ذاهباً إلى حتفه.

ثمّ ذهبْنا نزولاً في طريق آخر، كان جون يعرفه، يقع في الجانب الغربيّ من المنحدر، وهو طريق سرّي فُتح حتّى يستطيعَ الرّجالُ التّسلّلَ منه منزلقين خارجاً بالخفاء في الأوقات الصعبة تحت الطّريق عبرَ الصّخر وينتهي على مجموعة من الدّرجات

---

(1) الاسم في الإغريقيّة القديمة: Ἀγαμέμνων، ويقابله في اليونانيّة الحديثة: أغامِمنوناس Αγαμέμνονας، ويعني: قائد الجمع.

المنحدرة. سـرنا إلى نوپليا عند حلول المسـاء فوجدنا غرفاً في بيت صغير على حافّة الماء تطلّ على القلعة الڤينيسيّة في الخليج.

لـم تقدّم الأسـرّة القاسـيةُ لأطرافنا المرهقـة الرّاحـةَ المطلوبةَ، ممّا جعلَنا نسـتيقظُ مبكّريـن. فـي الصّباح التّالي وبعـد الإفطار المؤلّـف من القهوة والخبـز وزبدة حليب الماعـز ذهبنـا قاصديـن إپيـداوروس Epidaurus التـي تقـع قرب السّـاحل الشّـرقي لأرغوليد Argolid، وبعد خمس دقائق من السّـير السّريع والمناظر الخلاّبّة والصّحبة المرحة نسـينا قسـوةَ اللّيلة الماضية. لم تكن هنالك معالمُ محدّدة للطّريق، فأحياناً كنّا نجد أنفسـنا في الـوادي نتّبع جـدولاً بنّيّاً يخترق أخدودَ بسـاتين الزّيتـون الغضّة، وقد توشّـح العشـبُ الزّاهي باللّون البنفسـجي والقرمزي وشـقائق النّعمـان البيضاء، بينما تمايلـت رؤوسُ النّرجـس البرّي برشـاقة بلونهـا الزّهـري المغبرّ، وتوهّجـتْ رقعات حمراء محروثة بين العشب الأخضر، وعبقت رائحةُ الزّهور والأعشاب في كلّ مكان، وامتـزج صـوتُ خرير المـاء مع رنين أجـراس الماعز أو وقع حوافـر الحمير المحمّلة بأخشـاب الأعشـاب، وهي تتحسّـسُ طريقَها بمهارة. اقتربنا على طـول الطّريق حيث كنّا نشقّ طريقنا صعوداً بصعوبة أكثر على سفح التّلّة الأجرد حيث تصبح البراري أكثر وعورةً.

تقـع إپيداوروس Epidaurus في قلب كل هذا الجمال حيث قدمْنا بعد العصر. كنّا نسـير قريباً من أحراج الصّنوبر عندما تخلّلتها الشّمسُ فأضاءت كتلَ الرّخام الموجودة بين الأعشاب ثمّ أخرى، وأخرى حتّى صرنا نتحسّسُ طريقَنا ببطء بين الأطلال المترامية. وخيّمت علينا ظلالُ تيرينس وميسينا المركّبة عندما بدأ جون وهيلدا يُشيران إلى الأبنية المعقّدة المنتشـرة حولنا ويشـرحان لنا عنها. بدأنا نحسُّ بظـلال الخطر والموت التي بعثتها فينا، وما لبثت فينا طوال هذا اليوم الرّائع، ولـم نتخلّص منها إلاّ عندما وصلنا إلى أطلال إپيداوروس الدّقيقة البرّاقة فأخذتنا إلى الوراء ألف سنة إلى عصر الثّقافة الرّاقي أيّـامَ الحضارة والرّقي للعلم واللّهو والضّحك. في تلك الأيّام الكلاسـيكيّة (القديمة) أنشـئ نـوع من المراكـز الصّحيّـة وهـو محـراب إيسـكولاپيوس Aesculapius وفيه

حمّامات ومعابدُ وبيوتُ استراحة. مع تناميها وتوسّعها اضطرّ اليونان لبناء ساحات ألعاب لإقامة المباريات الرّياضيّة عليها. وقد رأينا ساحتها المستوية وراء الأشجار في الخارج لم تزل موجودةً مع طبقات مقاعدها البيضاء على امتداد كل جانب من أجل المشاهدين. غير أنّ متعة الكمال الجسدي والبسالة لم تكن لتشبع اليونانيين في ساعات لهوهم، فوجدوا متعةَ العقل.

قريباً من هذا الملعب، نجد بقايا أكبر وأرقى مسارح اليونان قاطبة. يقع المسرح في فجوة ضخمة في الهضبة التي تدور حول المدينة، وله سِتون إطاراً من المقاعد المؤهّلة لتستوعب عدّةَ آلاف من محبّي المسرح. أعلاها يبعد مسافة كبيرة إلى الأعلى عن ساحة المسرح حيث يقوم الممثّلون بأداء أدوارهم، ولكنَّ المسرحَ نصفَ الدائري كان يشبه شكل مروحة السّيّد واتّبع خصائصَ لمجال سمع مثاليّ حيث لم يضطّر الممثّلون لرفع أصواتهم كي تُسمَع في أبعد نقطة من المسرح. وقد قمنا بتجربة ذلكَ فوجدنا أنَّ صوتَ إشعال عود الثّقاب في أدنى نقطة على المسرح سُمع كما لو أنّه حدث قربَ الأذن.

بعد ذلك في المساء تصدّينا لتلّة أحراج ونزلنا على منحدر لطيف إلى إپيداوروس الجديدة على الشّاطئ الشّرقي للپيلوپونيز، وتلألأت الأضواءُ منعكسةً على سطح المياه السّاكنة حيث مازالت شبكات الصّيد ممدّدة. وفي تجمّعات البيوت الصّغيرة حول جانب رصيف الميناء أيضاً كان عدّةُ رجال يتجاذبونَ أطرافَ الحديث ويدخّنونَ قرب قواربهم، فسكتوا فجأةً محدّقين بالغرباء الخمسة الذين كانوا يتقدّمون ببطء أو ربّما في حالة واحدة، وقد ترنّحوا نزولاً من الطّريق بين الأشجار، غير أنّهم اعتادوا على الغرباء من بلاد أخرى الذين كانوا يقطعون مسافات طويلة من الكيلومترات سيراً على الأقدام، أو يأتون على ظهور البغال، أو ربّما يتجرأون على السّير على الطّريق الوعرة في سيّاراتهم من أجل رؤية الصّخور التّاريخيّة في بلدتهم. ويجد كثير من المشاة طريقَهم بعيداً باتّجاه مجموعتهم الصّغيرة بحثاً عن الطّعام والمأوى عوضاً عن العودة إلى نوپليا Nauplia بعدما استكشفوا الآثارَ القديمةَ المجاورة.

خلال دقيقة تمّ تحديد مكان إقامتنا ومبيتنا من قبلهم، وكان بينهم تنافس ممتع على

مَنْ منهم سيقوم بتهيئة أمورنا. كان كلّ من جون وهيلدا وأوريستِس Orestes يتدخّلون في الحديث كلّما سنحت لهم الفرصة، بينما انتحيت أنا وهيلاري إلى جدار بحريّ منخفض. كانت هيلاري تتأفّفُ بين الفينة والأخرى وتقول: «إنّه غضروف ركبتي» وأمّا أنا فقد كان ألم قرح متورّم على كعب أحد قدمَيّ قد بدأ يغرز في يقظتي قبل وصولنا إلى الموقع، واستحوذ على انتباهي بشدّة طولَ مسافة الميل الأخير الذي قطعناه فعرفت ماذا كان يعني.

إن السّيرَ الطّويلَ في اليونان كان يتمّ بشكل عمودي سواء كان تسلّقاً قصيراً أم جبالاً بعيدة، فالرّكَب تتحمّل الجهدَ الكبيرَ أكثر من الكواحل والأقدام، وكذلك الأمر أسوأ عند الهبوط في المنحدرات، ولكنَّك عندما تجلس وتسترخي وأنت تعلم أنّك قد وصلْتَ إلى هدفك لذلك اليوم، ثمّ حين تراقب المياهَ السّاكنةَ والجبالَ الشّامخةَ الهادئةَ التي تحمي الخليجَ مع أصوات ضحكات اليونانيين ومزاجهم يملأ سمعَك مسترجعاً الجمال الذي مررْتَ به ذلك اليوم مع خيال تلك اللّحظة، لعلك تنسىَ بعض الشيء آلامَك وكعبَ قدمك الدّامي، بل ويجعله جزءاً من المتعة وقد يشفيه.

انفضّ الاجتماعُ بعد فترة وتوجّهنا إلى منزل على حافة الماء عند الملح الهشّ العتيق، فحيّتنا زوجتُه السّمراءُ البشوشةُ وهي ملفّحة بشال[1] أسود، وأثناء ذلك كان أوريستِس Orestes قد ذهبَ خارجاً إلى مكان ما مع رفاقه الجدد، وجلسنا برهةً بسعادة غامرة صامتين، نأكل حبّات الزّيتون الأسود الصّغيرة في ردهة الاستقبال الضيّقة التي كانت تملؤها طاولة غطّيت بغطاء من القطيفة[2] الحمراء تحمل فانوس زيت صُمّم بطراز قديم. بعد وقت قصير كنّا نأكل السّمكَ الطّازجَ المقلي الشّهي، ولقيمات من أطراف الأخطبوط، ونحتسي خمرَ اليونان الشّاحب ذا النّكهة الغريبة التي جعلتني دوماً أفكّر برائحة الأقحوان النّفّاذة.

أقمنا يومين في ذلك المكان الجميل، فشفيت العضلات المتشنّجة وكذلك برئت

---

(1) شال: دثار.

(2) القطيفة: دثار مخمَّل. (القاموس المحيط، ص 1093).

القروح. كنّا نسبح حول الزّوارق الصّغيرة (الفلوكات) التي طُليتْ بألوان مرحة في الميناء الصّغير وتعرضنا لأشعة الشمس في حقول الزّيتون المشمسة في المنحدرات الخضراء. تابعنا المسير في صباح باكر باتّجاه الشّمال لنجد طريقاً مختصراً يذهب إلى الشّاطئ الشّمالي من الپيلوپونيز وبدأنا على الفور بالتّسلّق داخل بلدة منعزلة جبليّة، لم يكن جون وهيلدا قد زارا هذا المكان من قبل وكذلك أوريستِس الفتي لم يكن قد ذهب شرقاً باتّجاه نوپليا. كان سكّان إپيداوروس الجديدة New Epidaurus الطّيّبون يعلمون بوجود قرية تُدعى سوفيكو Sophiko في مكان ما إلى الشّمال منهم في الجبال الشّاهقة، ولكن عبر طريق البغال فقط، ولم يستطيعوا تقديرَ عدد السّاعات التي نحتاجها للوصول إليها سيراً على الأقدام. لم يكن أحد في اليونان يحلم بإعطاء طول المسافة بالأميال لأيّ مكان، لسبب معقول وهو أنّ الأميال في المسافة الأفقيّة والعموديّة تأخذ أوقاتاً مختلفة لقطعها سيراً على الأقدام، والوقت هو المقياس الوحيد غير العملي عند التّطبيق.

وجد جون سوفيكو Sophiko على خريطته، ويبدو أنّها تقع على بعد عشرة أميال. وقال مبتهجاً بأنَّ ذلك لا يعني شيئاً، إذ أنَّ المخطّطَ يظهر بأنّها تقع في أرض صعبة إلى الأمام.

وهكذا كان، فقد تتبّعنا دربَ البغال ننعطف ونتسلّق وننحدر، وخلّفنا عدداً من الوديان المخفيّة والجرود العالية وأكتاف الجبال وراءنا، وبعد ذلك كنّا في المساء على سفح جبل عال في الجانب الغربي من وادٍ سحيق ينحدر مبتعداً إلى اليمين لمسافة ما يقارب ألف قدم. جلس جون وقدماه فوق الحافّة، وأخرجَ خريطتَه، إذ أنّنا لم نرَ بشراً، ولم نمرّ على بيت طوالَ اليوم. قال متردّداً وهو يشير إلى الخارطة: «لا بدَّ أنّنا هنا تقريباً، ولكنّني لستُ متأكّداً أيّ واحد من تلك الوديان قد قطعنا». لم يكن لدى أوريستِس أيّ دليل وبدا مبهوتاً[1] كيف أنَّ بلدته تبدو غامضةً وغيرَ مألوفة له. ومضَينا نسير في طابور من شخص واحد نراقب ظلالَ الجبل الذي نحن عليه وهي تزحف إلى أعلى سفح الجبل الذي يُقابل الوادي، فقد كانت الشّمسُ في طريقها إلى الغروب. سيكون من الصعب جدّاً المتابعة إلى الطّريق الوعر في القمّة، ولن يكون الأمرُ سارّاً

(1) مبهوتاً: البهت: الحيرة. (القاموس المحيط، ص 189).

أبداً إذا أُجبرنا على قضاء ليلة من ليالي مارس الباردة في العراء.

عندما انعطفنا في إحدى الزّوايا سمعنا فجأةً صوتاً قادماً عبر الوادي، إنّه صوتُ فأس حطّاب، ثمّ توقّف، ويبدو أنّ صاحبَه قد لمَحَنا وكان يراقب منظراً غير عادي لخمسة أشخاص يقطعون واديه سيراً على الأقدام دون بغل. فحيّاه أوريستِس سائلاً: «كم تبعد سوفيكو؟» جاء صوت عبر الأشجار: «حوالي ساعتين، ولكنّكم في الجانب الخطأ من الوادي ويجب عليكم العودة». كان قعر الوادي يبعد أميالاً خلفنا. قال أوريستِس ثمّ أضاف: «هل يوجد ممرّ على جانبك؟» أجاب صاحبُ الفأس: «*Malista, Malista*.. ماليستا، ماليستا.. نعم، نعم، في الحقيقة يوجد على امتداد الأشجار، هناك».

استطعنا حينئذ أن نراه، وهو عبارة عن آثار ضعيفة في الخضار تقريباً على مستوى العلو الذي نحن فيه. فقالت هيلدا: «جون، لن نستطيعَ العودةَ فالظّلامُ سيحلُّ قريباً، لنجازف ونتزحلق». حملقنا إلى أسفل نحو المنحدر الجانبي من الجبل وإلى عمقه المظلم المتشابك، ولكن أيّ شيء كان أفضل من العودة إلى الوراء». هبطنا خارج الممرّ، وبدأنا بالانزلاق في أسفل السّفح المنحدر بين الصّخور والشّجيرات أحياناً بسرعة غير صحيّة. لحسن الحظّ لم يكن هناك نقاط شفّافة وماء مسفوح في قعر السّفح. وصلنا مستوى الأرض دون أذى، وكنّا مقطوعي الأنفاس، مصابين ببعض الخدوش، مع بعض العلامات الخفيفة على مؤخرات التّنانير[1] والسّراويل، وإثر ذلك بدأ جهادُ الصّعود إلى الجانب الآخر. كان الفأس صامتاً طيلة ذلك الوقت، بَيد أنّنا لما استأنفنا المسيرَ إلى الأعلى على الطّريق الجديد بسلامة سمعنا صوتَ ضربات الفأس وهي تقطع الأخشابَ بخفّة ومرح. فلا بدَّ أنّ عيناً مهتمّةً خفيّةً كانت تحرسنا طوالَ الوقت.

يا له من شعور مبهم سعيد أن تكون محروساً ومسيّراً ممَّن لم ترَه أبداً.

كان هذا الجانب من الوادي مضاءً بشكل أكبر، وقد تقدّمنا بهمّة وثقة متجدّدة وأجسام مرهقة. وبدا أوريستِس متحيّراً فيما إذا كان عمله كدليل هو ما فكّر فيه. بدأت

(1) التنانير: جمع تنورة: إزار يلبس في الجزء السفلي من البدن.

معنويّاتنا تضعف مع اشتداد الظّلام، وكان أوريستِس يسبقنا بالمسير وكأنّه يتوجّب عليه شخصيّاً أن يجدَ القريةَ المفقودةَ لنا. ثمّ بدأت الغيومُ تتراكمُ فوق رؤوسنا، والرّيح الباردة تصفر أمامنا. وعندما كنّا قد مشينا مسافة أطول من السّاعتين التي قال عنّها الحطّاب، وكنّا ندور حول بروز جبلي آخر ظهر لنا، اقترح جون أن نزحفَ صعوداً بهدوء لنرى إن كان بإمكاننا أن نلمح القرية فانعطفنا عند الزّاوية وحملقنا. التففنا حولَ المنعطف، وحدّقْنا في أعماق واد فارغ آخر. ولكنه هذه المرّة يمر عبر طريقنا، وعنده يرتفع جبل ضخم، لم يكن هناك ضوء أو أيُّ مظهر لوجود بشري كدخان حطب.

مال طريقنا نحو اليمين ورأينا أوريستِس وقد تقدمنا في ذلك الاتّجاه مقابل الفتحة السّماويّة حيث كان قد تسلّق مرتفعاً صخرياً عالياً على طول طريقنا ليرى بوضوح أكثر من فوقه، كان يلوّحُ بقبّعته ويشير بعيداً نحو المكان الذي لم نكن نستطيع رؤيته، فتتبعنا طريقَه الوعر حتى إنَّ نعلَ حذائي الأيمن قد انفصل عنه، وكاد الظّلام أن يخيّمَ ونحن نتعثر في طريقنا فوق الصّخور الملساء باتّجاه الكتل الضّخمة القاتمة. كان جون وهيلدا قد تقدّما وأقبلتُ وهيلاري على ثلاثتهم في الأعلى حيث وقفوا، وكان جون يتمتم قائلاً: «جميل جميل»، فقد وجد أوريستِس لنا قريةَ سوفيكو Sophiko التي تقع غيرَ بعيدة عنّا عبر الوادي، حيث تتجمّع بيوت باللّونين الأبيض والبنّي تومض فيها نقاطُ الأنوار المتلألئة. نزلنا مرّة أخرى إلى الوادي الضّيّق وقطعناه، فصادفنا بعضَ القرويين عائدين إلى بيوتهم، نساء معهن حمير محمّلة بأحطاب الأشجار ورعاة وقطعان ماعز، وكلّهم يبحثون عن الطّعام والمأوى والاستراحة.

كان طريقُ الصّعود المتعرّج عريضاً باتّجاه القرية، وكان سهلاً قياساً بالممرّ المليء بالصّخور الذي طرقناه سالفاً، وعند وصولنا إلى الطّريق المرصوف بالأحجار كان جون قد استعلم من مرافقينا عن المكان الذي قد نجد فيه نزلاً نأوي إليه في المساء.

عند وصولنا إلى باب الحانة المضاء كان الظّلامُ قد أصبح حالكاً، وقد سار معنا معظمُ سكّان القرية. نظرْتُ إلى الخلف لبرهة من فوق الجدار الحاجز المنخفض على جانب الطّريق، فوجدتُ ذلك الجدارَ مفيداً جداً في مكان كهذا، إذ لولاه قد يقع كثير

من القرويين في الوادي.

تطاولـت الجبالُ الضخمةُ من جهة الجنوب نحو النّجوم، وعندما دخلت في أجواء النّزل المحصورة الدّافئة، وسمعت صوتَ صرير الباب الخشبيّ القديم وهو يغلق خلفنا أحسسـتُ بالمتعة البدائيّة بالحصول على الدّفء والمأوى، وهي الأشياءُ الأساسيّةُ في الحياة وكأنّي حصلت على كسب ثمين.

عـادت الرّكـبُ والكواحلُ تنبضُ نبـضَ الرّاحة قريباً من الكانـون المتوهّج، وروحُ الدفء في النار ترسل رسائلَ السّعادة للحناجر المتجمّدة من البرد، بينما كان أصحابُ النّـزل الطّيبيـن يحرّكون رؤوسَـهم باهتمام حولَ تفاصيل العشـاء القـادم. والرّجل ذو العباءة والحذاء العالي يسـأل أسـئلةً كثيرةً عن رحلتنا وطبيعة عملنا ووجهتنا، ويسـأل عن عائلاتنا، وكانت النّافذةُ قد أغلقتْها الوجوهُ المهتمّةُ فأطبقت عليها.

اكتشـف جون في الصّباح التّالـي طريقاً حقيقياً يمتدُّ في الجانـب الآخر من القرية، وخلافاً للظّاهر فهو يصل بعيداً باتّجاه الشّمال عبرَ الجبال إلى كورنثة، كما توجد حافلة تقطعـه ذهابـاً وإيّاباً مرّتين في الأسـبوع. فقرّرنا بأنّ مسـيرةَ الأمس كانـت تعادل ثلاثَ مسـيرات طبيعيّة، وشـعرنا بأنّ ركوبَ الباص كان مكسباً وتكريماً في هذه الحالة. كان مـن المفتـرض أن نركـب أنا وهيلاري مركباً يذهـب إلى پيرايـوس Piraeus بعد ثلاثة أيّام؛ ولـم تُجد محاولاتُ التّرميم التي قامت بها هيلاري نفعاً في إصلاح حذائي الأيمن الذي أصبح قطعتين، ولم توصلها الخيوط الكثيرة والعقد لمدة أطول من نصف ساعة. بعد أن أخبرَنا مضيفنا بأنّه ربّما يكون هناك حافلة مغادرة حوالي السّاعة الحادية عشرةَ صباحاً، ذهبنا وجلسـنا وانتظرنا في طابور تحت أشـعّة الشّـمس في السّـاحة الصّغيرة المرصوفة بالحجارة، ولم يحدث شيء خلال ساعة كاملة.. ثمّ أوضح لنا أحد السّكّان القدامـى في القرية بأنّ الرّحلة لا تبدأ من قريتهم ولكنّها تبدأ من كورنثة، ومن الممكن أن يكـونَ أمـر مـا قد حدث في طريـق قدومه. فعدنـا أدراجَنا إلى النّـزل، وطلبنا بعضَ الطّعام، وأثناء تناولنا الطّعام سـمعنا صوتاً في الخارج كصوت فرسـان يقومون بعرض موسـيقي برقائـق حديديّة مموّجـة. فهرْولنا خارجاً لنجـدَ حافلةً متداعيـةً في منتصف

السّاحة، والبخارُ يتدفّق من جميع مفاصلها، ويتدفّق خارجاً من بابها حوالي خمسين شخصاً. عدنا مسرعين إلى النّزل، ودفعنا كلفة الطّعام بهلع، وعدنا فوراً إلى الحافلة، وأنا في آخر المجموعة أجرّ قدمي فقد برز قسم آخر من رباط الحذاء.

مررتُ بهيلاري عائدة بسرعة إلى النّزل. فصرخت بملء فمها: «كنّا نسير باتّجاه طريق ثمّ انقلبنا باتّجاه طريق آخر».. «كنت سأنسى كاميرتي المتهالكة». كانت السّاعة الواحدة ونصف وسائق الحافلة قد اختفى، فعاد القروي القديم نفسُه ليخبرَنا بأن قيادةَ الحافلة صعوداً من كورنثة إلى هنا صعبة جداً لذلك توجّب على السّائق أن يأكلَ ويأخذَ قسطاً من الرّاحة والنّوم الهادئ قبل العودة. فذهبنا وجلسنا في طابور تحت الشّمس في السّاحة الصّغيرة الحجريّة وانتظرنا. وبعد حوالي السّاعة أشيع بيننا بأنّ السّائقَ مازال نائماً وغالباً لن يستطيعَ العودةُ إلى كورنثة في ذلك اليوم بل في صباح اليوم التّالي، باكراً جداً جداً. فعدنا أدراجنا إلى النّزل.

تحوّل الصّباحُ الباكر جداً جداً إلى السّاعة الحادية عشرة والنصف، عندما رافقنا حشد من النّاس يحاولون الصّعودَ إلى الحافلة. انطلقت الحافلةُ تزحفُ مترنّحةً على الطّريق المرصوف بالحجارة باتّجاه الطّريق الذي يدور حول النّتوء الجبلي، ولديَّ اعتقاد بأنّ حمولتَها قد تجاوزت مستوى حمولة السّلامة، واختفت سوفيكو Sophiko عن أنظارنا إلى الأبد. لاحظتُ بعصبيّة كيف أنَّ بعضَ السّيّدات من المسافرين قد اندسَسْنَ أثناء الصّعود إلى الحافلة.

قال جون: «لأنّ السّائقين في هذه البلدة عادة ملهمون. فليس من داع بأن تشعري بالتوتر إلا إذا رأيتني قد بدأتُ بالارتعاش».

لم أشعر بالسّعادة لسماع ذلك. أظنّ أنّنا كنّا نسير بمحاذاة الشّاطئ معظمَ الوقت، وندور حولَ المنعطفات بسرعة عالية مشرفين على أعماق سحيقة تحتنا تثير الدّوار، مارّين فوق بقايا انهيارات صخور تحدث أحياناً حول الممر.

في إحدى المناطق وقع أحد اللوالب الأماميّة فأصبحنا نمشي الهوينى وترنّحنا في

بركة ماء ضحلة، بينما قفز كلُّ الرّجال من الحافلة، وركضوا إلى الأمام لرؤية ما حدث. فبـدوا كأنّهم ضائعون وهم يفزعون الذئاب كما علّمهم بطرس بالنّظر إليها من الأعلى إلى الأسـفل بين ركبهم. كان الهياج في ذروته، واستطاعوا أخيراً أن يكسروا قطعةً مما كان متدليـاً ويقرقـعُ طوالَ الطّريق ثمّ صعدوا عائدين إلـى أماكنهم في الحافلة حاملين تلك القطعةَ معهم، وهم يتناقشون بسعادة.

علّق السّـائقُ غيارَ السّرعة رافعاً يديه الاثنتين عن المقود ليشير بهما بحركة استكانة جميلة يقوم بها اليونانيون. قالت هيلدا وهي تغمضُ عينيها عندما كنّا نستجمع السّرعة لندور حول المنعطف التّالي: «وداعاً لها طالما أنها ليست قطعةً أساسيّةً في الفرامل».

ظهـر البحـر فجأةً مرةً أخـرى. كنّا ننظر إليه من مكان مرتفع جـداً على جانبي برزخ كورنثة وبعيداً باتّجاه الشّـمال الشّرقي اسـتطعنا رؤيةَ خط هيميتّوس Hymettus معلّقاً فوق أثينا؛ وهناك في الشّمال الغربي ما وراء اللّون الفيروزي رأينا أمواج خليج كورنثة المتوّجـة بالبيـاض، وارتفعـت قبالـةَ السّـماء قمـمُ پارناسـوس Parnassos المتلألئة المغطّاة بالثّلوج.

قمنا بعمل دورة كاملة حولَ هذه الزّاوية من أرغوليد Argolid. وبعد ساعات قليلة كنّا نلوّحُ بالوداع لأوريسـتِس Orestes حيث كان واقفاً على حافة رصيف في كورنثة، لأنّنا كنّا قد اسـتقلّينا القطارَ الوحيد في ذلك اليوم عندما كان يسـخن محركه للانطلاق فـي طريقـه الطّويل حولَ السّـاحل عائداً إلى أثينا. بدا أوريسـتِس وحيـداً ودقيقاً وظلّ يبتسم متابعاً التّلويحَ بقبّعته حيث كان واقفاً هناك وهو يتضاءَل شيئاً فشيئاً ونحن نتقدّم في طريقنا باتّجاه القنال؛ ألم يصبح دليلاً؟ لقد وصل إلى سوفيكو Sophiko وهو الآن فـي طريقـه عائداً إلى إخوته وإلـى عمله اليومي في النّزل وإلى كتـاب الجُمَل الصّغير، كلّهم ينتظرونه تحت ظلال ميسينا[1] Mycenae الذّهبيّة.

❊ ❊ ❊

(1) اللفظ اليوناني الأصلي للاسم: ميكيناي Μυκήναι، أو ميكينِه Μυκήνη. لكننا نضطر إلى إدراجه حسب ما اعتادته الأسماع نقلاً عن الصيغة الشائعة في الإنكليزية والفرنسية.

بعد يومين كانت سفينتنا تترنّح وتدور حول ميناء بيرايوس Piraeus لتدخل في فم الميناء صاح جون: «السّنة القادمة إلى كريت». نعم كريت Crete السّنة القادمة. لم يكن كلُّ شيء قد انتهى، فربّما سأعود إلى هذا المكان السّاحر لدفء الشّمس والقمم الثّلجيّة للبحر، للأرض الحمراء والهواء العابق بعطر العسل لأتمايلَ عبرَ وديانها وأتسلق بمشقّة مرتفعاتها مرّةً أخرى، إنّها لفكرة نتواسى بها عندما كنت وهيلاري نسافر باتّجاه الشّمال، وهي فكرة تبعث الدفءَ عندما وطئنا البندقيّة Venice التي كانت مكللةً بالثلوج الكثيفة، إنّها البندقيّة الغريبة التي لُوّنت باللّونين الأبيض والأسود.

كنّا نرتجف متّحدبين في معاطفنا عندما نَقَلَنا زورق سريع صغير من السّفينة إلى المحطّة، وهو يئزّ في الممرّات في المياه السّوداء السّاكنة التي توجد بين الجدران الصّمّاء والمداخل المغلقة والقضبان الموصدة وكنا نمرّ تحت الجسور المقفرة وكلها نُحتت وحُدّدتْ بشكل رائع تحت بهارجها الحديثة ذات اللّون الأبيض الفضيّ. أصبحنا في منأىً كبير عن جمال جفاف شمس مصرَ وتألّق ربيع اليونان، ومضَينا في طريقنا إلى الشّمال.

كانت لندن رطبةً باردةً وكئيبةً، ولكن ليس الطّقسُ وحدَه الذي جمّد معنوياتي في الأيّام الأولى، إذ كنّا نصارعُ الرّياحَ الرّمليّةَ وشلّالات الأمطار القاتمة، ونرى حشوداً مسرعةً بوجوه شاحبة، بينما كانت طلائع الرّوابي لزهور الرّبيع تتوالى على طول شارع Oxford. وهناك كانت أكوام من زهر الميموزا باللّون الزّعفراني وأكوام الباقات الضيقة من شقائق النّعمان وفصائل الزّنبق المبهجة، فلم أستطع النّظرَ إلى شقائق النّعمان دون غصّة ودون أن تهاجمني ذكرى العشب الأخضر تحت بساتين الزّيتون حيث نثر أحد الآلهة الإغريق عدداً لا يُحصى من الجواهر، وتركها تتلألأ في الأعشاب. لا لم يكن الطّقسُ وحده، ففي صحيفة التايمز The Times ورد في فقرة من تقرير بأنه وقعت في اليونان هزّة أرضيّة عنيفة أدّتْ إلى انهيار قرية صغيرة انهياراً كاملاً وهذه القرية تقع في الشّمال الشّرقيّ من البيلوبونيز، وتدعى قرية سوفيكو، وكذلك كانت الأخبار عندما راجعتُ المكتبَ تزيد انخفاضَ درجة الحرارة أكثر، إذ مازال يلوح في الجوّ الحاجةُ

إلـى التّخفيضـات والاقتصاد المريع، وقد يسـتمرُّ إلى عدّة سـنين، وأصبح من المؤكّد تقريبـاً إنهاءُ التّنقيب في تلّ العمارنة، وفي هذه الحالة من المسـتبعد تعيين سـكرتيرين اثنين في مكتب لندن.

كـم كنت غبيَّة أن أعتقدَ بأنَّ هذا النّمطَ السّـاحرَ سيسـتمرّ بـلا نهاية: لندن – مصر – اليونـان، ثـمّ لنـدن – مصر – كريـت، ولندن – مصـر ـ ومن ثَمَّ إلى أيـن؟ لا لقد انتهى الأمر، ومن الأفضل لي أن أبدأَ البحثَ عن عمل سكرتاري عادي.

سـوف أكـون محظوظةً إن لـم يخلص إلى شـيء تقليدي جداً محشـو بين رحلتين يومياً في طريق الأنفاق في سـاعات الذّروة القصوى. جيد، ولمَ لا؟ ولم يتوجّب عليّ أن أتوقّعَ أكثر بكثير من العمل السّكرتاري الاعتيادي؟ لقد أفسدني الحظّ الذّهبي الذي حظَيتُ به فانبهرت بكثرة الشّـمس الذّهبيّة السّـاطعة. كريت فـي العام القادم؟ لا ـ لقد انتهى كلُّ شيء.

* * *

الفصل الثاني

انقضت الأسـابيع الأخيرة في لندن بسـرعة، فتدلّت أوراق شـجر الدّلب في ساحة تاڤيسـتوك Tavistock في حرّ الصيف، والتي تتحرك فقط عندما تقرقع الباصات وهي مـارة بقربهـا فتحرك الهواء، والتي كانت لتوّها بدأت بالتحـول إلى اللَّون القاتم إلى أن تأخذ لونَها البنيَّ الخريفيّ. كنت ما زلت أتابعُ بفتور قراءةَ الإعلانات المسماة «مطلوب سـكرتير» علـى أن يكون لبقاً، مرحاً، لا يشـترط إجادتُه مسـك الدفاتر (الحسـابات)، يستطيع قيادةَ سيارة، أو تمشيطَ كلب، أو قراءةَ اختبارات باللغة الغاليّة الاسكتلندية، أو أخذَ قريب مجنون للنزهة.

لم يكن واضحاً الحاجة إلى سـكرتير يحبُّ الاسـتماع إلى عامل مصريّ يغني وهو ينقّب عن معابدَ قديمة، أو سكرتير يحبَّ الجلوسَ قربَ مجمرة في حانة يونانية.

تابعتُ بفتور بعضَ الإعلانات، وكنت سـعيدةً أيضاً عندما وجدت نفسـي لسبب أو لآخـر على الرصيف بعد المقابلة وأنا أشـعر بالطمأنينة، كنـت أعلم جيداً أيضاً أنه كان من المستحيل تقريباً أن أجدَ عملاً آخر في حقل الآثار من النوع نفسه ـ لبعثة منقبي آثار إنكليز تواجههم دوماً مشكلةُ كيف لهم توسيع تمويل غير كاف لأماكن تنقيب يمكنهم الذهاب إليها ـ انتابتني فكرة أن أندمجَ في البريد العادي، مهما كانت المتعة التي يمكن أن تتحققَ بالنتيجة، وعزلْتُ نفسـي عن السـعادة التي عرفتها، وعندما أسـمع في وقت متأخـر جـداً بأنَّ معجزةً ما قد حصلت، وأنَّ شـخصاً مثلي قد طُلـب للتنقيب، وأني قد فقدت فرصتي.

علمـتُ أخيراً أنَّـهُ يجدرُ بي التخلـي عن سياسـة الهدنة اليائسـة ومواصلة البحث.

انصرفْتُ ذاتَ يوم قبلَ موعد الغذاء بساعة، وذهبت إلى المدينة لأرى مديرَ مستودع التوزيع لشركة مشهورة تُصَنّعُ بضائعَ من جلد الشّاموا، غالباً قفازات ومعاطفَ، بدا المدير بحاجة ماسّة إلى سكرتير يساعد في مكان ما في نهاية شارع وود wood street الذي ينتهي إلى شارع تشيپسايد Cheapside، فقلت لنفسي لأجعلها تبدو أكثرَ رومانسية إنَّه ربما من الممتع العمل في المدينة في جوار St. Paul's.

كان السيد أوماني Ommaney مفاجأة، فقد كنتُ متوقعةً أنَّ مديرَ شركة كبيرة كهذه أن يكون أحمرَ الوجه، وسميناً، وصارماً، لكنه كان نحيلاً جداً، شاحبا، ولطيفاً، أجرى المقابلةَ معي في مكتب صغير خارجَ طابق المستودع الرئيس، والذي كان أشبه بمحلّ تجاريّ ضخم من دون زبائن، امتدت منضدتان طويلتان واسعتان على جانبي باب المدخل، ورُصَّت الرفوفُ خلفَ الطاولات بصناديقَ من الكرتون الأبيض. ملئت المساحة بين الطاولات والرفوف برجال يدفعون سلالم هنا وهناك مندفعين أعلى وأسفل السلالم، ويسحبون الصناديقَ عن الرفوف، مطلقين صيحات غريبة، ثم يرمون الصناديق بعنف على الطاولات. بينما يقوم أشخاص آخرون برفع الصناديق عن الطاولات بصرخات أقوى وينطلقون بها إلى المسافة البعيدة.

لاحظْتُ رقعةً على واحدة أو أكثرَ من الصناديق التي مررتُ بها، تقول إحداها:

"Handsewn Nutria Prickseam Velbex Gauntlets".

ظهر وكأنه كان عليَّ أن ألفّق اختصارات جديدة. كان الضجيج قد خمد قليلاً في المكتب، ولكني لاحظت أنّ مستر أوماني Mr. Ommaney أغلق عينيه عند كلّ صوت ارتطام، وضاعت نهايةُ حديثه. كان صوتُه هادئاً جداً، وتكلم في فترات الهدوء فقط، وأخبرني أنه عوفي لتوّه من انهيار عصبيّ، ولقد أراد بشكل ملحّ المساعدة بالعمل الكتابي الذي كان مستواه كثيفاً وأعلى من قدرة ضارب الآلة الكاتبة في قسم المحاسبة. «أنا متأكد من أنك ستعتادين الضجيج بعد بضعة أيام» شعرتُ بموجة ذعر لدى افتراضه بأنني سآخذ العمل. قال بهدوء: «أريد منك الذهابَ إلى وورسِستر Worcester في الغالب، حيث يوجد المعمل»، وتابع بهدوء: «وهذا يمكن أن يحقق

لـك تغييـراً لطيفاً عن هُنا». (خبطة! «هيا هيـا هيا أيها الولد! أزلْ هـذه القطعةَ المهترئةَ ابتسم وابدأ» صوت ارتطام وصوت خبطة!).

همـس مبرراً: «أعلم أنها سـاعات طويلـة، ولكنني أعتقدُ أنه سـيعجبك المبلغُ، إنَّه جيد جداً». ولقد كان فعلاً كذلك.

«وأنا بحاجة ماسّة جداً لشخص يرفع عني كلَّ العمل المكتوب الذي عليّ إنجازه ـ شـخص يمكنه الكتابةَ بإنكليزية صحيحة» تسـاءلتُ محدقةً بجبينه الجعد القلق، كيف كتبت بإنكليزية صحيحة جملة:

Handsewn Nutria Prickseam Velbex Gauntlets.

قلت: سـأفكر بالموضوع. وقع نظري عندما كنت أتأمل البضائعَ على سـترة جلدية صفراء ناعمة نسائية معروضة على حامل، استطَعْتُ رؤيتَها من خلال الباب الزجاجي. همـس عبر المكتب: «باسـتطاعة موظفينا الحصـول على بضاعتنا بسـعر التكلفة. هل تعتقديـن أنـه بإمكانـك العمـل فـي الأول مـن أغسـطس؟» قلتُ مـرةً أخرى سـأفكر بالموضـوع. انتقلنـا مرةً أخرى من خلال قطع الصناديق المكدّسـة البيضاء نحو الباب الرئيسي، تصافحنا، وغاب عائداً إلى مملكته الغريبة.

فكّـرتُ وأنـا في البـاص أدور حـولَ شـارع St. Paul's العائد إلى محلّـة هولبورن Holborn بأنـه يمكننـي أن أقبلَ العملَ لمدة معينة على أيـة حال. لقد كان عملاً غريباً، ولكنني أحببتُ مستر أوماني، كان هناك شيء أكثر من كونه عملاً، فلربما أستطيع عمل التغييـر له بإعادة هدوء أعصابه، وإعادة التحكم بحياته مجدداً، أو منع لانهيار آخر، قد يكـون النهاية في تلك المرة لمسـؤوليته في العمل. وربمـا كان لديه في مكان ما زوجة متلهفـة قلقـة عليـه. وبالنهاية كان عملاً جيداً بالنسـبة لي يربطني بسلسـلة لا تنتهي من المعاطف القصيرة ذات الألوان الزاهية لبقية الوقت إن أحببت.

نزلْتُ من الباص في كينغزواي Kingsway وانعطَفْتُ إلى جهة الشـمال، ولكن في الوقـت الذي وصلْتُ إلى نسـق سـاوثامتون Southampton Row، علمت بأني كنت

أخدعُ نفسـي داخلياً، فأنا أكرهُ الفكرةَ بشـكل عام، وأكرهُ الصراعَ اليوميَّ في الباصات أو الأنفـاق المزدحمـة فـي طريق الذهـاب والعودة إلـى وود سـتريت Wood Street وفـي جميع حالات الطقس المختلفـة؛ وازدحامات المدينـة، والظلمة والضجيج في المسـتودع، والعمـل الرّوتينـي. عند سـاحة رَسـل Russel Square كنـت أفكر بتلك السـترات القصيـرة وبالعقدة التي فوق عينيـه البنيتين الودودتيـن، ولدى وصولي باب المكتب في الطابق الأول للمنزل في سـاحة تاڤيسـتوك Tavistock Square قررتُ أن أتصلَ به بعد فترة الغذاء لأقول له بأني سأبدأ العملَ في آب.

لـم تكنْ سـكرتيرةُ المجمع قد عادت من غذائها بعد، ولكـن باب المكتب لم يكن مقفـلاً، ممـا قد يعني بأنَّ أحدَ الأعضاء دخل ليقرأَ فـي المكتبة قبلَ أن تغادر هي. كنت سعيدةً لوجود أحد ما هناك ليشغل أفكاري إلى أن يأتي الوقت لأتصل به. وبكل بساطة يمكن أن يكونَ عضواً فتياً في المنظمة، طالب يخطف بعضَ لحظات سعيدة من ساعة غذائـه للبحـث عـن بعض حقائق علم الآثـار المصرية، أو عالم قديم – اشـتهر ربما – يميـل علـى امتداد رفـوف المكتبة للبحـث عن بعـض المجلَّدات المطلوبة. سـمعتُ صوتَ إغلاق كتاب، فدخلت لأرى مَنْ كان هناك.

مـا رأيـت فتىً غـراً، ولا رجلاً كهلاً، ولكنَّني رأيت رجلاً نحيلاً، أسـودَ الشـعر، بحلاقة أنيقة، يرتدي بزّةً بنيةً، وله عينان داكنتان تحت حاجب ضخم، كان واقفاً وبيده كتاب ضخم، يراقبُ البابَ ليرى مَن القادم، حرَّك رأسَه اليقظ قليلاً. قلت: «أوه، مرحباً هانز».

أجـاب: «هذا أنـت.. جيد. كنت أريد رؤيتَك». التفَّ بسـرعة باتجاه أرفف الكتب، معيداً الكتابَ إلى مكانه والتفتَ إليّ.

كان هانز فرانكفورت[1] Hans Frankfort ـ البالغ الخامسة والثلاثين ـ معروفاً جداً

(1) هنري (هانز) فرانكفورت (1897–1954) عالم آثار هولندي ومستشرق وباحث في المصريّات. ولد في أمستردام ودرس في جامعتها، ونال شهادة الدكتوراة من جامعة لايدن عام 1927. شغل بين 1925 و1929 منصب مدير التنقيب في الجمعيّة التنقيب المصريّة بلندن، التي كانت تنقّب في تلّ العمارنة وأبيدوس، وفي عام 1929 دعاه جيمس هنري برستِد ليصبح المدير الميداني

في أوساط علم الآثار القديمة، هولندياً، جاء كطالب من هولندا ليعمل تحت إشراف سير فليندرز پتري Sir Flinders Petrie. كان قد قرأ مصادفةً كتاباً صغيراً لپيتري يتحدث فيه عن أهداف علم الآثار ومجالاته، أيْقَظ للمرة الأولى طموحَه ليصبحَ هو نفسُه عالِمَ آثار. ولكي يحقق خبرتَه الأولى في مجال العمل فقد وجد له پتري مكاناً كمساعد ميداني في موقع التنقيب عن آثار ما قبل التاريخ في مصر. بدأ بحشد المعلومات والأدوات لكتابه المنشور الأول بسرعة، والذي كان دراسة مقارنة للآنية الفخارية للشّرق الأدنى القديم، كان عملاً مرجعياً حتى هذا اليوم. كان مديراً للحقل في تلّ العمارنة في العام الماضي قبل جون پندلبُري John Pendlebury. والآن هو مديرُ المواقع لبعثة التنقيب التابعة للمعهد الشرقي في جامعة شيكاغو:

Iraq Expedition of the Oriental Institute of the University of Chicago.

كان جيمس هنري برستِد James Henrey Breasted مؤسس المعهد الشرقي ومديره مسافراً عبرَ مصرَ في فريق مع جون د. روكفلر الابن[1] John D. Rockefeller Jr منذ عدة سنوات، الذي كان قد زاره في تلّ العمارنة. بعد عودته بفترة بسيطة إلى شيكاغو كتب له طالباً منه أن يتسلّمَ قيادةَ البعثة في ما بين النهرين إن أمكن، والتي شكّلت جزءاً من بعثة أثريّة ضخمة نُفّذت من قبل المعهد الشرقي بدعم من روكفلر.

قال: «سمعتُ أنّك ستغادرين هذا المكان».

أجبت بحزن: «نعم، أعتقد أنه عائد لأسباب مالية، بدا أنهم يعتقدون بأني كنت

لبعثة تنقيب المعهد الشرقي (OI) التابع لجامعة شيكاغو، العاملة في العراق، فكانت حصيلتها اكتشاف حضارة إشنونّا السّومرية وقناة سِنّحريب في جروان. كما نشر بعدها دراسة هامة جداً له عن الأختام الأسطوانيّة عام 1939، وله إجمالاً 15 مؤلفاً و73 مقالة علمية.

(1) الملياردير الأميركي جون داڤيسون روكفلر الابن (1874ـ1960) John Davison Rockfeller Jr. ثري أميركي وصاحب أعمال خيريّة كثيرة. وهو الابن الذكر الوحيد لجون روكفلر، أغنى أغنياء أميركا في عصره، وأحد مؤسسي شركة ستاندرد أويل أوف أميركا Standard Oil of America عام 1880، الذي صار عام 1916 أول من يملك مليار دولار في العالم. يُعرف ابنه المذكور هنا بجون الابن Junior.

مفيدةً هناك في الخارج».

أخرج تعبيراً بلعومياً جميلاً يقوم به عندما يكون متحمساً جداً.

طبعاً لقد كنت مفيدة ـ وكلُّ مواقع التنقيب تتطلب سكرتيرة ـ فلمَ الخجل؟

نوّهت بأني كنت أشعرُ بحياء شديد في تلك اللحظة، ثم قال بهدوء: «آه لقد سمعت من شيكاغو بأنهم ما استطاعوا، ولن يستطيعوا تحملَ طباعتي أو مسكي للدفاتر لفصل آخر».

فكـرتُ بطباعة هانـز الركيكة حين كان عليّ مراراً أن أوضحَها عند إرسـال التقارير العائدة من مصر – وقرّرت بأنه لابدَّ أن شيكاغو لديها شيئاً ما.

تابـع: «حاولتُ أنا وجايـك Jake الفصل الماضي القيامَ بكلّ الحسـابات – لأربعة أشـهر منها ـ في القطار في يوم واحد وأنا مسـافر بين أنطاكية واسطنبول، لكن شيكاغو لم تعجبها النتيجة».

سألتُه بأدب، وأنا أحاول أن أبعدَ نظري خوفاً من حدس يفاجئني، جعل قلبي ينبضُ بطريقـة غريبة: «مَنْ يكون جايك Jake؟». لم يخضع جايك للتذكير بلا جدوى وقال: «إنـه عالم ألمعي في الآثار السـومريّة ـ ولكن لم يكن محاسـباً جيـداً. وكذلك لم أكن أنـا – مـرَّ بنا وقت عصيب وانتهى بما يقارب ألـف دولار في حقل كان علينا أن نوجدَه أسميناه «مواد مجهولة».

ضحكْتُ للمرة الأولى منذ أسابيع. ولكن كنت مرتعشةً قليلاً.

«حسـناً، مـاذا تنوي أن تفعلَ بشـأن ذلك، يـا هانز؟ إنه لأمر سـيء تبديد وقت عالم ليقـومَ بهـذا الجانـب من العمل. أظـن أنني أثبت هذا فـي العَمارنة لأنـه يجب أن ينفذ بشكل صحيح، وهذا يأخذ من الوقت الكثير».

أجـاب: «بالضبـط، وقـد أخبرتهـم، كتبتُ إلى شـيكاغو حـول ذلك منذ أسـابيع – ووافقـوا بحمـاس». (لا يمكن، لا يمكـن، لا يمكن أن يحصل ذلـك). «أريد أن أعلم

فيمـا إذا كنت سـتصبحين سـكرتيرتي، لتفعلي فقـط كما فعلت فـي العَمارنة. عدنا في أكتوبر ـ نفكر في ذلك ليوم أو يومين».

قلت: «لست بحاجة للتفكير بذلك ليوم أو يومين، أنا قادمة».

***

كانـت خطوتـي الأولـى باتجاه منطقة مـا بين النهريـن نصفَ ميل جنوباً من سـاحة تاڤيسـتوك Tavistock Square. كان مكتـب لنـدن للبعثة إلى العـراق عبارة عن غرفة صغيـرة في الطابق العلويّ من مجموعة غير واضحـة، مكاتب متواصلة في الانحراف الذي يخترق الشـارع. الذي يتداخل في نقطة ترابط كينغزواي وهارت سـتريت Hart Street، عُـرف بشـارع صقلية Sicilian Avenue. هنا في لنـدن، بما أن هانز عاش في هامستِد Hampstead وليـس في شـيكاغو، فكان كل العمل يتم بعـد كل فصل داخل الحقل، والذي هو تحضير لنتائجَ مرحلة التنقيب من أجل نشرها في شيكاغو.

رغـم صغَـر حجم المكتب فإنّـه كانَ نيّراً ومُرتَّباً، وعلى شـكل سـفينة. كان الجدار الخارجـي كلُّـه عبارة عن نافذة، والتي تُدخل الحد الأعلى من الضوء إلى طاولة رسـم موجودة أسـفل منها. ولدى تواجدي لأول مرة هناك في بداية سـبتمبر كان هناك شاب طويـل نحيـل، منحنـن على لوح رسـم مائل تحـتَ النافذة. إنّه سِـتون لويـد[1] Seton LIoyd، الـذي كنـت أعرفـه. كان مهندسـاً معمارياً قيـدَ التدريب، أمـا الآن فهو يطبّق معلوماته في البناء، ومهارته في الرسم في مهمة حل ألغاز الأطلال المتشابكة لحضارة قديمة، وبالتالي أصبح بسرعة عالم آثار بجهده الخاص وقد عمل أيضاً في تلّ العمارنة، ولقد خفّف بطريقة ما شـوقي وحنيني إلى الوطن. اسـتدار الآن، قال: «مرحبا». كان ذا

(1) سِتون هاوَرد فريدريك لويد (1902-1996) عالم آثار بريطاني، كان مديراً للمدرسة البريطانيّة للآثار في العراق، ثم شغل منصب مدير المعهد البريطاني للآثار في أنقرة (1948-1961) وأستاذاً لعلم آثار غرب آسيا في جامعة لندن (1962-1969). بدأ حياته العلميّة بالتنقيب في تلّ العمارنة بمصر، وفي عام 1930 دعاه هنري (هانز) فرانكفورت للعمل معه في حفريات ديالى (التي تروي المؤلفة هنا قصتها)، ودامت هذه الحفريات لستة مواسم بين 1930-1936.

قامة نحيلة متناسـقة الطول، ينظرُ إلى الأسـفل نحوي بتعابير وجهه التي تخفي ابتسامةً خجولـةً حنونةً، فانفرجَتْ أسـاريرُه الطبيعيةُ إلى ابتسـامة ودودة. قال: «أتسـاءل كيف يمكـن لك أن تحبّيها بعـد العَمارنة. كان من الجيد التفكير بأنـه كان لديه صورة لذلك المكان اللطيف مرسـومة في ذاكرته، صورة النهر الواسـع المشـرق، وبسـاتين النخيل والمنحدرات الذهبية.

سألتُ: «كيف يمكن مقارنة ذلك بالعَمارنة؟ ليسَ لديَّ أيّة فكرة عنها».

اسـتدار إلى رسـوماته، وبدأ يمعنُ النظرَ إلى الأسـفل، بعينين نصـف مغلقتين فوق عظم وجنة مرتفع، وبإحدى يديه مسطرة على شكل حرف T، وسيجارة في الأخرى.

قال: «لا يمكنك مقارنتُها، آمل أنك لن تكرهيها – حيث لا شجر، لا ماء، ولا زراعة فهي نائية بشكل لا يصدق».

لم تكن تبدو جذابةً ـ ولم تفعل الصور القليلة على الجدران أيَّ شيء لتعارض ذلك الموجز الواضح. التقطت إحدى الصور من الجوّ بشـكل واضح، تبدو كخارطة فلكية للمريخ وقنواته، عبارة عن امتداد لأرض ذات ندوب وعرة بشبكة محفّرة تقاطعت هنا وهناك بخطوط مظلمة حادة.

أشار سِتون إلى مجموعة منخفضة واضحة المعالم قائلاً: «هذا قصرُ الحاكم، وهنا ـ حيـث انتقلـت إصبعه الطويلـة إلى الأعلى نحـو مجموعة أخـرى: «البيوت الخاصة للمدينـة ـ ونـرى هناك الشـارعَ الرئيسـي، وإذا أمعنـت النظرَ بإمكانـك رؤية الخطوط لبيـوت أكثر تمتـد تحت الرمال، والتـي لم يُنقَّبْ عنهـا بعد، حيث يمكنك مشـاهدتها مـن الجوّ فقط، وليس على الأرض مطلقاً». أضاف: «وهذا»، مشـيراً إلى بناء مربع في الحافة السفلى للصورة، والتي بدا في الواقع وكأنه مسقوف، وهذا منزلُ البعثة. طلابُ القوة الجوية هناك صوروا لنا هذا المنظرَ من الجو، أليس عملاً جميلاً؟».

لقد كان شـيئاً ممتعاً بالتأكيد، وإن لم يكن كذلك بالنسـبة لي، فهو ممتع تماماً، وقد قلت ذلك، ولكن لم أضفْ. على أيَّة حال عن أيّة مدينة نتكلم؟ كنتُ متأكدةً أنه يمكن

أن يُصدمَ من سؤالي لذا قررْتُ أن أقرأَ المزيدَ قبل أن أسالَ أسئلةً ساذجة.

«هـذا الرسـم الذي أقوم بـه الآن عبارة عن قسـم من القصر الذي أريتُـك إياه، على الأقـل مـا لدينا منـه الآن».. حدَّقْتُ فيه باحترام. كان الرسـمُ مقسـماً إلـى عدة خطوط أفقية، كلٌّ واحد بعدد رومانيّ فيها، مثل خط پليمسول Plimsoll.

«ماذا بالضبط؟».

«الطبقـات؟ كلُّ طبقـة تمثل فترةً زمنيـةً مختلفةً للبناء، حيث تابـعَ كلُّ حاكم بإعادة البنـاء وفقَ أفـكاره وحاجاته على الأسـس القديمة ذاتهـا، مختلفة جداً عـن العَمارنة، أليس كذلك، بفترة بنائها المفرد؟ إنه تنقيب صعب بشكل لا يُصدَّق».

نـاءٍ جداً، معقد جداً، شـعرت بقشـعريرة لتلك المقدمة لمغامرة مجهولة سـلفاً. ثم جاء هانز فتراجع شعوري بالكآبة لأني غريبة جاهلة.

قـال بسـرور: «لديَّ عمل بسـيط غريـب لك قبل أن تغادري الشـهرَ القـادم، أريدك أن تأخـذي مذكرةَ الملخصات، وتغـادري إلى قفار هامسـتِد Hampstead كلَّ صباح ابتداءً من يوم غد. هناك ستجدين پيير Pierre – والذي لديه بعضُ الأفكار والتي يجب بطريقـة ما أن تُسـتخرج منه وتوضع على الورق، قبل بدايـة الفصل الجديد، لكنه يعلم القليل من الإنكليزية – حيث يمكنك مسـاعدته. اكتشـفي ماذا يريدُ أن يضعَ، ثم ضعيه أنت ـ حسنٌ؟».

قلت مرتابةً: «نعم».

قال هانز: «جيد».

طوال الشهر التالي كنْتُ أجلسُ كلَّ صباح في بيت صغير منحني الواجهة في شارع فيتزجـون Fitzjohn's Avenue مقابل بيت روسـي صغير مقوّس، بينما اسـتخرج من نفسه بنفسه دراسة علمية عن شيء يدعى القرميد المحدَّب المستوي (Planoconvex Brick). فـي الوقـت الـذي وصلـتُ فيه إلـى منطقة ما بيـن النهرين كنتُ أعلـم الكثيرَ عن الآجر المسـتوي المحـدب ـ بغض النظر عن طريقة كتابتنا المختزلة للاسـم ـ ولا

أعلم شيئاً عن أيّ شيء آخر يمكن عمله مع الحفر. كان عملاً شاقاً جداً في الأسبوع الأول تقريباً، وكان پيير يعلم تماماً ما أراد قولَه، ولكنه لم يستطعْ أن يقولَه، وربما كنتُ استَطعْتُ أن أقولَه فيما لو كان عندي أيُّ فكرة حول ما كان يتحدث عنه. كان خجلاً جداً بسبب صعوبة اللغة. وقد أخبرني هانز بأنه شخص عبقريّ في العمل الميداني، ولديه الكثيرُ ليقوله عن أهمية الآجرّة المذكورة آنفاً، والتي صُنعت واستُخدمتْ فقط في مدة واحدة خلالَ تاريخ سومر. ولقد تمّ صنعها بتعبئة إطار خشبي مستطيل صغير، وُضع على قطعة مستوية من الأرض، بقدر ما يمكن أن يستوعبَ من طين ناعم، مُزجَ بقش مقطّع، يُضغطُ جيداً ومن ثَمَّ يُمهَّدُ سطحَه بخشونة باليد، ثم يُرفعُ الإطارُ وتُتْركُ الآجرةُ في الشمس لتُخبَزَ حتى تقسو. كان لدى پيير بالطبع، العديد من الصور عنها، والتي أراني إياها، وعندما تَتبَّعْتُ آثارَ صناع القرميد شعرتُ بخدر بيدي لوجود بقايا تركتْها آثارُ صنّاع القرميد القدماء عندما كانوا يدفعون القرميدَ الطريَّ خارجَ الإطار. وقد أوجدَ علماءُ الآثار مصطلحاً لهذا النوع من الآجرّ بالتحديد، وأُشاروا إلى القسم الأعلى من القرميد الذي يُتركُ مُدَوَّراً قليلاً مثلَ غطاء علبة قصدير محدّب قليلاً، وأشاروا بالتأكيد للسطح السفلي المستوي.

كان الشكلُ الغريبُ مربكاً للبنّائين القدامى في استخدام السطح المستوي في الطريقة العادية، ومن الأشياء الأخرى التي أراد پيير أن يسجلَها هي الأساليبُ المختلفةُ في إنشاء البناء حيث وُجد ذلك الآجر.

«وُضع هذا الآجر بعضه فوق بعض بميل نحوَ اليسار في الأول، ثُمَّ بعدَ ذلك الآجرُ الآخر فوقَها مثل تلك التي في الأسفل، ولكن تلك التي على اليمين وضعتْ بالطريقة الأخرى». قال ذلك وهو يلفظُ الإنكليزية بلكنة أجنبية. أصبحَ الموجزُ الذي كتبتُه بدائياً جداً، وذلك لأنّي تعقَّبْتُ الآجرةَ منذ البداية بطريقة، ثم اتَّبَعْتُ طريقةً أخرى. «إنها تميل نحو الحافة عن بعضها بطرق مختلفة، هذا ما تقولين؟».

قلتُ بجدية: «Erringkbone؟»، فقد كانت تلفتُ النظر.

« إيرينغبون[1] Erringkbone؟ ماهي أرجوك؟».

«أنا أقْصدُ بأنَّ الخطَ على الحافَّة يبْدو كهذا» ورسمَ على كراستي مُخُطَّطاً كأنَّهُ أشعةُ إكـس. وقال: «آه نعم إيرينغبون»، ثم ابتسـمَ پييـر مبتهجاً وعيناه البنيتان تشـعّان خلفَ نظارات مضيئة واستمرينا.

❋ ❋ ❋

بعدَ عدة أسابيعَ كنتُ أهْبطُ بسيارتي من القُدس إلى المطار في الرَّملة قربَ الساحل لمقابلة هانز وزوجته ييتي[2] Yettie وابنهما يون[3] Jon ذي الأعوام الثلاثة وپيير الذين كانوا قد وصلوا لتوّهم عبر البحر، ومن ثمَّ نذهبُ معاً للإقلاع إلى بغداد التي تبعد 600 ميلاً شرقاً. كنت مع راحيل ليڤي Rachel Levy فقد كنّا سافَرنا معاً من قبلُ إلى خارج إنكلترا، وأمْضينا أسـبوعاً في القدس. اهْتمَّتْ راحيل بجميع الأشياء التي وجَدْناها في الموقـع، ولكـنْ، وكما كنتُ أعلمُ مسـبقاً من خبرتي، بأنَّ عمـلَ أيّ فرد من المجموعة يمضي أبعدَ بكثير من مدى العمل التقنيّ الذي كلّف بالقيام به بشكل رئيس.

وفـي حالة راحيل[4] فقد ذهبتْ أعمقَ، كذلك بالنسـبة لهـا فقد كان لديها معلومات هائلة عن الشرق الأدنى القديم، معرفةً تغني جميعَ النقاشات التي دارت بين المختصّينَ أثناء أحداث الحفر، عندما ظَهَرتْ لُقىً جديدة، ربما، أو براهين جديدة في بعض الأبنية لتثبتَ أو تدْحضَ بعض نظريات الصنع.

---

(1) ترد في الإنكليزيّة: Herringbone وتعني النقش الهندسي المؤلف من خطوط أو أشرطة متكسرة متكرّرة أفقياً أو شاقولياً، كما في قماش التّويد مثلاً.

(2) اسمها بالهولندية: Jettie واسمها الكامل: Henriette Antonia Groenewegen ولدت في لايدن عام 1896 وظلت مع هانز ثم انفصلا، وتزوج عام 1952 من امرأة أخرى هي إنريكيتا هاريس Enriqueta Harris لكنه مات بعد عامين. وتوفيت ييتي عام 1982، أما إنريكيتا فتوفيت عام 2006.

(3) طالما أن هانز فرانكفورت هولندي الجنسية، فالمفترض لفظ اسم ابنه يون وليس جون.

(4) غرترود راحيل ليڤي (1884–1966) Gertrude Rachel Levy كاتبة اهتمت بالميثولوجيا المقارنة والأديان الأنثوية والشعر الملحمي.

لم أسافرْ جواً من قبل، واعتقدْتُ بأنَّ الطائرةَ الفضيةَ الضخمةَ بَدتْ متينةً بشكل مطمئن بعدَ أنْ عادتْ سيارتُنا من المهبط الإسفلتي ومشَتْ فوق العشب باتجاهها لكنْ السَّيارةَ لمْ تكن تبْدو أنَّها ستَقفُ، دارتْ كذيل الوحش، وتوقَّفَتْ في الجانب البعيد، حيثُ كانتْ مجموعة من الموظفينَ واقفةً تتحدثُ مع فريقنا، قربَ طائرة بحجرة صغيرة لشخص واحد.

بدتْ مثل سمك الزامور الملتجئ إلى ظل سمك القرش، فوقعَ قلبي، بدا بأنَّ الطائرةَ الأخرى قد حطّتْ لتوّها قادمَةً من الشرق الأقصى، ولولا وجود تلك الطائرة لبدتْ طائرتنا أقل ضَعفاً مما هي عليه الآن بقليل. صَعدْنا إليها حيث كان هناك ثمانية مقاعد فقط، لذا فقد كانت في الأغلب فريقَ تنقيب. جلس يون Jon مقابل ركبتي بيتي وحدّقَ بوقار بي. كان يضعُ بيريه (beret) على مؤخرة رأسه، ويحملُ تمساحاً مطاطياً بلون أخضرَ زاه نُفخ جداً لدرجة الانفجار. أَجْلسَ پيير نفسَه مبتسماً أمامي، وبدا أكثرَ سعادةً عما رأيتُه من قبل. ولعلَّ ذلك بسبب الآجر المحدّب الذي سيراه قريباً مرة أخرى.

هدر المحركُ بضعَ دقائقَ، وبعدَها أقلَعْنا عبرَ الحقل، أسرعَ كثيراً. شاهدْتُ عبرَ نافذتي العجلةَ اليُمنى ترتفعُ عن العشب، وتدورُ في فراغ الهواء بضعَ دقائقَ، حتى غابتْ بشكل هادئ عن الرؤية عن الجناح وابتعَدْنا. بعدَ لحظات قدَّم الطيارُ المساعدُ ملاحظةً لنا – كان صوتُ المحركات عالياً جداً، وكان من الصعب سماعُ الكلام: «ستكون القدسُ عن يميننا في غضون دقيقة، وبحرُ الجليل[1] إلى الشمال». كنا نرتفعُ على علو شاهق الآن حيثُ أصبحنا فوقَ الجبال. نعم، إنها هناك تمتدُّ القدسُ، قبب ومآذن، وأبراج وجدران، وبوابات وأشجارُ سرو، في الأسفل بعيداً جداً، بدتْ القدسُ مظللةً بظلال ذهبية وبنفسجية، يحتضنُ القدسَ تجويف لهضاب منعزلة. وإلى الخلف استطعتُ رؤيةَ بدايات الصخور الحمراء الكئيبة للبراري المؤدية بعيداً نحوَ أريحا Jericho، ومن ثم كنا نعبرُ وادياً أسوداً كّلما اقترَبْنا من جبال مؤاب التي تحدُّ فلسطين. والتوى مجرى مائيّ فضيّ في الوادي إلى الشمال ـ إنَّهُ نهرَ الأردن.

(1) تسمية قديمة يراد بها: بحيرة طبريّة في شمال شرق فلسطين.

كُنّـا نُحَلّـقُ الآن بعيداً عـن الجبال، وبـدأت الأرضُ الصحراويةُ الممتـدةُ بالانفتاح أمامَنـا. كنّا علـى حافة الصحـراء العظمى التي تمتدُّ بين شـرق الأردن والعـراق. تغيَّرَ الضوءُ السـاطعُ الذي أظهرَ كلَّ صخرة وكلَّ قمة شـجرة، في فلسطين، نظرْنا أسفلَ منّا عبرَ السـراب المهتزّ كأنَّنا ننظرُ عبرَ التيارات المائيَّة المتبدّلة ببطء إلى مسـتقرها في قاع محيط متعدد الألوان باللون الأسـود الذهبيّ والرمـاديّ، يمتدُّ بعيداً في كلّ جانب إلى مالا نهاية، بينما كانتْ بين حين وآخر تنجرفُ سمكة بيضاءُ بلطف أسفلَ سفينتنا.

بـدأت أشـياء تحـدثُ، وفجأةً شـعور بالهبـوط، أتْبَعتْهُ هـزة عنيفة، وتلاشـى الأفقُ الغائـم، عندما بدأت مقدمة الطائرة بالارتفـاع مجدداً لتعود إلى الارتفاع. كان التحليق فـوقَ الجبـال مريحـاً جداً – حيـث تخيلت أنه كان من الممكن أن تكون قاسـية في أي مكان ـ ولكننا الآن أصبحنا منطلقين بسـرعة فوقَ الصحراء المنبسـطة، شعرتُ بوجود شيء غير طبيعي. يبدو أنه ظهر عليّ الذعر. إذ رأيت الطيارَ المساعدَ يبتسمُ وهو يكتُبُ مرةً أخرى على ورقة، ثَمَّ مدَّ ذراعَه إلى الخلف حتى أقرأ: «دائماً تتخبط بشدة فوق هذا الجزء ـ هواء سـاخن فوق بازلت ـ لا شـيءَ يدعو للقلق». شـعرت بحال أفضل ـ إلى أن اسـتدرْتُ وسـط انخفاض يدعو للغثيان لأرى كيف كان حال الآخرين، وأصبحت وجهـاً لوجه مع تمسـاح يـون Jon المروّع، الـذي كان ألقاه علـى الأرض، ولكنه كان يطفو الآن وسـط الهواء على مسـتوى النظـر، محدقاً بي بتعبير شـاحب عندما يتمايل. نظرت جانباً بسـرعة، أظهرت سـاعتي بأننا حلّقنا لمدة ثلاثة أرباع السـاعة فقط لطيران يستغرق خمسَ ساعات. هل يمكنُ لتلك الرحلة أن تنتهي؟!

بعـد ذلك قامـت راحيل، التي كانت تجلس خلفي تمامـاً، تُرْبتُ على كتفي، التفتُ ورأيت أنها كانت تشـير إلى الأرض البعيدة. نظرتُ إلى أسفل، وشاهدت بأننا كنا نعبر خطاً أسـودَ يمتد بشكل مستقيم كمسـطرة شمالاً وجنوباً. همست في أذني: «إنَّها سكةُ الحديد من الشـمال إلى مكة، كانت باقية إلى أن اسـتمرَّ لورَنس Lawrence في قطعها ليوقـفَ اسـتخدامَ الأتراك لها». نَسـيتُ خوفي عندمـا حدَّقتُ في الأسـفل إلى الخيط الأسـود الذي امتدَّ فـي الصحراء الصفراء، وفكـرت بالمغامرات الغريبة لجرأة سـرية

ومفاجئة، والتي جرت أحداثُها هناك في الأسفل على يد القائد ورجال قبيلته.

عندما لمحنا للمرَّة الأولى ضواحي بغداد بعيداً أمامنا، كانت الشمسُ تتلاشى خلفَنا. عبرْنا منحنيات نهر الفرات Euphrates الممتدة، حيث بتنا أقربَ من الأرض. لم أكن أعلم أنَّ الجزءَ القديمَ من بغداد كان في الجانب البعيد لنهر دجلة Tigris؛ وكل ما استطعْتُ رؤيتَه في البداية كان حشداً مخيّباً للآمال لأكواخ وخطوط سكة حديدية، ثم بدأ كلُّ شيء يميلُ ويدورُ إلى أمام النافذة، أغلقتُ عينيَّ وعندما فتحتهما كنا على سفينة مستوية، في الأسفل تقريباً، نشق طريقَنا مارّين ببعض الأبنية البيضاء، ثم وطئنا بلطف على طول الأرض المقدسة.

لقد انتهى ـ وها نحن هنا نمشي عبرَ الأعشاب القصيرة، هبَّت ريح عليلة، في مبنى المطار. كان يون مبتهجاً جداً بعد نوم طويل؛ وثنى التمساح بثبات تحتَ ذراع واحدة؛ وأخذ يدي بيده الأخرى. ثم قابلنا جبرائيل Gabriel الذي كان سائق البعثة، ورجل الأعمال الغريبة الذي لا يُستغنى عنه ـ كان يُفضّل أن يُدعى Agent (الوكيل) – ولكن أي شيء كان يُدعى به كان يقلل من قيمته، وكنتُ قد سمعتُ سلفاً عن شخصيته الحيوية. فقد كان رجلاً ممتلئَ الجسم – هو فلسطينيّ عربيّ وجهه مدوّر أسمر، وأنفه مدوّر أسمر، عيناهُ بنيتان مستديرتان جاحظتان، وابتسامته عريضة. كان يرتدي ثياباً غالية الثمن تتألف من قميص حريري بلون بنفسجي زاه، وبنطال قصير لركوب الخيل ـ شديدُ الصفرة، وضيق جداً ـ وينتعلُ حذاءً عالياً لامعاً، وقبعةً سوداءَ واسعةً ناعمةً دُفعت إلى الخلف على قمة رأسه المغطى بشكل رقيق. وفي كل جانب من وركيه العريضين كان يهتز مسدس. كان يملكُ القليلَ من بيّارات البرتقال في يافا Jaffa، والقليلَ من الترحال من أجل تحصيل ديونه؛ ذهب ذاتَ مرة في حياته إلى أميركا، وعاد ومعه بعضُ قصَص المسافرين. ومن أجل ذلك يبدو أنه عاش في نيويورك وقام برحلات يومية إلى ديترويت Detroit للعمل عند مستر فورد Mr. Ford. أخبرنا جبرائيل مرة: «أنّ المستر فورد قال لي، : جبرائيل، إنك حرفيّ ماهر جداً».

حتى الآن فقد كان هو نفسُه مسروراً بلقاء أعضاء من الهيئة مرةً أخرى، ثم قُدّم

لي، ووجدت نفسي أَمَلُّ عندما تصافحنا، إنَّ جبرائيل يمكن أن يوافق إضافتي الأخيرة لبعثته المحبوبة. لقد أصبحَ لديَّ لمحة سريعة عن طبيعته. في الحال قال: «هل هذه هي الآنسة ضاربة الآلة الكاتبة؟ عندما يكون هناك واجب ثقيل في تلك الأشياء ـ هنا أعطيه لجبرائيل، بسرعة» وذهب أمام عمال الجمارك وحول زاوية البناء ليمرَّ بعيداً في عمق حافلة المحطة.

بدأنا نقوم بإجراءات جواز السفر، مع جمع لأشخاص كانوا قد وصلوا لتوّهم من دمشق. تحرك صفُّ المسافرين المتعبين ببطء إلى الطاولة حيث يقف شاب عراقيّ بسيماء كئيبة، يخيّم عليه الحزن، مركب باعتقادي من عدم الثقة والكبرياء اللتين تتصارعان مع كلّ مدخل محيّر في كتاب. نهض جبرائيل مرة أخرى ليبحث عني، حيث كان الآخرون في السيارة، كنت ما أزال مختلطةً في الصف، وأشرت إلى جواز سفري له، حيث استطعت رؤيته بعيداً أسفل الكومة على المنضدة، راوغ جبرائيل خلف المنضدة، ثم التقط جوازات السفر، تصفّحها، ثمّ التقط جوازي، ربتَ على وجنة الموظف الصغير مطمئناً، استلّ الختْمَ المطاطي من يده وختم به على الصفحة الأولى الفارغة، أعاد الختم، ربت على الشاب مرةً أخرى، وأخرجني بسرعة من المكتب إلى السيارة، متبوعاً بصوت احتجاج ضعيف من المعترضين. «هذه هي طريقة العمل هنا، يا آنسة ـ أنا صديق جيد لكلّ أولئك الناس، ولكنهم بطيئون، بطيئون جداً ـ أرسلْ لهم بعضَ الحلوى اللذيذة غداً؛ ولكنْ يَجب علينا الخروج إلى المعسكر ـ مازال أمامنا طريق طويل لنقطعه».

سرنا (بالسيارة) شرقاً لدقيقة أو دقيقتين، على طول طريق واسع، مزروعة حوافهُ بالنخل، إلى أن وصلنا إلى خط من البيوت البيضاء الجميلة، كانت السفارةُ البريطانية بينها، وقد بُنيت بناءً عالياً على الجسر، لتكونَ علامةً مميزةً على الضفة الغربية للنهر. انحدرَ الطريقُ بين البناءين، وهناك في الأسفل امتدَّ نهرُ دجلةَ ضخماً وبلون أسمر مصفر، يجري خلالَ الفجوات بين الزوارق الكبيرة للجسر المعلق الذي امتدَّ عبرَ المدينة القديمة.

عندما نزلنا على المنحدر الصخري إلى مستوى المياه، تقدَّمْنا بحذر إلى الجسر المرتفع المقعقع، فظهرت بغدادُ القديمةُ للمرة الأولى بشكل كامل، في تلك اللحظة

عرفتُ للمرة الثانية الشعورَ بالراحة وبالتحرر، وهذا الذي كان يحدثُ في كل مرة كنتُ أعبرُ فيها نهرَ النيل لأصل إلى العَمارنة. كان هنا تحوّل رمزي آخر يُعبّر عن التحرر من كلّ شيء كنتُ قد عرفتُه سابقاً. تجربةُ التدلي للحظات فوقَ المياه التي تجري بين الماضي والمستقبل، تجربة تجدَّدَتْ لديَّ عندما كانت السيارةُ تمرُّ بصعوبة عبرَ الجسر الطويل المتموّج، وتقبلُ على مجموعة المباني المتداعية للسقوط المعلقة بشكل فوضويّ على الضفة الشَّرقيَّة الطِّينيّة لنهر دجلة.

وقفت الجدرانُ البنيةُ مرتفعةً في المياه المظلمة والتي تصبحُ ذهبيةً عندما تضربها أشعةُ الشَّمس أفقياً بشكل كامل، وتكونُ بلون بنفسجيّ داكن في البيوت التي انحرَفَتْ على جانبي الطريق أو في الممرّات الضيّقة والشوارع التّي شطَرت الواجهَةَ المائيةَ كصدع في جرف منهار.

يقود الجدارُ المنحدرُ من رأس الجسر مباشرةً بشكل مستقيم إلى واحدة من تلك الوهاد، حيث يختفي كلّ من النَّهْر وضياء الشمس في آن واحد. ويتقاطعُ مع المَمرّ الذّي نحنُ فيه على بُعد بضع ياردات إلى أمام الشارع الرئيس لبغداد – وهو شارع جديد، شُقّ على يد الأتراك. ينطلق شمالاً وجنوباً، بموازاة النهر. انعطفنا يميناً، وسرنا باتجاه الجنوب الشرقيّ خارجَ المدينة. كان الظلامُ قد بدأَ يخيّمُ الآن، ولكنّي استَطعْتُ رؤيةَ الطريق الغباريّ الطويل يتعَرَّجُ عنْدَ كلّ مُنْعطف، وتبرزُ مجموعاتُ البيوت والنخيل بين الحقول المحروثة والمنخفضة. كانت شجيراتُ الدفلى ماتزال مزهرةً، ولكنَّها مثقلة بالغبار، تتأرجَحُ عندَ هبوب الرّيح في كلّ جانب. ارتفع الطريق الآن إلى قمة السياج المكشوف؛ أشعل جبرائيل المصابيح الأمامية فبدَّدَ الظلامَ بشكل لطيف عندَ النوافذ. عبَرْنا جسْراً طويلاً مرتفعاً، أُنشئَ عبرَ نهر ديالى، الذي يصبّ في مكان قريب في نهر دجلة. سمّي الجسر باسم لانكشاير بريدج Lancashire Bridge، إحياءً لذكرى عدّة رجال من الفوج الذين غرقوا في تلك البقعة أثناء تقدمهم إلى بغداد في العام 1917.

قامتُ على الضّفة البعيدة أكواخ قليلةٌ، لقرية عَرب خان Arab khan وبيت حراسة صغير. كان رجل الشرطة قد تظلل بالمدخل من وهج ضوء النار، فتحرك إلى الأمام

رافعـاً يـدَهُ لإيقافنـا، وكأنه نوع مـن التفتيش. أبطـأ جبرائيل حتى بـات يزحف، انحنى خارجَ السيارة قدر استطاعته، وصاحَ بصوت مرتفع جداً: «إنها جامعة شيكاغو». ابتسم الحارس الذي ربما لم يكن يعلم الكثيرَ عن جامعة شيكاغو، لكنه وبشكل واضح يعلمُ الكثيرَ عن جبرائيل، ابتسـم وسـمح لنا بالاستمرار. وقعت الأضواءُ الأماميةُ على لافتة معدنيَّـة صغيرة تشـيرُ إلى الطريق: إلى: «كُوت العَمارة» – والتـي جعلتْنا نعودُ بذاكرتنا لوجوه مذهولة لبالغين يقرأونَ أخبارَ حرب سيئة[1]، منذ عهد بعيد».

سـرْنا خلفَ تلك النقطة في فراغ تام، لم تُظهر أضواءُ السـيارة في المقدمة التي كنا نعلوها ونخفض عنها في المنحدر، إلا امتدادَ مسـافة متفاوتة لطريق رملي غير مسـتو. أصبح عندي شعور بأنَّ البَقيَّةَ يتوقعون تغيراً ما في الروتين، ثَمَّ أَبطأت السَّيّارةُ، ومالت الاضواءُ يسـاراً وانعطفت السـيارةُ فجأةً يميناً خارجَ الطريق إلى طريق الصَّحْراء الذّي يمكنُ أنْ يَقودَنا إلى منزل البَعْثة، على بعد خمسين ميلاً إلى الشمال الشرقي. لمْ أسْتَطعْ مشـاهدةَ أيّ أحد في السيارة، ولكنّي استَطعْتُ الشُّـعورَ بكراهتهم للصَّحراء يَشُدُّ على قلبي المرهف، وقال هانز: «أشعر أنَّ الشعرَ في رقبتي يقف».

قلت: «هذا جميل، وأنا متأكدة بأني أستطيع أن أشمَّ رائحةَ البَحْر».

قالـتْ ييتـي مـن المُؤَكَّد أنَّها كانـتْ تمْطرُ، كما بـدا دائماً هنا، من رائحـة الملح في الهواء عندما تكون الرمالُ مبتلةً.

أخبرنـا جبرائيل أنَّ المطر هطَلَ بغـزارة في اللَّيلة الماضيَّة. تدليتُ من خارج النافذة لأتنشّـق ما استطعتُ من تلكَ النَّكهة الأولى للصَّحراء الكُبرى التي تمتَدَّ بينَ نهر دجلةَ وجبال فارس.

امتـدَّ الطريـقُ بين كثبـان رملية وروابٍ باهتـة بحيثُ لا يمكن رؤيتها تحت السـماء

(1) تقصد المؤلفة أحداث المعارك الدّامية بين الإنكليز والأتراك إبّان أحداث الثورة العربيّة الكبرى 1916ـ1918، ومن ذلك ما جرى من معارك بالقرب من البصرة وكوت العَمارة، وأشهرها معركة كوت الزّين في 7 نوفمبر عام 1914 التي أعقبها احتلال الإنكليز للبصرة في 22 نوفمبر. انظر كتاب: رحلات المغامر العربي وليَمسون، الفصل 29.

المظلمـة، مثـلَ حـوت نائم مغمور نصفـه في محيط أصفـر ـ لم أسـتطع التخلصَ من صـورة سـراب الماء فـي كلِّ مكان حولَنـا ـ ثُمَّ اتَّجهنـا للأعلى عبرَ فجوة في سـدّ رَيّ قديم، ثُمَّ للأسـفل إلى قعْر القناة الجافّ، ثُمَّ عدْنا إلى الأعلى فوق الضفَّة الأبْعد. قطعَ جبرائيل هذه الطرقُ المتعرجةُ الخطرةُ بزحف شديد، وهو حذر جداً، ولكنْ بعدَ لحظة بَدأْنا نُسـرعُ عبرَ امتداد واسـع منْبَسط باتجاه عقدة من كثبان رملية تبْدو في البداية باهتةً من خلال الأضواء المرتعشَـة وعندما اقتربْنا منها أصبحتْ حادةً ذهبيَّةً براقةً بالتفاصيل الكثيفـة للمنظـر تحـتَ تركيز الضـوء عليهـا، عندما مَرَرْنـا بين زوج مـن قواميع رملية وانخفَضْنا عبرَ كثبان بالية، لنصبحُ في ظلام دامس مرةً أخرى.

هنـاك بَـدا أنَّه لمْ تظْهـرْ لنا وجهة فـي تجوالنا، لأنَّنا كنّـا نترنَّحُ بيـن منعطفات كبيرة نحوَ اليمين واليسـار. لحقَتْ السَّـيارةُ علامـات العجلات المتشـابكة لعدد لا يُحصى لرحـلات سـابقة والتـي ذهبتْ وعـادَتْ كنقاط سـكة حديد، فـي نصف دائـرة الضوء أمامَنـا. كانَ مـن المطمئـن أن نرى في كلّ عَشَـرَة أقدام أو أكثرَ، هرمـاً أجرد من الرّمال بعلـوّ قدَميـن، يبْدو أنَّه كوّم على طـوال الطريق لوضع علامات علـى الطريق. أخبرني جبرائيـل بأنَّـه يجَددُ هذه القواميـع كلَّ صيْف، بعدَ أنْ تكون قد سُـوّيت بالأرض بفعل الأمطـار والرياح كلَّ بضعة أشـهُر، قامَ بذلك عن طريق إنـزال مجموعة من العُمّال من الشاحنة كلَّ بضعة أميال للعمل على طول الطَّريق إلى أنْ يصلُوا إلى المجموعة التالية، ثُـمَّ يحمّـل المجموعةَ الأخيـرةَ في الخـط، ويأخذَها إلى أمام الأخريـات إلى الامتداد الآخَر للطَّريق التَّي تحتاجُ لإعادة بناء قواميع الرَّمْل.

«ولكن لماذا هي قريبة جداً من بعضها؟ لا بدَّ أنَّها تأخذ وقتاً طويلاً في العمل؟».

«ليست قريبةً جداً عندما تقع عاصفة رملية».

«إذاً، هل العواصفُ الرمليَّة سيئة جداً هنا؟».

رفع مخلباً ثقيلاً من الدولاب، وكأنه كان يُبعد رُعباً خيالياً عنه.

«يجدر بك فقط أن تنتظري وترَي، يا آنسة ـ عندما تأتي تكون سيئةً جداً، فلا يمكنك

رؤية أيّ من ذلك الرُّكام، عندما تكونين عند التالية».

من الصعوبة تخيُّلُ ذلك تحتَ سماء هادئة مليئة بالنجوم.

ومـض ضوء ثابت بعيداً أمامنا وقريباً من الأفق، وكانت شـدَّةَ لون اصفراره وشـدَّةَ استقامَته ينفيـان احتمالَ أن يكون نجماً. قالت ييتي: «هنـاك المنزل، إذ أنَّهُ يوجد دائماً ضوء على البرج بعد حلول الظلام عندما تكون سيارة خارجه». سألتُ متعجبة، حيث لم يبدُ أنه مرَّ وقت طويل عندما غادرنا الطريق: «ولكن هل اقتربنا من هناك؟ ظننت أنَّ المخيمَ يبعد خمسين ميلاً عن بغداد».

قال هانز: «لا تقلقي، ذاك الضَّوءُ مازال يبعد تقريباً حوالي عشرين ميلاً ـ ولن تشعري تماماً أنَّك في ضاحية بغداد في الوقت الذي نصل به إلى هناك».

وهكذا كان، تابعنا بانحدارنا وانحرافنا وتسـلقنا ـ نفقدُ الضَّوءَ على ظهر المنزل في كلّ مـرة ننعطـفُ للأسـفل؛ ولكنه يظهر هناك مـرة أخرى عندما نعتلـي المرتفعَ، وظل بعيـداً وصغيـراً ـ كم هو مثير للدهشـة ذاك الشـعورُ في السـفر السـريع فإنَّك تصل إلى اللامـكان مما جعل تلك المرحلة الأخيـرة من الرحلة تبدو طويلةً جداً. (قالت الملكة الحمراء Red Queen: «بالطبع إننا لا نتحرك. يجدرُ بك السفر بسرعة أكبر من هذه إذا كنت تريدين الوصولَ إلى مكان ما في تلك البلاد»).

كان هانـز على حق، فـي الوقت الذي لفّت السـيارة آخر كثيـب وأظهرت الأضواءُ الأماميَّـةُ الحـَد الباهت لبيت منخفض بعيد، شـعرتُ بأننا بالفعل كنـا بعيدين جداً عن بغـداد، وفي تلك الحالة عن أيّ مكان آخر، ذاك البيـت بجدرانه القاتمة يخترقها ضوء بهيج تدفق خارجاً عبرَ بوابة واضحة في المدخل.

كان الخـدمُ والحـرّاسُ وبعـضُ أعضـاء الهيئة الذيـن وصلوا قبلنا محتشـدين على الدرجات للترحيب؛ لأنَّ أضواءَ سيارتنا الأمامية كانت قد شوهدت من البرج منذ وقت بعيد ولأن جبرائيل افتقد البوقَ الذي وحده يمكن أن يُعبّرَ عن مشاعره الملائكيَّة، فأعلن سـلامةَ وصول رئيس البعثة وزوجه بإطلاق بوق السـيّارة بشكل متتابع ومصمّ للآذان،

وقفز على درجات البيت مسروراً. فاتتني رؤيةُ الطقوس التي تُمارَس دائماً عند عودة الرئيس في الفوضى السعيدة لظلال المصابيح التي تلعب على الوجوه، فلم أرَ السكّين التي كانت تذبح الخروفَ على شرف هانز عندما كان يتقدم بأول خطوة باتجاه المنزل. داخل المنزل كانت هناك نار تلتهم جذعاً وتتّقدُ في غرفة المعيشة الكبيرة، جذب لي اجتماعُ الوجوه الجديدة مع الرائحة الخفيفة لأثاث خشبيّ دُهنَ بشمع العَسَل حديثاً، جذبَ إحساساً واضحاً لبدء مرحلة كآبة؛ مثل كآبة العودة إلى المدرسة. فكنت سعيدةً عندما كان استطعتُ التسللَ بعيداً لأنظمَ مشاعري مع تنظيمي لحقائبي.

بعد ذلك في المساء وجدت بضع درجات تقود إلى سطح واسع مستو، وعبرَ الجدار المنخفض على السطح نظَرْتُ إلى الأسفل إلى ساحة مربعة كبيرة؛ امتدَّ حولَها ممرٌّ مغطىً، وفي ظلاله كانت توجدُ الأبوابُ المغلقةُ والنوافذُ المضاءةُ للغرف الخاصَّة. ابتعَدْتُ عنْ ما يذكّرَني بتلكَ الشَخصيات المغلقَة المجهولة الموجودة هناكَ في الأسفل لأنَّ التَّعبَ والوحشةَ جعلاني أشعر بالكآبة. ذهبتُ إلى الشُّرفة الخارجيَّة ونظَرْتُ للمَرَّة الأولى إلى الصَّحراء، وبالتَّدْريج أعادتْ لي سَعادتي رؤيةَ مساحتها الشاسعة وهدوئها.

هبَّ هواء عليل من الجنوب مازال يحمل رائحةَ البحر المالح، وسطعَ قمر بهدوء، تضاءل قليلًا، حلقته أقواس قوس قزح تتلألأ عبر لوحةَ موزاييك عاليـة من اللآلئ. وحيثما نظرت يمتد النظر بعيداً باتجاه الأفق، إلا في الشمال حيث ارتفعت هضبة منخفضة باتجاه النجوم. إنها المدينةُ المدفونةُ التي جلبتنا إلى هذا المكان.

امتدَّت الصَّحراءُ الهادئةُ مظلمةً ورطبةً، وأضاءت خطوط الكثبان الرّملية التي تتباعدُ وتتقاربُ هنا وهناك متلألئة بأشعة فضيّة في الفجوات التي مازالت فيها مياهُ الأمطار. وبدت تلك الهضبةُ المنخفضة كأنها قطعة منها، فهي فارغة وباردة ومجهولة. ولكنّي كنت أعلم أنَّ في داخلها أطلالاً لأعمال رجال كانوا فيما مضى فخورين وطموحين بمعابدهم وقصورهم وبيوتهم وشوارعهم وساحاتهم؛ وكذلك يوجدُ حطام نتاج عقولهم الباهرة وأيديهم الماهرة.

سـمعْتُ همهمة لأصوات، وعندما نَظرْتُ إلى الأسفل رأيتُ شكلين منحنيين على جانبَي نار صغيرة بُنيتْ بفراغ عند الجدار الخارجي للبرج، كانا حارسين تلفَّحا بعباءات داكنة وعصبا رأسـيهما بكوفيتين بيضاويتيـن. كان أحدهما ينفخ في النار، وكلما ارتفع اللهـب وانخفض كان الوجهان السـمراوان يضيئان ويعتمان بشـكل متناغم. وأومضَ ضـوءُ القمَـر على ماسـورتي بندقيتيهما، كان أحدُهما مشـغولاً بمصـب القهوة، الذي وضعه في دائرة من الرّماد قربَ الفحم المتوقد. كان الفحمُ يتوهج محمراً وهو حيّ ثم يخمد فيموت. مثَلُهُ كمثل الرّجال عندما نهضوا من التُّراب فأصبحت الأرضُ خضراءً ومزهرةً بمهاراتهم، لمدَّة منَ الزَّمن ثُمَّ اختفُوا. وانْمحَى عمل أيديهم عندما مسحَ عاملُ الخزف بإبهامه المتسَرّع قطعةً من الصَّلصال صَرَفَ في صُنْعها مجهوداً كبيراً. وتذهبُ الأرض الميتةُ إلى هناك أيضاً، تدورُ بين عصر الجليد نحو نهايتها بالوقع نفسـه في كلّ مكان؛ حرارةً وبرودةً، ارتفاعاً وهبوطاً، طاقةً وخواءً.

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

كيـف جـرت الأحداثُ في كلّ مـنَ الزمنين القديم والحديث لتختتـم بوصولنا إلى هـذه البقعة المقفرة الصَّغيرة جداً المعيَّنة على الخارطة، الواقعة في مكان ما بين بغداد وجبـال فارس، والمُحاطـة بأميال مُتعددَة من صحراءَ مجهولة؟ ما هي المدينة التَّي كنّا نُنَقّـبُ فيهـا؟ وكيف أمكـنَ لدارة بعثة التنقيـب أن تكونَ هناك؛ وكيف اسـتطاعت هيئة ضخمة وعمّالُها المحليون أنفسـهم العيشَ شـهراً بعد شـهر في أرض مقفرة لا وجودَ لدلائـل الحيـاة فيها فيمـا عدا بعض الهطـولات المتفرقة، إلا ضفـاف ومجاري لأقنية مغبَرة جفت كالعظم منذ أزمنة العصُور الوسْطى؟

من أجل إجابة شـاملة على هذه الأسـئلة عليك مغادرتنا للحظة في مستهل موسمنا الجديد، وتأخذ رحلة طويلة في الزمن والمسـافة ـ 6000 سنة في الزمن؛ وفي المسافة حوالـي 200 ميـلاً في الجنوب الشـرقي. الزمـن حوالـي 4000 ق. م؛ والمكان أعالي الخليج العربي، تشير الخارطة (انظرها في هذا الكتاب) كيف أنَّ كلاً من النهرين، دجلة والفُرات، يتقاربان مع بعضهما في الداخل في الشـمال قرب بغداد لعشـرين ميلاً ومن ثـم يفترقان، ثم يعـودان للجريان مع بعض مرةً أخرى جنوبـاً، قبل أن يصبّا في الخليج العربـي. ليـس بعيداً نحو الشـرق، تظهر هضاب فـارس، وإلى الغرب تمتـدُّ الصَّحراءُ القاحلةُ بشـكل متواصل باتجاه جزيرة العـرب. امتدَّتْ مياهُ الخليج في الماضي البَعيد إلـى الدّاخل لمسـافة أبعد مما هي عليه اليوم، ولكـن تدريجياً اندفع الطميُ من الجبال على طول النهرين الكبيرين، وشـكّل سـداً هائلاً عبرَ المياه الراكدة، في مكان ما حيث تقـع البَصـرة اليوم؛ ومن ثمَّ بـدأ ليتراكمَ خلفَ تلكَ الحواجز، مشـكلاً دلتا ضخمة من

أرض سبخية[1] بخصوبة غير اعتياديّة. وبالتأكيد فإن أراضي بدو الصحراء امتدت في الغرب والشمال، والجبليون في الشَّرق وهم يتصارعونَ بأساليبهم المختلفة من أجل حياتهم غير المُسْتقرَّة بدأوا باختراق المستنقع المحتشد وهو يَجُفُّ بالتدريج، ليبنوا في البداية فيه أكواخاً من القَصَب، ثمَّ منازل من الطابوق الطيني، حيث كانت الأصواتُ المباركةُ لجريان المياه لا تهدأ، وحيث نمتْ الحبوبُ طويلة ووافرة. كانت تلك البداياتُ الأولى للحضارة السّومريّة.

قبل الأزمنة التاريخية، تقريباً ـ قبل حوالي 3000 سنة ما قبل الميلاد ـ عندما عرفنا بظهور ثلاث ثقافات متميزة في سومر واحدةً تلوَ الأخرى، من خلال القوائم المرسومة في أزمنة متأخرة، وأسماء الملوك الذين بدأوا الحكمَ في تلك الأيام. تميزت تلك الشعوب ما قبل التاريخية بأعمال يدوية مختلفة من صنعهم عثرَ عليها علماءُ الآثار، لُقِّبَتْ بأسماء أماكن لمنطقة ما بين النهرين Mesopotamia حيث اكتشف للمرة الأولى دليلُ وجودهم. كان الأقدمُ منهم شعب العصر الحجري المتأخر، وبسبب آنيتهم الفخارية المتميِّزَة الجميلة وأدواتهم الحَجَرِيَّة، ومناجلهم الطِّينيَّة التّي ظَهرَتْ لأول مرَّة من بلدة صغيرة تُدعى العُبَيد قرب أور Ur بالقرب من الساحل القديم، فحيثما وُجِدَتْ آثارُهم ـ التّي وُجدت بعيداً جداً من هنا في شمالي العراق وحتى في سوريا ـ يشار إليها بأنها تعود إلى فترة العُبَيد. وعلى الأكثر جاؤوا في الأساس من هضاب فارس الجنوبية الغربية، وربما استقرّوا في مستنقع دلتا ما بين النهرين قبل 4000 سنة.

ينتمي المستوطنون التالون إلى ما عُرف بفترة أوروك Uruk، وبالمثل تسمّى آثارّ تلك الشعوب، الذين عملوا في المعدن وبنوا أبنيةً من الآجر المعقد، وعرفوا عجلةَ الخزّاف، التي وُجدت للمرَّة الأولى في أوروك، والتي تُدعى في أسفار العهد القديم أرك Erech (لوركاء). وقد اكتشفت بقايا آخر المستوطنين لفترة ما قبل التاريخ في سومر في رابية صغيرة قرب بابل Babylon تدعى جِمدِت نَصر Jemdet Nasr، وبناء عليه فإنَّ فترةَ وجودهم سُميت بهذا الاسم. ووصل معهم ابتكار مهم جداً، ألا وهو

(1) السبخة: أرض ذات نزّ وملح، جمعها سباخ. (القاموس المحيط، ص 323).

البدايات الأولى لشكل من أشكال الكتابة على الألواح الطينيَّة.

بقي المستوطنون الأوائل في البداية قريباً من مياه جداول المستنقعات الصالحة للشُّرب، وعلى طول مجاري الأنهار؛ ولكنْ مع تضاعف أعدادهم، نمَتْ مهاراتهم. فقد تعلموا أن يمدّدوا شبكة قنوات الري ويحافظوا عليها، وبتحويل مياه النهر الغزيرة إلى أيّ مكان احتاجُوا إليه، لاستصلاح الأرض الصَّحراوية وجعلها مثْمرة. واستطاعوا الآن العيشَ على مسافة من الأنهار؛ وبسبب أعمالهم المُهمَّة تلك احتاجوا جهوداً موحّدة للحفاظ عليها وتنظيم استخدامها. وبدأت العائلاتُ والعشائُر المتفرقة بالتجمع معاً حتى أصبحوا مستوطنات قرويةً كل واحدة وسطَ الحقول المثمرة والمراعي.

ومع نمُو القرى وتوسع أملاكهم من الأراضي، أدَّى هذا النجاحُ المنظّمُ لحدوث مشاكلَ جديدة؛ وأصبحت الأقاليمُ المجاورةُ أقربَ وأخيراً أمست متحاذية؛ وكانت هناك حوادث حدودية متواصلة. اندلعَ النزاعُ في حروب كاملة على خلافات لحقوق الأرض وحقوق المياه، وبدأت مستوطناتُ القرى تُطوّق بالحصون، وبذلك أصبحت مدناً مسوّرة. وفي الأوقات المحفوفة بالمخاطر كان جيداً بالنسبة للراعي والمزارع وعامل التُّرْعة أن يقوموا بحماية بيوتهم وينامُوا خلفَ جدران محصّنة عندَ حلول الظَّلام.

أصبحت الأرضُ سهلاً خصيباً فسيحاً ـ هي أرضُ شنعار Shinar ـ منقطة مملوءة بمدن مسوّرة، كلُّ واحدة منها تتحكمُ بحقولها الخَصبَة وطرُقها المائيَّة، غيورة على حقوقها، تحرس أملاكَها من أن تُنتهك؛ وبالضرورة طوّرت أساليبها الحربيَّة من أجل البقاء. كان لدى كلّ مدينة حاكمُها الأميري، وإلهها المحلي، وطريقتها في العبادة. وقد ينشأ في بعض الأحيان ملك له حاشيتُه وسلالتُه ذاتُ قوة وعدوان فتسيطر دولتُهم الخاصة على الدول الأخرى فيصبح ملوكُها تابعين للحاكم المطلق فيها.

يسجّل هذا الطور، الذي استمر من حوالي 3000 ق. م لمدة 600 عام تقريباً، بزوغ سومر التاريخية، ويعرف بعصر السّلالة الحاكمة الباكرة، كقوة لعائلات ملكية نمت وانحسرت، قوة تتناوب بين مدينة وأخرى. وقد احتفظت أور Ur بتلك المكانة المسيطرة.

كانت كتاباتُ اللغة السومرية على الألواح الطينية (الرُّقُم) قد تطورتْ بشكل كامل في ذلك الوقت مع نمو الحاجة لكتابة سجلات دقيقة تتنامى مع التوسع المعقد للحكومة والعمـل والتجارة الخارجية. فتجارةُ مواد النسـيج والمعادن والحبوب أصبحت الآن نشـطةً، وتوسعتْ تدريجياً بعيداً نحو الغرب حتى مصر وبعيداً نحو الشرق حتى وادي السِّـند Indus Valley. وبالمصادفة اعتمد نظامُهم العددي على وحدة مكوَّنة من 60، وهو التنظيم الذي استمرَّ حتى هذا اليوم في تقسيمنا للساعة إلى ستين ثانية في الدقيقة، وسـتين دقيقة في السـاعة. ومـن الغريب على سـبيل المثـال، التفكير بأن السّـومريّين القدمـاء هـم الذين قرروا الطريقـةَ التي يتم فيها حسـاب الميل في ميل روجر بانيسـتر Roger Bannister.

كان ذلـك العصر عصر قوة وازدهار هائلين، لكنّه أُفسـد بالثورة المتواصلة للصراع الداخلـي بيـن مجموعـات جيـوش صغيـرة لسـومر كان بينهـم كَـرّ وفَرّ ضـدَّ بعضهم بعرباتهم الحربية التي تجرها الحميرُ الوحشـية، وسلسـلةُ كتائـب بخوذ جلدية وتنانير مـن جلد الغنم، حمل بعضُهم فـأسَ الحرب، وبعضُهم قضيباً شـائكاً، وحمل بعضُهم رماحاً، كانوا يتجمعون شـمالاً عندما انفجرت الحرب ووضعت نهاية لـ 200 سـنة من تلك الصراعات المنافسـة. لقد كان اجتياحاً سـاحقاً من شـعب سامي، كانوا بُداةً حتى ذلك الحين، عرفوا بالأكّاديين[1] Akkadians، وكانوا قد بدأوا بالاسـتقرار على طول الفرات. وفجأةً، وحوالي 2400 ق. م ظهر زعيم قبيلة من بينهم، وهو سَرغون الأكّادي الأكبر؛ وتحت قيادته الشـعبية التحم الأكاديـون ليصبحوا جحافلَ فعّالةً تزحف باتجاه المدن السّومريّة.

كان نزاعاً غريباً، فقد كان على سومر أن تستسلمَ وتصبحَ جزءاً من أمة كبيرة حكمها سَرغون وسلالته المباشرة، وهو شعب امتدَّ من بلاد فارس إلى البحر الأبيض المتوسط،

(1) المعتاد لدى مثقفينا في العراق الشقيق كتابة الاسم: أكّد، على اعتبار أنّ اللغات القديمة في المشرق تسقط أكثر حروف العلّة، لكن القراءة بالعربيّة اليوم لا تستطيع مجاراة هذه الطريقة، ودفعاً للالتباس لا بدّ من استعمال حروف العلّة حيثما لزم، كقولنا هنا: أكّاد.

وشـمالاً حتى آسـيا الصغرى Asia Minor. ولكن في زمن الأكّاديين الرحّالين الذين اسـتقروا وقتئذ في مدن سـومرية، وامتزجوا مع خصومهم السـالفين، متناسـين الطرق العنيفـة للحرب، حيث كانوا متلهفيـن لأن يتعلموا من المغلوبين فنونَهم المتطورة. لم يكـن الأكّاديون يسـتطيعون الكتابـةَ حتى هذا الفتح، فقد تعلموا ذلك من السّـومريين، الذين كتبوا لغتَهم برموز مسـماريَّة. سكنت السلالتان جنباً إلى جنب. وتدريجياً أثبتت قوةُ السّـاميين المتزايدة نفسـها بعد أن أضعفت قوةَ السّـومريين القدمـاء بالتدريج. ثم أخيـراً ظهـرت مدينـةُ أور القديمة مرة أخـرى لتتولى قيـادةَ أمة خليطة واسـعة، والتي عُرفت الآن بسـومر وأكّاد. وحتـى ما يقارب القرن الأخير من الألفيـة الثالثة تقريباً من 2100 حتـى 2000 ق. م ـ فيها حكم ملوكُ السـلالة الحاكمـة الثالثة العظيمة لأور بقوة وسـيادة وسـيطرة هائلة علـى كلّ الأراضي. ومرةً أخـرى، تطلّع ملـوك الدولة المدنية المُقطعون، تطلّعوا جنوباً إلى الحكم المطلق في أور.

* * *

ظهـرت إلـى النور تدريجياً في العصور الحديثة أكوام هائلة من الوثائق على شـكل ألـواح طينيَّـة (رُقُـم)، خلال تنقيب علمـيّ لمواقع المـدن القديمة، وبدأ تاريخُ سـومر يتكشّـف للعلمـاء الذين اكتشـفوا كيفيـةَ قراءتها، كان مـن الممكن تحديـدُ الكثير من الأماكـن التي أشـاروا إليها مع الآثـار المرئية في ما بين النهريـن Mesopotamia؛ من بيـن كثير غيرها، على سـبيل المثـال، مواقع مثل آشـور ونمرود، وبابـل وكيش، وأور وأرك. ولكـن لابُدَّ أن تكون قد وُضعت مراجع في تلك الوثائق لبعض الدول المدنية، والتـي كان بعضها مهماً بشـكل واضـح، وضعت أعلى وأسـفل الأرض، والتي يمكن للمترجمين أن يعرفوا الكثيرَ عنها، ما عدا حقيقة مهمة حاسمة ـ وهي أين كانت توجد تلك المدن موجودة.

كانَ الموقـع الفعلـي لتلك المدن والتي سَـمَت فيما مضى بكلّ فخـر على حقولها الخصيبة سراً بدا وكأنه لا دليل عليه. ووحدها المصادفة يمكن أن تكشفَه.

تم تسـميةُ إحدى الدول المدنية المهمة باسـم إشـنونّا[1] Eshnunna. فقد صرّحت الوثائق باسمَها، وذلك وفقاً لإلهها المحلي تِشپاك Tishpak؛ كما أعطت الوثائق أيضاً أسـماءً للعديـد من حكامها، بعضُهم كانوا حكاماً مقطعيـن للحكام المطلقين لأور في السـلالة الحاكمة الثالثة لأور، وبعضهم كانوا ملوكاً متأخرين بأسـماء غريبة مثل إبالپِل وإبق أَدَد، اللذين عرفا بكونهما أباً وابنه. وبعد أن اكتسـح العيلاميون ودُمّرت إثر ذلك قوّة أور حوالي عام 2000 ق. م، قاتلت إشنونّا للحصول على استقلالها حتى ما يقارب عـام 1800 ق. م؛ عندئـذ بـرز قائد سـاميّ عظيم، وهـو حمورابي العظيـم، المحارب والمشـرّع، ليحكمَ من بابل، ويصدّ هذا الملك ملـك العموريّين Amorits أولاً الغزاة الجبليين إلى حدودهم الجبلية، ويسيطر على المدن التي قاومته في السهل، ثم يؤسّس سلطة ذات سيادة مطلقة على الأرض.

كانت هذه نهاية إشـنونّا كدولة مدنية؛ ولكنَّ المكان الذي ازدهرت فيه ذات مرة ما زال غامضاً تماماً.

* * *

فـي صباح أحد الأيـام الحارة بأواخر عام 1928، كان المديرُ الإنكليزي لقسـم آثار العصـور القديمة في بغدادَ يعمل في مكتبه فـي المتحف. كان قلقاً، لأنَّ تاجراً أو اثنين في دكانيهما الغريبين في الشـارع الجديد، وُجدا مؤخراً يبيعان آثاراً قديمة من الممكن أن يكونا قد حصلا عليها من عَرَب رُحّل يتابعون نهباً محظوراً لمواقعَ قديمة. فالتنقيب وبيـع بعـض الأشـياء التي مـن الممكن أن تكـونَ بالغـةَ الأهمية لم يكن وحـده مجالَ اهتمامـه، رغم أنه كان سـيئاً بما يكفي. ولكنَّ الألَمَ الفكـريَّ لأيّ عالم آثار كان معرفة أنَّ الاتجـارَ يوماً بعد يـوم والتهريبَ لبعض المواقع القديمـة وتهريب آثارها يمكن أن يُدَمّرَ بشـكل مؤكد وإلى الأبد معلومات تاريخية لا تُقدّر بثمن، والتي كان من الممكن الحصـولُ عليهـا فقط من خلال خبير فـي العمل الميداني للمواقـع الأثرية وفي تفريغ

(1) قد ترد التسمية في بعض الدراسات المقالات الحديثة بالعربيّة: إيشنونا، لكن الصّواب فيها بإسقاط الياء حكماً.

وتسـجيل الأبنية القديمة. ولكـن لم يكنْ هناك أيّة طريقة لإيقاف تلك التجارة السـرية باستثناء المكان الذي اكتشفوه، ووضعوه تحت سيطرة بعثة راشدة.

دخل موظف عراقيّ إلى مكتبه وأخبره بأنَّ هناك بدوياً يرغبُ برؤيته. أجاب: «جيد جـداً؛ أين هو؟». «أسـفل فـي الفناء ـ هل أُحضـره؟». أومأ المديرُ برأسـه، واتجه نحو النافـذة. كان رجـلُ القبيلة العربـي مقرفصاً في ظل حائط الفناء، يدخّن بسـلام، بعينين مغمضتين تقريباً مقابلَ وهج أشـعة منتصف النهـار، كان يحيط بوجهه الملتحي القاتم شال[1] أبيضُ ملفوف وفوقه عقال أسود. راقبَ المديرُ الموظفَ الشابَّ، المتأنقَ ببزته القطنيـة البيضـاء، وهو يدعو البـدويَّ للدخول. أطفأ البدويُّ سـيجارته، ودسّـها برفق بعيـداً في مكان ما فـي أعماق عباءته البنيَّـة الرثَّة، وانتصبَ واقفاً علـى قدميه. ومن ثُمَّ انحنَى ببطء والتقطَ حزمةً مغبرةً قربَ الحائط بحذر فائق وسـار باتجاه باب المتحف. (قرِّر المديرُ: لقد أخذ شيئاً ما ليريني إياه، فكَّرَ متَجَّهماً بأنَّ التاجرَ لن يأخذَه).

عاد إلى مكتبه وانتظر بينما صعد البدوي ببطء درجات السُّلَّم الحجرية. فقاد التاجرُ الرَّجُلُ داخلَ المكتب، وانتظرَ إلى أن بلغ المكتب. رحّبَ بالمدير بلطف، وضع حزمته وبدأ يفكها ببطء.

انتظـر المدير بصبـر وهو يفكر (من الصعب أن يكونَ سـاذجاً بما يكفي ليحضرَ لي غنيمة ـ أتساءل يا ترى، ماذا أحضر؟) حُلّت العقدةُ الأخيرة وفتح المنديلَ المتسخ. كان فيه آجرة رمادية كبيرة. أخرجها البدوي برفق وسـلَّمها له عبرَ المكتب، مشـيراً بإصبعه الطويل إلى شيء ما على سطحها العلويّ.

قـال المدير وهو يأخذها في يديه: «آه، نعم». كانت آجرة عليها كتابة منقوشـة؛ لُقية عادية شائعة، إذ كان من المعتاد في الأزمنة القديمة أن تنقشَ الآجرات في أبنية الحاكم بالكتابات.

راقبـه البدوي بدهاء بينما كان يجول بناظرَيه على الخطوط المنقوشـة على الآجر.

---

(1) الشال: دثار، لكن المراد به هنا الكفيّة (الشماغ أو الغترة).

(اللـه كريـم معـي؛ لأنَّ أمثالَ هؤلاء النـاس يعرفون قيمـةَ أمثال ذاك الآجـرّ الذي عليه كتابات منقوشة، ولكن لا يمكن لك أبداً أن تعرفَ قيمةَ أيّ من الآجر في الصحراء، ما يسـاوي وزنه ذهباً، وما لا قيمة له أبداً ـ كما لا يمكنك أبداً أن تعرف بماذا يفكر هؤلاء الناس. ولكنَّ اللهَ رحيم، وربما سـيعطيني بعضَ النقود؛ بما يكفي لبعض السجائر، أو حتى بما يكفي لشراء زوج من الأحذية ـ إن شاء الله، إن شاء الله...).

قال فجأة أشبه بضربة سوط جملة سريعة: «أين وجدت هذه؟».

مالَ برأسـه نحو النافذة: «بعيداً، بعيداً جداً، أيُّها المدير؛ في مكان ما في الصَّحراء ـ على بُعد مسيرة يوم».

هل تحمل اسماً؟

تسمى «تل أسمَر».

همـس المديـر بتردّد: «The Brown Mound، ولا شـيءَ هناك سـوى رواب مبنية أينما نظرت، هل بإمكانك إيجادُ هذا المكان بالضبط مرة أخرى؟».

«نعم حضرة المدير.. أستطيع بالتأكيد».

نظـر المديـر حولـه إلـى الموظـف الشـاب الـذي كانـت عينـاه الداكنتـان تشـعّان بالاهتمام.

«أريـد السـيارة، أخبـر عبد اللـه أن يتأكد من خـزّان الوَقـود إن كانَ ممتلئـاً، ويأخذ صفيحة احتياطية منه، ولنكن جاهزين خلال دقائق».

أسرع الفتى خارجاً.

بعد قليل تحركت السَّـيارةُ خارجةً عبر بوابة مقنطرة نحو الطريق التُّرابيّ، وانعطفتْ إلـى الجنوب الشـرقي، جلسَ المديرُ قربَ السـائق، وأقحم رجلُ الصَّحراء نفسَـه بين غطاء العجلة الخلفي وغطاء محرك السَّيارة بأسلوبه اللامبالي لأمثاله حين يذهبون إلى مكان ما بواسطة سيارة، وإحدى يديه على غطاء المحرك لتأكيد سلامته.

مرّوا فوق جسر لانكشاير Lancashire Bridge، وتجاوزوه إلى مسافة ميل أو اثنين، إلى أن صرخ العربي فجأة: «هاه! هاه! محرّكاً ذقنَه بلحيته البارزة نحو اليسار. تمايلوا بطريقهم للدخول إلى الصحراء الحقيقية ـ لم يكن هناك ركام رمليّ صغير ولا آثار لأيّ عجلات ذاهبة آتية لتقودَهم وقتئذ. وفي ذلك اليوم كانت عجلاتُهم تطبعُ أوَّلَ آثار لرحلات لا تُعد. ولم يتردَّد العربي أبداً في تقدمهم أعمق وأعمق في الأرض القاحلة.

«هاه! هاه!».. وأشار بوجهه الملتحي إلى السائق لينعطفَ يساراً. «هاه!، هاه!» – «يمين، والآن ـ نحو اليمين! وإلى الأمام، تابع تابع».

وبعد خمسين ميلاً من ذلك، كان ابتهاج أخير: «هاه!»، وأمامهم قريباً منهم ظهرت تلَّة بنيَّة منخفضة قبالةَ الأُفُق.

«هُنا وجدتُ الآجرة، أيها المدير ـ هنا تل أسمَر».

تسلق المديرُ ببطء، ومدَّدَ أعضاءَه المتشنّجَة، ثم نظرَ حولَه. لا شيءَ سوى كثبان رمليَّة بنيَّة رماديَّة، مكسوَّة بالجصّ، فارغة تحت سماء هائلة. مشى بتمهل إلى أعلى منحدر الرابية اللطيف نحو القمة وبدأ بالتحرك عليها، يضرب هنا وهناك بعصاه. فكّر (آجرة واحدة طليقة لا تُعدُّ دليلاً). التقط بعضَ القطع الصغيرة لفخار متكسّر، وتفحصها؛ ووضع بعضاً منها في جيبه، وقذف الأخريات إلى الأرض. ثم توقف ناظراً نحو الأسفل نحو شيء ما آخر على السطح ـ آجرة ـ ولكنها طليقة. جلس القرفصاء، وبدأ بإبعاد التراب بيديه عن الآجرة حيث وُجدت. كان هناك آجرة أخرى أسفل السطح، وتحتها استطاع أن يرى الأخريات ـ وكانت مترابطةً معاً كما بُنيت لأول مرة. ولم يكن هناك شك من وجود قسم لجدار من اللبنات الطّينيَّة في موضعه الأصلي. أخرج المدير سكيناً وبحذر رفع الآجرّة العليا؛ ثمّ نفخ الترابَ بلطف عن السطح. نعم، هنا كانت للمرة الثانية النقش ذاته:

«إِبِق أَدَد الملك الجبّار»

«موسّع إشنونّا»

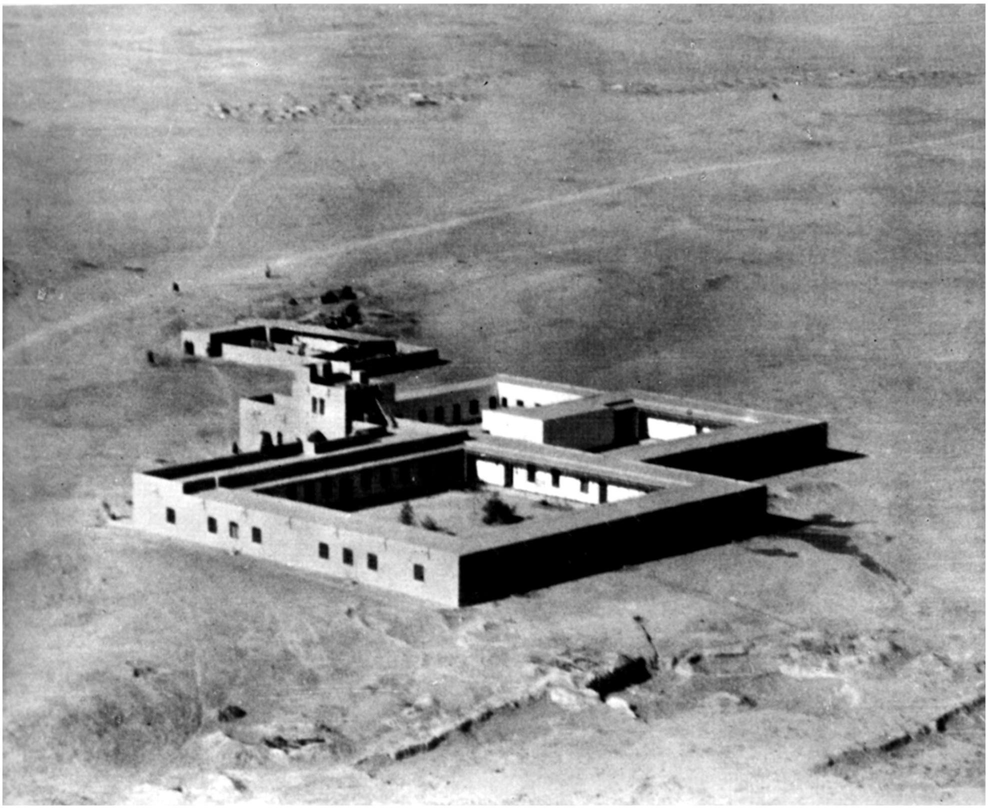
«محبوب تِشپاك»

«ابن إبالپِل».

وهكذا.. فقد تم اكتشاف إشنونّا أخيراً!!

* * *





«بعد أكثر من 3000 سنة قامت الجدران من جديد في هذا المكان النائي»

كانـت مشـكلة التنقيب في تل أسـمَر على المحـكّ، فبالإمكان أن تكشـف التاريخ الكامل لإشنونّا القديمة ـ وبالتأكيد، كانت مشكلة التنقيب على جميع الأحوال مشكلة هائلـة. حيـث لا مـاء، ولا منزل. إضافة إلى أن ما يزيد المسـألة تعقيداً اكتشـافنا المهم بـأن ما وصل إلى أيـدي التجار من آثار كانت تعود إلى رابيتيـن قرب نهر ديالى، والتي قـد تكون على أي حـال جزءاً من الدول المدنية القديمة، ولكنها بعيدة عن تل أسـمَر؛ وللحيلولـة دون وقوع سـرقات أكثـر، فقد كان يتوجّـب على أية بعثة في تل أسـمَر أن تكـون تلـك الروابـي داخلة في الامتيـاز التي حازت عليـه للتنقيب في تلـك المنطقة، وبذلك يمكن لهم التنقيبُ فيها وحراستُها بشـكل جيد. وهذا يعني هيئةَ تنقيب كبيرة، وبالتالـي منـزل لهم كبير، وكلُّ شـيء بالقيـاس يحتاج لمقدار ضخم مـن المال. وكان لهـذا السـبب بعيداً عن مسـتوى أيّة مؤسسـة بريطانية للتنقيب عن الآثـار، والتي كانت تعتمـد ميزانيتَها في تلك الأيام في الدرجة الأولـى على منح قليلة من المتاحف وعلى التبرعات من أعضاء جمعيات مثقفة. كان الحلُ الواضحُ للاكتشـاف الجديد أن يكونَ مندمجـاً فـي كيان ضخـم لأعمال علماء التنقيـب التي يقوم بها المعهد الشـرقي التابع لجامعـة شـيكاغو Oriental Institute of the University of Chicago، الـذي كان يتولى تنقيبات في مصرَ وفلسطين وسوريا وشمال العراق وإيران.

أُرسـلت رسـائل سـريعة فـي مطلع عـام 1929 بيـن بغداد وشـيكاغو. ولقـد أدرك البروفسـور برسـتِد Breasted مباشـرةً أهميـةَ المـكان المُكتشـف مؤخـراً، وقـرّرَ أن يقـدّمَ طلبـاً للحصول على امتياز للتنقيب فيه، مما شـكّل رابطاً عظيماً آخرَ في سلسـلة الاكتشـافات المستمرَّة حول الشرقين الأدنى والأوسط. ولكنه علم أنه سيحتاج لمبلغ مـن المـال أكبرَ مـن الكبير لهذا الموقـع، كما علم بأنـه يجب أن يكـون لديه رجل من الدرجة الأولى يعملُ كمدير حقل، رجل يستطيع أن يتفوقَ لا في حقل العمل وحسب، بل أيضاً ليضعَ النتائجَ في مكانها المناسـب بشـكل لا يُخطئ في مخطط العمل الكبير للكشـف عن تاريخ سـومر القديم غير الواضح؛ رجل يجمع في شـخصه شدةَ الإتقان في العمل كمخبري، مع نظرة واسـعة لمـؤرخ عظيم؛ كما وعليه أن يحوزَ على صفات

أخرى أكثر من مجرد مقومات منقب آثار، كأن يكون قادراً على معالجة مشاكل الإدارة، والتي يمكنُ أن تكونَ هائلةً على نحو كبير في مكان منعزل كهذا. وأخيراً، وليس آخراً، يجب أن يكونَ رجلاً من صنف يستطيع قيادةَ فريقه ويجعلهم يقدّمون أفضل ما عندهم من عمل في الأوقات العصيبة التي تقودُ إلى الانهيار بسبب طريقة الحياة التي عليهم أن يمارسوها في عزلة قد تمتد لشهور طويلة في الصحراء.

استطاع عدد قليل من الرجال تحقيقَ جميع تلك المتطلبات، والتي كان كلّ منها مهماً بشكل أساسيّ ـ وكان برستِد يعلم ذلك. ولكن ومع تأمّله بتلك المشكلة، تحولت أفكارُه إلى التنقيب في مصر، التي كان زارها قبل سنة فقط؛ حيث يقوم مديرُ حقل شاب ـ بتوجيه هيئة بدت أنها في أفضل الشروط بعلاقتها معه من جهة وبين أفرادها بعضهم مع بعض من جهة أخرى، ومع تقديم نتائج ممتازة تحت قيادته ـ فقد حصل مؤخراً على درجة الدكتوراة Ph. D في التنقيب على الآثار لنشره عملاً يدور حولَ الآنية الفخارية في الشرق الأدنى القديم. شخص يملكُ سعةَ أفق أبعد بعيداً من المشاكل ومن أهمية التنقيب الفردي. رجل توّاق عبقريّ، ومعه زوجة شابة متألقة. نعم، فكر برستِد؛ وكتب رسالةً طويلةً جداً...

كانت أول حركة لفرانكفورت Frankfort بعد قبوله العمل في وظيفة مدير موقع البعثة العراقية للتنقيب هو تعيين سِتون لويد Seton LIoyd مهندساً معمارياً له ليقوم الأخير بالخطوة الأولى ببناء منزل في تل أسمَر، وهكذا بكل بساطة اعتقد المقاولُ الذي تعاقد معه للبناء حسب المخطط الذي وضعه المهندس بأنه إذا قام بحفر بئر عميق بشكل كاف في الموقع فسيكون بالإمكان صنعُ الآجر في المكان نفسه، وبالفعل وعلى عمق 600 قدماً وجد ماءً، ولكن لكونه مالح جداً تفتت الآجرة إلى قطع فور جفافها.

كاد المقاول أن يجن، وكان عليه أن يعيدَ التفكيرَ مرةً أخرى. فوجد أن على بُعد اثنتي عشرة ميلاً باتجاه الشمال كانت نهاية قناة حديثة، فزوِّد صهريجٌ ضخم بخزان كبير وأُرسل إلى القناة مع ستة من البدو مسلحين بعدد من صفائح البنزين الفارغة، وضعت

على طول جوانب الصهريج. وقد تمَّ حلُّ مشكلة المياه، لصنع الآجر وللاحتياجات المستقبلية للبعثة، ما عدا في ناحية واحدة ـ وهو مياهُ الشرب. أُرسلتْ عينة من ماء القناة إلى طبيب في بغداد من أجل التحليل؛ وقد كان رأيُه بيّناً وقاسياً، ولكنه غيرُ مفاجئ؛ لأنَّ عدداً من القرى امتدَّ على طول ضفاف القناة؛ حيث قال إنَّه من الممكن استخدام الماء للغسل فيما لو صُفّي بشكل دقيق جداً، وقال: ـ يمكن أن يُغلى لمدة طويلة، ومع ذلك يبقى غيرَ قابل للشرب. الإمكانيةُ الوحيدةُ كانت بالحصول على مياه معالجة بالكلور تُرسَل من بغداد ـ وأضاف بلطف، أو هناك بالطبع دائماً البيرة.

بُني المنزلُ على امتداد أرض قريبة جداً من أقصى جنوب التل، وتألف من ثلاثة أفنية مترابطة مشكلة حرف (L)؛ كانت جميعُها على مستوى الأرض، ماعدا البرج الذي فوق مدخل السَّيارة، والذي يُرقى إليه عبرَ درجات خشبيّة قاسية، ويحتوى البرجُ على خزان ماء تُضخ إليه المياه المُنَقاة الخالية من الشوائب أولاً. وفي زاويته سارية نحيلة تحمل المصباحَ الكهربائيَّ في أعلى قمتها، ينير 15 قدماً أخرى أو أكثر.

اشتمل الفناءُ أسفلَ البرج على محطة ديلكو Delco لتوليد الكهرباء، ومغسل لغسيل الثياب، ومساكن الخدم، ومساحة مرآب تكفي لثلاث سيّارات. واشتمل الفناء قريباً من المرآب على مكتب رسم، ومخبر، والغرفة المظلمة (لتظهير الأفلام)، وغرفة طويلة جداً مليئة بمقاعدَ خُصّصَت للعمل على اللُقى عندما تصل من الموقع، ورفوف لخزنها. أما الفناء الأكبر فقد تألف، في جهات ثلاث من غرف تصلحُ للجلوس والمنامة لأعضاء البعثة، ومكتب مزوّد بمكتبة مراجع؛ وعلى الجانب الغربيّ كانت هناك غرفةُ معيشة طويلة بموقدها المفتوح وكراسيها المريحة؛ وتتصل من خلال أبواب متأرجحة مزدوجة بغرفة الطعام.

بعد زمن امتدَّ لأكثَرَ من 3000 سنة، ظهرت جدران من جديد في هذا المكان الصامت؛ أبواب تُفتح وتُغلق؛ خطوات مشغولة للعمل أو للمتعة مرة أخرى على أراض مرصوفة؛ وسُمعت أصواتٌ في الهواء الجاف النقي.

❊ ❊ ❊

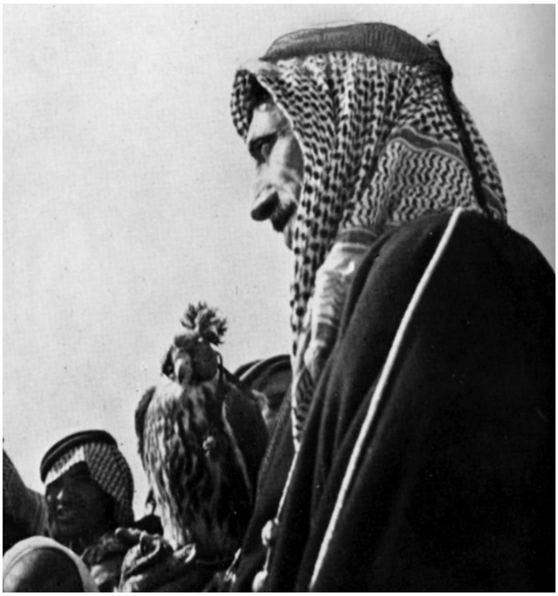


فتى يمتطي جواداً في حفل





فتيان القفف



بدوي يحمل صقراً

اكتشفتُ بأنَّ الاسمَ الحقيقي لعالم اللغة (الفيلولوجي) الذي يُدعوه الجميع جايك Jake كان توركيلد ياكوبسن[1] Thorkild Jacobsen. كان دنماركياً، كما قامت زوجتُه ريغمور Rigmor بتصوير جميع أعمال التنقيب. كانت لدى هانز قاعدة وهي أنه يمكن قدوم الزوجات إلى موقع التنقيب في حال قيامهنّ بعمل حقيقي ـ فقد أُتلف التناغمُ في العديد من أعمال التنقيب بقدوم زوّار من الجنسين ـ لذا فقد قامت ريغمور بتدريب مكثّف في الدّنمارك، مما جعلها مصوّرةً فوتوغرافيّة متميزةً من الدرجة الأولى.

إنّ التباينُ الشديدُ لمظهرهما وأساليبهما، ينفي خلطتَهما الغريبة، ويؤكد ارتباطهما الكامل.

كان جايك شاباً طويلاً، منحنياً قليلاً، كما لو أنه متلهف دوماً لالتقاط تعليقات من أناس من ذوي الطول العادي؛ يمتلك ملامحَ هادئةً تحت موجات شعره المتموج بالشيب مثلَ زهرات الربيع المتكسّرة؛ وعيناه رمادية غائرة، متأملة دوماً كعيون راهب، وتضيع تلك النظرة عندما يضحك، وله فم صغير قابل لأن يُصبحَ ذا خطوط قاسية فوق ذقن ضخم كبير، وعلى الغالب معلق فيه الپايپ الاسكندنافي المعقوف.

كان عملُه الخاص طبعاً ترجمةَ جميع نصوص النقوش التي وُجدت في موقع التنقيب. كان جايك يعود كلَّ مساء إلى غرفة صغير ليعملَ على ألواح طينيَّة صغيرة ثقيلة، وبصبْر يحلُّ ألغازَ تسجيلات قضايا قانونية وتجارية كانت تعني فيما مضى نصراً

(1) توركيلد پيتر رودولف ياكوبسِن (1904–1993) مؤرخ دنماركي شهير مختص بالنصوص الآشوريّة القديمة، وأحد أشهر الوجوه العلمية فيما يخصّ الشرق الأدنى القديم. درس في جامعة كوپنهاغن، ثم نال الدكتوراة من جامعة شيكاغو. عُيّن من قبل المعهد الشرقي (OI) التابع لجامعة شيكاغو بصفة الأخصائي الميداني في النصوص الآشوريّة، ضمن بعثة المعهد في العراق التي دامت بين 1929–1937. وفي عام 1946 أضحى مديراً للمعهد المذكور ومدرساً 1946–1962. ثم في عام 1962 غدا ياكوبسِن أستاذاً للدراسات الآشوريّة في جامعة هارڤارد، حتى تقاعده عام 1974، ثم شغل منصب أستاذ زائر في جامعة كاليفورنيا بلوس آنجلس UCLA حيث أسّس فرعاً مهماً للدراسات الآشوريّة. ويعدّ إجمالاً أهم من درس الثقافة الآشوريّة والأكّاديّة.

أو مصيبةً لخصوم متحفزين وتجار قبل 4000 سنة. حملت مشاعره لدقائق اللغة عبرَ العصور إلى أنه درس اللهجةَ الحديثةَ ـ فعلى سبيل المثال، كنت ألاحظ أنه يمكن أن يشيرَ إلى كلمة "autumn" لو كان يتحدث معي، ولكن يمكنه أن يُبدلها بعناية إلى "fall" إذا كان مستمعه أمريكياً.

وبقدر ما كانت ريغمور سمراء ومفعمة بالحيوية، كان جايك أشقر وهادئاً. لها عينان شهلاوان جميلتان واسعتان استقرّتا تحت حاجبين طويلين، في وجه أسمرَ صافٍ؛ وكانت حركاتُها سريعةً ورشيقةً حتى أنّه يندر أن يظفر المرء بفرصةً لمشاهدة وجهها وهو بحالة استرخاء. وأنا أحبُّ النظرَ إلى الوجه عندما يشرد العقل بعيداً عن منافذه ويتجه الى الداخل؛ حين لن تتمكن الشخصية المعقدة أن تفسدَ الشكلَ المطلق، والذي يكون في بعض الأحيان كل ما يرغب الشخص ملاحظته. ولكن ريغمور لم تكن شاردةً أبداً، كانت متألقةً دوماً؛ وإن لم تكن كذلك، فإنَّها متيقظة متحفّزة. كنت أُفاجئُها بالطريقة ذاتها التي نصح ريتشارد جفريز[1] Richard Jefferies الناسَ بأن يراقبوا الطيور بها، دون أن يظهروا أبداً أنهم ينظرون إليها، محاولين جعلها تعتقد أنهم غير مهتمين.

كانت صورُها التي التقطتْها للتنقيب واللُقى غايةً في الوضوح. وكانت المشاكلُ التي توجّب عليها حلُها في التنقيب في تلك الأوقات صعبةً جداً؛ فربما وُجِدَتْ قطعتا آجر ملتصقتين معاً في أسفل حفرة ظليلة، ذات أهمية فقط بسبب تجاورهما، ويجب تصويرُهما في موقعهما كما هما حيث عُثرَ عليهما حتى لا يذهبَ البرهانُ الصغير الذي وُجد أدراج الرياح. ولا أعتقد أنَّ ريغمور في النهاية أخفقت أبداً في تقديم نتيجة مُرضيَّة مهما كان الثمن بصراعها مع الرّكائز الثلاثيّة وقطع القماش في النقاط المنعزلة والرملية، أو لساعات طويلة في الغرف الباردة المعتمَة. ولا أعتقد أيضاً أنَ الصبْرَ كانَ سهلاً عليها، لكنها كانت تتماسك بنوع من سخط هادئ إلى أن تصل إلى درجة الرضا التام عن عملها.

(1) جون ريتشارد جفريز (1848–1887) كاتب إنكليزي اعتنى بوصف الطبيعة، وخاصة في الريف الإنكليزي.

وصل في اليوم التالي لمجيئنا ثلاثة من أعضاء الهيئة الأمريكان، كانوا جميعُهم وافدين مثلي: الدكتور ماك إيوانDr. McEwan وزوجته، وهارولد هيل Harold Hill. جاؤوا إذن؛ لكنني لم أدركْ لعدة ساعات قبلَ مجيئهم أنهم ماك وبِتي وهال، وكانوا تقريباً أولَ أمريكيين أقابلُهم في حياتي. كان ماك Mac وبِتي Betty قد جاءا للعمل في هذا الفصل فقط، لكي يكتسب ماك خبرةً في ذاك النوع من العمل قبلَ ذهابه لإدارة تنقيب جديد في سوريا. كان شاباً ضخماً، في الثالثة والعشرين من عمره، ولكنه يبدو أكبرَ من عمره إلى حدّ بعيد؛ ذا عينين ناعستين، وأنف أفطس، وصوت بطيء، بعقل حر، وملاحظة قوية مرحة. كان ذاهباً في البداية للعمل مع پيير في واحد من المواقع قربَ نهر ديالى والذي كان وقتها داخلاً في نطاق صلاحياتنا، وكان يُدعى خفاجة، فيما كانت بِتي ذاهبةً لإدارة المنزل الصغير هناك.

أما هال Hal فقد كان مهندساً معمارياً، وجاء عضواً دائماً؛ ليشارك سِتون بالعمل الضخم في مسح الأراضي ورسم التنقيب في تل أسمَر، كل مستوى كان على حدة. كان شخصاً نحيلاً أسمرَ وقوراً، له عينان داكنتان مظللتان. ولم يتطلب طويلاً ليتضح أنه كان حساساً بشكل هائل للمقياس الذهني، فهو يبقى دائماً متحفظاً ومنعزلاً، رغم سحره ما لم يكن مع أشخاص كان يسمح لنفسه بحذر تصديق أنهم مغرمون به حقاً. وعندئذ فقط، تستطيع مشاعره الدافئة أن تبدد حالةَ الاكتئاب عنده، ليظهر محتفظاً بهدوئه ـ فهو لا يرفع صوتَه أبداً أعلى من الهمهمة الخافتة التي ذكرتني بنحلة حُبست في علبة كبريت ـ ولكن بعين متألقة وذكاء متقد. لم يظهرْ أي من ذلك في الأيام الأولى ـ فقد كان هو وماك وزوجته قد انتقلوا في باص نظامي من دمشق إلى بغداد عبرَ عاصفة رملية شديدة، وكانوا جميعاً متعبين، وبدا هال مريضاً فقد سبّب له الغبار في الجوّ سعالاً جافاً.

بدأتُ الآن أشعرُ أنني أخذت كفايتي من الناس الجدد كي أستمرّ معهم، ولكن الجميع ألحّوا بالسؤال: «ماذا يمكن أن يكونَ حصل لغوردون وهام؟». وأنا أتساءل إلى أين يمكنُ أن يكونَ وصل غوردون وهام؟» بعد يوم آخرَ من التفريغ والتصنيف

والتنظيم، وكنت ما أزال أشعر أنَّ كلَّ شيء في الواقع يقعُ على عاتقي، وافقتُ شاكرةً على اقتراحَ راحيل للسير إلى موقع التنقيب بعد شرب الشاي؛ انطلقت الرحلةُ في نور غروب الشَّمس الدافئ. عبَرْنا مجموعةَ الأبنية التي كان سِتون قد أراني إيّاها في مكتب لندن بدايةً في الصُّور الجويَّة، ثمّ على لوح رسمه. استطعْتُ أنْ أميزَ بسهولة البناءَين الأساسييَّن منها ـ وهما: القصرُ وبناء آخرَ اتَّصلَ به عندَ إحدى الزوايا.

وصَلْنا إلى أعلى نقطة في الرّابيَة المُنخفضَة، كانتْ ساكنةً تماماً. وعندما نظرتُ شرقاً ظَننتُ أنَّني أرَى خيطاً رفيعاً لدخان أبيضَ قريب جداً من الأُفق. نظَرَتْ راحيل أيضاً، وابتسَمَتْ ابتسامَتَها اللَّطيفَةَ الخجلَةَ. قالت: «لا. هذه القمَمُ الثلجيةُ لجبال فارس ـ التي تبعُد مائة ميل تقريباً ـ وهذا ما جعلها تبْدو منخفضةً جداً». حدّقْتُ مندهشةً؛ واستطعْتُ أنْ أرى الآن عندما نظرْتُ بدقة أنَّ هناكَ خطاً طويلاً منقطاً لقمم بيضاءَ امتَدَّتْ شَمالاً وجَنوباً. حيثُ أَخفَى الخداعُ البَصريُّ للغلاف الجَوي مستوى سلسلة الجبال ذاتها ـ وكأنَّ القممَ قد ارْتَفعتْ وحدَها متحررَةً على طول سَماء المساء. لقدْ كانتْ رؤيةُ نهاية الفراغ مريحةً بشكل غريب عندما نظرتُ في ذاك الاتجاه.

بعد ذلك سَمعنا أصواتَ رجال يتحدثونَ ـ ولكنْ لمْ يكنْ بالإمكان رؤية أيّ شخص في أيّ مكان. في الواقع كانَ هناك شيئ مخيف؛ هل يمكنُ أنْ يكونَ هناكَ رجال اختبأوا في الخرائب الرَّمليَّة حولنا؟ قالت راحيل مشيرةً: «أعتقدُ أنَّ هذين الشيئين بعيداً شمالاً هما بقعتان سوداوان صغيرتان متحركتان باتجاهنا؛ ولا بدَّ أنَّهما على بُعد أكثرَ من ميل. كما كانَ هناك ظاهرة أخرى في هذه المدينة الغريبة؛ أعتقدُ أنَّهُ السُّكونُ وحالةُ الفراغ من جانب يدعَمُه توجُهُ الصَّوت على لوح الأرْض الميتة المسطح القاسي ـ ولقَدْ سُمعتُ أصواتُهم في آذاننا كما لو أنَّهم كانوا على بُعد بضع ياردات منّا.

قالتْ راحيل: «أتوَقَّعُ أنَّهم أولُ العُمّال، فقدْ تلقوا بطريقة ما كلمةً تعلنُ أنَّ الموسَم الجديدَ قد بدأ، وساروا إلى هنا فوراً من قراهم في مكان ما على طول الأُفق، وسيكونُ غداً ازدحام شديد».

«ولكنْ أينَ يعيشُ هؤلاء بحقّ السَّماء؟!».

أشارتْ غرْباً إلى الأرض المسْتوية خلفَ التل، إلى خط من حُفَر وعرة وخنادق.

قالـتْ: «لقدْ قامُوا بحفر حُفر في الأرض وتغطيتهـا بحصير وجُلود. وقد كفلنا لهم تأميـنَ الماء، وعليهم إحضارُ طعامهم. وفي كلّ أسـبوعين من بـدء يوم الدفع يعودون إلـى قراهُم مدة يـوم واحد ثم يرجعون في اللَّيلة التاليَّة مع مـؤن أكثر». كان الرّجالُ قدْ أصبحُوا أقربَ الآن، يحملُ كلُّ واحد منهم في يد حزمةً صغيرَةَ.

مشَـينا ببطء عائدين إلى المنزل، وذهبْنا إلى غرفنا للاسـتعداد العَشـاء. كنتُ متلهفةً لبَـدء العمل الفعليّ. كانَ الجميعُ في غاية اللُّطـف؛ وأعطت اللَّمحاتُ الأولى للحطام المتشـابك خُطوطاً عريضةً لمنزل البعثة بغرفه المُعقَّمَة المُرتَّبة، بُنيتْ بشـكل مُستدير، وحُصـرتْ ثلاثَ سـاحات صغيرة اقتُطعَـتْ من الصَّحراء، تبْدو غيرَ متناسـبة أبداً حتى إنَّها تبدو غيْرَ طبيعيَّة؛ ممّا يبعثُ على الاكتئاب. قال عنها سِـتون إنَّها منعزلة بشـكل لا يُصدّقُ، ولكنْ ربما كان يفكّرُ بواقع الجغرافيا فقطْ عندما قال ذلك.

شـعرتُ بعزلة عن الناس؛ وكأنّـي نزيلة جديدة في نُزُل إحـدى الجامعات للطُّلاب الأجانب ـ وقد كنْتُ أشْعُرُ أنَّني الأكثرُ غربةً. اجتمعْنا كلُّنا هنا، معارف مهذبين، بالنسبة لـي شـخصياً: هولندي، روسـي[1]، أميركـي ودنماركـي، يُحضّرون لعمـل فريق فعّال وعلميّ. هل سَنسـتَمرُّ طوالَ الوقْت هكذا؟ هل يمكنُ أنْ أفهمَ ما كان كنهُ هذا العمَل؟ هـل سـأنجرفُ معهم في كلّ ما كنـا نقوم به؟ نظـرْتُ حولي في غرفتـي اللَّطيفة بأثاثها الحديْث، والذي كان يمكن أنْ يقدّمَ سُـمْعةً حسَـنةً لفندق جيد، وذلك بمصباح القراءَة الكَهربائيّ عنْدَ السَّـرير، وبحوض الغَسـيْل اللّامع في الزاويَةَ. حاولْتُ جاهدةً أنْ أكونَ عَقلانيَّـةً، ولا أمقُـت كلَّ ذلك، عندما فكَّرْتُ متشـوقةً لغرفَتي الصَّغيرة البَسـيطَة في تلّ العمارنـة بمصباحها الزَّيتـيّ المجنون الذي عُلّق على الخطّاف، وحوضَ الاسـتحمام المصنوع من القَصدير على الأرض.

عندمـا بدَّلـتُ ثيابي ذهبـتُ عبرَ الفناء إلـى غرفة المعيشـة، ووجـدْتُ أنَّ العُضْوين

(1) المقصود پنحاس پيير دُلوغا Pinhas Pierre Delougaz المولود في أوكرانيا.

الأخيْريـن مـن البعثـة – الأميركيين ـ قد وصَـلا لتوّهما. كانَ غـوردون لاود Gordon Loud يحـدّثُ هانـز وييتي حولَ المغامـرات المُتعبَة في طائرة خربـة قادمة من نابولي قامَـتْ بهبوطَيـن مفاجئَيـن محطّمين للأعصـاب، بينمـا كان رفيقَه جالسـاً على طاولة يؤرجـحُ سـاقيه، ويضحَكُ مع هال وريغمور. كانَ وجهُه شـاحباً عليـه بقع من الكلف وعيونـهُ بنيَّـةً مصْفرَّة، تترافقُ غالباً بشـعر أحمر قاتم. بدا مُتوتراً مُتحفـزاً ـ ربما هي ردةُ فعل بعدَ رحلته الجويَّة الرهيبَة. وعندما رآني انزَلقَ عن الطاولة وأقبَلَ نحوي.

قال بابتسـامة سـريعة: «أعلمُ مَنْ أنت، ولكنك لن تعرفيني. اسـمي هاميلتون داربي Hamilton Darby ـ ادعيني هام Ham. تعالَي لنشـربَ سـويّةً، وأخبريني ما رأيك عن كلّ شيء هنا».

صافحَنـي بقبضـة محكَمة، وأخذنـي خارجاً وعرَّفني علـى البقيَّـة. جعلني الدفءُ المفاجئُ الفاتنُ وغيرُ المتوقع أرغَبُ بأنْ أنفجرَ بشهقات بكاء عالية غيرَ بريطانيَّة، فيما إذا كانَ هذا المكانُ الغريبُ سـيلعبُ خدعةً مع قلبي. وذلك لأنّي لم أكنْ واجهتُ أبداً ذلك النوع من الودّ السَّـهل السـريع مسـبقاً. هل كانتْ تلكَ تحيَّة أمريكية عادية؟ ـ وإنْ كانتْ كذلك هل كانت تعني شيئاً، أم كانتْ تمَلُّقاً؟ هل استطاعَ حقّاً أن يكونَ بدهياً جداً ليعلـمَ كـمْ كنْتُ محتاجةً لأنْ أبتهـجَ في تلك اللحظة؟ مهما كانـتْ تعني فقد أصبَحتُ أفضـلَ بشـكل كبير؛ وتسـاءَلتُ فيمـا إذا كانَ هذا المـكانُ الغريبُ سـيلعبُ خدعةً مع قلبي، كذلك وأنا أرْتشفُ جرعةً إضافيةً من المارتيني Martini، وسمعْتُ الضَحكات، وفكَّرْتُ بالأشياء الغريبة التي رأيتُها وسمعتُها في موقع التَّنقيْب ذاك المساء.

* * *

الفصل الرابع

كانـت الصَّحراءُ طوال فترة صباح اليوم التالي شـمالاً وغرباً مليئةً بأشـكال سـوداءَ صغيـرة مَثنـى وثُـلاثَ، تتَقاربُ عنـدَ المنزل كما لو أنَّهـا تجاذَبَتْ بواسـطة مغناطيس. كانَ هؤلاء البَدْو شـديدو البؤس، يكسبون معيشَـتَهم بصعوبة شديدة في قراهُم الطينيَّة على طول الأقنية حيث أنهم الآن أقاموا وجوداً شـبهَ مسـتقر؛ وقد كانَ المُتوقعُ بالنسبة لأجرة تُدْفعُ أسـبوعياً بشـكْل متواصل لمدة أربعة أو خمسـة أشـهر في السَّنة أن تكونَ ذهباً بالنسبة لهم.

انقضَى اليومُ مُسرعاً بوجود نصف دائرة ضخمة من بدو جاثمينَ صامدينَ متحلقينَ حولَ واجهة الباب، وبدأ هانز مع سِتون وجايك مَهَمَّة استخدام مئات أو أكثرَ من الرّجال والصبيـان الذينَ هم بحاجة إليهم في أعمال الحفريات والنقل القاسـية. كانَ معظمُهم قـدْ أحضرَ بطاقـات تُثبتُ أنَّهم كانوا قد عملُوا في هذا المكان في السَّـنة الماضية، وإذا كانتْ التقاريرُ عنهم جيدةً، فيمكنُ أن يتمَّ اختيارهم مرةً أخرى.

كانـتْ بعضُ الوجوه الشـاحبة لطيفةً جداً، ولكنَّ معظمَهـم تقريباً كان هزيلاً. كانتْ ثيابُهـم باليةً، ومنْ كلّ الأنواع. فبعضُهم كانَ يرتـدي ثياباً عربيَّةً صرفةً، وهي عبارة عن عبـاءة بنيَّة طُوّقَتْ فـوقَ ثوب أبيضَ كدر؛ وبعضُهم كان يرتدي سـترةً عسـكريةً قديمةً زُرّرَت فـوقَ قمصانهـم الطويلـة، ولا بدَّ أنَّها تمثّـل بقايا من الحَـرب العالميَّة الأولى، التقطـتُ من مكان لا يعلمُـه إلا الله، بعضُها كان بريطانياً بلـون كاكي، والبعضُ الآخرُ تركياً رمادياً.

وارتـدى جميعُ الرّجال غطاءَ البـدْو، الكوفيةَ، بيضاء، أو بنيَّة، أو ذات تربيعات، عُصبَتْ

حولَ الرأس بحبل أسودَ مجدول (عقال)، لُفَّ كيفما اتفق حولَ الذقن والحنجرَة؛ وبشكل ما تَمَّ طيُّ أغطية الرأس ووضعها بحيثُ كانتْ منتفخةً ومحيطةً بالوجوه القاتمة، فأصبحُوا كلباس الفزّاعات، كما وحافظَتْ نوعاً ما لمرتَديها على وقارهم القبَلي.

عندما انتهتْ مَهَمَّةُ الانتقاء، كانوا جميعُهم قد تفرَّقوا بعيداً، وكان على غير المحظوظين العودةُ إلى قراهُم سيْراً على الأقدام كلَّ تلكَ الأميال. وكان عزاؤهم أنَّ رفاقَهم الذينَ تَمَّ انتقاؤهم كانوا في دورة عمل قاسية طويلة وشاقة تماماً، حيثُ يمكنُ لهم جميعاً عند الانتهاء من العمل أن يصبحوا أغنياء؛ ولكنْ كانَ باستطاعتهم هم على الأقل أنْ يقومُوا بأعمالهم على مهل؛ لأنَّهم عادوا لكسب معيشتهم في المساحات الصغيرة التي يزرعونَها من الأرُز والبصل قربَ القناة.

ذهبوا بعيداً، وذهبَ العمّالُ المستخدَمون خارجاً إلى خط الحفر التي كانتْ راحيل أرتني إياه؛ وبدأوا برفوشهم[1] ومجارفهم القاسية بتهيئته للموسم المقبل. كانوا قد فرَّغوا الرّمالَ التي كانت انجرفتْ إلى الحفر في فترة الصَّيف؛ ثمَّ أعادوا حفرَ الحاجز القديم والعوارض الخشبيَّة في الأعلى، وغَطُّوها بحصيرة. ثمَّ كدَّسوا رمالاً فوقَ الحصيرة لحفظها في مكانها بدأتْ أعمدة من دخان أزرقَ ترتفعُ على طول الحفر، كانت من النّار التي أُشعلتْ من روَث الجمل وذلك من أجل الاقتصاد في استخدام الكميَّة القليلة النفيسَة من الحطَب، والني تمَّ عليها طهي وجبَتهم من الأرُز والبَصَل ببطء، لقد كانَ مشهَداً هادئاً.

في غضون ذلك كان جبرائيل قد جلبَ حمولةً إضافيةً من الماء لهم، ومن ثمَّ وضعَ صبيان الشاحنةَ في الخدمة من أجل مَهَمَّتهم الأسبوعيَّة في سقاية الشجيرات في الفنَاء الرئيس. حيث كانت شجيراتُ الكينا Eucalyptus وأجَماتُ الدُّفلى Oleanderقد زُرعتْ قبلَ سنَة في الوسَط منها وفي الزوايا الأربعة، وكانتْ قد بَرعَمتْ وازْدَهَرتْ. كان الصبيَةُ وهم يحملون أوعيةَ الوَقود المتْرعة يهذرونَ جيئةً وذهاباً، مبتسمينَ بينَ شاحنة الماء والأشْجار الصَّغيرة، وقد غارَ الماءُ بعيداً حولَ الجذور الممتنة في الدوائر

(1) رفوش: جمع الرفش: المجرفة. (القاموس المحيط، ص 767).

الصَّغيرة المحيطَة بالأشجار. نظرتُ إلى اللَّون الأخْضَر الهزيل، واستمعتُ إلى حفيف الأوراق الطويلـة بنـوع من شـوق شـديد؛ واعتقدْتُ أنَّـه لا يمكنُني أبداً مـرةً أخرى أن أستخفَّ بأشياءَ خضراءَ تنمو بوفرة في التُربة الخصْبة الوافرة.

ذهـبَ پيير وماك وهام في فترة بعـدَ الظهر ليبدأوا العملَ في خفاجة، والتي تبعُد 20 ميلاً، حيثُ مكثُوا مدةَ أسبوع متواصل.

تجمّعوا في سيّارة فورد Ford قديمة عُرفَتْ باسم توتو Toto ـ وذلك لأنَّ هانز ذكر أنَّها هـي وسـيلةَ النقل التي تأتي بهـا مجموعةُ العمـل الخاصّة بخفاجة. ثـم اختَفضوا في كومَة الرَّمـل تُطلقُها في الخلف على طول الطريق باتجـاه بغداد. بدأ الطريقُ إلى خفاجة غرباً من هـذا الطريـق على بُعد 12 ميلاً تقريبـاً؛ وعند ملتقى الطرق كانتْ هناكَ عصا رفيعةً غُرسـتْ علـى قمة الكثيب، تتمايلُ بائسـةً في نسيم الصَّحـراء لتوضحَ الطريقَ في الأحـوال الجويَّة السَّيئة. إنَّني حقاً متأكدة أنَّ كلَّ ما تحتاجه توتو كان ضربةً وُديةً على خزّان الوقود تُرسل بها عائدةً على الطريق المألوف باتجاه اصطبلها في خفاجة دونَ مساعدة من السّائق.

عـدْتُ أنا وغـوردون إلى المكتـب، حيث كان ذاهبـاً ليريني طريقتَه في المحاسـبة التي لاقَتْ استحسـاناً لدى الدائرة المالية في شيكاغو والتي كانت في الحاضر أحجيةً مسـتعصيةً هنا. كان غوردون مغـادراً في اليوم التالي، ولكنَّهُ جـاءَ إلى هنا ليناقشَ أولاً خطتَـهُ الفصليَّة من أجل البعثـة مع هانز. كان هو المدير الميداني في خُرسـاباد، والتي تقـعُ على بعد 200 ميلاً شـمالاً قرب الموصل؛ التي كانت جـزءاً من بعثة العراق. كان هـذا التنقيبُ الشـماليّ معنياً بشـكل كبير بفتـرة متأخرة، ومن أجل ذلـك كان غوردون يتابعُ الحفرَ في مدينة سَرغون الثاني الكبير والد سِنَّحْريب Sennacherib، مع قصورها ومعابدها إلى الشـرق تماماً من نينوى Nineveh. ولقد حكم هذا الملك من سـنة 722 إلى 705 ق. م، لأكثر من ألف سنة قبل سقوط إشنونّا. كانت راحيل قد أخبرتني أنه من يمكـن للبعـض منا الذهاب هناك فـي الربيع؛ وراحت تتكلم عن ذلـك بوَجْد[1] كما لو أنها كانت الجنة على الأرض.

(1) الوَجْد: الشوق والمعاناة في الحُب. (القاموس المحيط، ص 413).

فـي غضون ذلـك كان غوردون هنـا، يُطلعني بوقار على ماكينـة الجمع. لم أكن قد لاحظتُهـا من قبل تحتَ غطائها الأسـود في زاويـة المكتب المظلَمَة. سَـحبَ الغطاءُ، وهاهي قابعة بأسنانها المكشُوفة وكأنَّها تُزَمجرُ عليّ.

قـالَ وكأنَّه يعتـذر: «إنَّها معقـدة قليلاً، فقد صُمِّمْـت في الواقع من أجـل الرُّوبيات والأنّـات[1]، النقـود المتداولةُ هنـا قبل أن تصبحَ العـراقُ مملكة. ولكنَّهـا الآن عُدَّلت لتتعامـلَ مـع الدينـار والفلس. كل مـا عليـك أن تَذْكريه هـو أنْ تضَغطي هـذا المفتاحُ هنـا قبلَ سـحْب المقبَض الإضافي، وتتجاهلي الإشـارتين اللتين لا معنـىً لهما اللَّتين تظهـران فـي الجانـب الأيمن من العنـوان الفَرعي، ومـنْ بعد ذلك عليـك أن تَضْغطي علـى ذاك الزرّ هُناكَ قبلَ أنْ تَسـحَبي القَبضةَ النّهائيَّة. وإذا اسـتَطعْت ذلـك فَتَدَبَّري أمْرَ اسـتخْدامها بنجـاح»، قالَ ناظـراً إليَّ بريبَـة، وكأنَّه اعتَقدَ بـأنَّ الإنكليزَ ربَّمـا لا يزالونَ يقومون بالحسـابات بواسـطة أعـواد مثلَّمَة، «مـنَ المُمكـن أنْ تُوفّرَ عليـك الكثيرَ منَ الوقت، لأنَّ الحسابات هنا في الحقيقة، مُعَقَّدَة جداً».

حاولـت ألا أريَـهُ أنَّ كلماته قـدْ أصابتْني بالذُّعْر، وسـأَلتُ بشـجاعة ما هـو الدينارُ والفلْس.

يُسـعَّر الدينـارُ وفْقاً للجنيْه الإنكليزي، وهناك ألفُ فلـس في الديْنار ـ ولا توجدُ فيه تقسـيمات أخرى ممّا يجعله بسـيْطاً جـداً. ولكنَّنا بالطَبع نقْبضُ حَوالاتنا منْ شـيكاغو بالدولار، لذا يَتَطَلَّبُ أنْ تكونَ حسـاباتُ الصرافة قدْ عملَتْ ـ وسَـيقومُ البنكُ بإخْباركَ بذلـك، بالطَّبْـع.. غيرَ أنَّ هانز يقومُ بالدفْع منْ أجل عدَّة أشـياء أرْسـلتْ لـهُ من إنكلترا بالعملة الإنكليزيَّة، ولذا يَجدرُ بك الانْتباه لذلك أيضاً».

فكَّـرْتُ فجْأَةً بالمَكتب الصَّغيْر في ملجأ مسـتر أوماني Mr. Ommaney بين علب اَلقَفّازات الضَّخْمَة ـ ما هو الطَّائلُ ممّا أقْحَمْتُ نفسي فيه؟

(1) الروبيّة العملة السائدة في الهند، ظلت متداولة في العراق والخليج حتى ما قبل الحرب العالمية الثانية. والآنّة anna وحدة نقد قديمة في بورما والهند وپاكستان، تساوي 1/ 16 من الروبية.

«دعي جبرائيل يُعطيك حساباته كلَّ أسْبوع ـ وقدْ تَحَدَّثْتُ معَه بخصوص ذلك. هو لا يجيدُ الإمْلاءَ أو الكتابةَ أبداً، ولكنْ باسْتطاعته تذَكُّر كلّ جزء إذا احْتَجت أن تَسْأليه. كما يقومُ بأعْمال التَّسَوق الشَّخْصيَّة لكُلّ أفراد الهيْئَة، وفي كُلّ مَرَّة يذْهَبُ فيْها إلى بغداد يقومُ بالتَّسَوق للحاجات الشَّخْصيَّة لكُلّ الهَيْئة، لذا عليك الانْتباه أنَّك اسْتعَدْت النُّقُودَ منْ أعضاء الهَيئَة ـ ومن ثمَّ أعْطَيهم جَميعاً فواتيرَ مفَصَّلة كلَّ شَهر».

(آه! يا قرّة عيني مستر أوماني).

تابع غوردون بحَماس، حيثُ بدا أنَّها فكرته للمُزاح الحَقيقي: «لدَيَّ كتابُ جبرائيل هنا لأريك كيفَ تُصنّفينَه، لَقدْ فَعلت الشيءَ ذاتَه مع كتاب عيسى في خُرساباد». لقد كان صَبوراً جداً، وهَداتُ لسبب واحد، وهو أنَّ قيودَ جبرائيل كانتْ نعيماً صرفاً؛ إذ بينها كانت هناك رقعات لمواد بيْع صنّفَت بمَهارَة، مُختلفَة جداً عنْ خربشة[1] جبرائيل وأخطائه في التَّهْجئَة، وأخبرني غوردون بأنَّ هذه كانتْ قدْ كُتبت من قبل عمّ جبرائيل إسكندر في بغداد، الذي استطاعَ جبرائيل في بعض الأحيان أنْ يرشوَه ليقومَ بكتابة الحسابات لهُ عندما كانَ في بيته. وبنظرة عليها تُظهرُ بأنَّ جبرائيل قدْ عانى الكثيرَ عندما أنْجزَها بنفسه.

«27 نوفمبر 1 صندوق من الحلوى لرئيس مراقبي الشُرطة».

قال غوردون إنَّ جبرائيل كان قد تمكَّن من إخراج جهاز ديلكو Delco من الجمارك في ذلك التاريخ بسرعة غير اعتياديَّة.

29 نوفمبر 1 صندوق من حلوى التوفي لرئيس الشرطة.

قال غوردون بأنَّهُ كان هو اليوم الذي أخْرَجَ فيه جبرائيل المؤنَ القادمةَ من لندن برسُوم مُنخَفضَة على غير العادَة.

كانتْ تلك المداخلُ تحْملُ نكهَةَ اللَّيالي العَرَبيَّة، واسْتَمرَّت في مدينة هارون الرشيد، أسْلوب تسْهيل طرق الحياة الصَّعبَة بالفواكه المُجَفَّفَة. وفكّرْتُ بحسن الحلواني: «الآن سَوفَ أصْنَعُ حَلَوياتها، حلويات مدهشة، آه! إنَّني لمْ أصْنَعها في حَياتي منْ قبل أبَداً».

(1) خربشة: الكتابة غير الواضحة، خربش الكتاب: أفسده. (القاموس المحيط، ص 763).

شعَرْتُ بتردّد أخف عندَ نهاية الجَلسة، وتحتَ عين غوردون اليقظة، قرَّرْتُ أنْ أضَعَ مَبْلَغـا علـى الآلة فَخَرَجَ بالدينـار والفلْس؛ لكنّي بقيتُ مُتوتّرة لبعـض الوقْت بعدَ ذلكَ بسـبب تلكَ البدْعَة (الآلة الغريبة)، وشَـعَرْتُ أنَّني إذا ضَغَطْتُ يوما ما على زر بالخَطأ، يمكنْ أنْ يُضيءَ داخلَها وتعزفُ «وردةَ الصَّيف الأخيرَة».

غـادرَ غـوردون في اليـوم التّالي إلى خُرسـاباد، غوردون الدقيـق، الجّـديّ، المَنْهَجيّ، ترَكَنـي معَ عدة كُتُب حسـابات كبيرة بمَداخـلَ مزدوجَة، وعمْلات بثـلاث لُغات، وألَم في الرّاس طَفيف. كنّا نحْن الثَمانيَّة هُناك في تل أسمَر، مع هال في وضْع شاذ لكوننا الأمريكيين الوحيديـن في بعثة تنقيْب أمريكيَّـة. وكان هو وهام يعرفان بعضَهما من أيام جامعة هارڤارد Harvard ولا بُـّد أنَّـهُ تَمَنَّـى في بعض الأحيان لو أنَّه تمَّ اختيـارُهُ للتَّنقيب في خفاجة، حيثُ كان يسْـكُن هـام ومواطناه الآخرين. أما الآن فإنَّه سَـيراهُم مرَّةً واحدةً في الأسـبوع. أَعتقدُ أنَّ كلانا هو وأنا شَـعَرْنا بارتياب بسـيط في البداية حولَ إمكانيتنا التغلبُ على المُشْـكلات كمـا يجبُ في أعمالنـا الخاصَّة الجَديدة، لذا وجَدْنا عَزاءنا فـي صُحبتنا معاً في تنظيم يَعلَمُ الآخرون جميعُهم الكَثيرَ حولَه بعدَ عمَلهم فيه في فَصْلين سالفَين.

في وقت متأخّر من ذاك المساء عندما كان بعضُنا يجْلسُ على الدَّرَجات في الشَّمس مُقابلَ المنْزل، عادَ جبرائيل من بغداد مع شـاحنة حُمّلت بما يقاربُ العَشْـرَةَ أشْخاص. أصـدر صوتاً ميكانيكيـاً كالمعتاد كما عندمـا تجاوَزنا، واختفَى تحتَ البُـرج في الفَناء الخارجي، وابتسَـم الرّجالُ على مَتْن الشـاحنة وحَيّونا بحمـاس عندما مرُّوا قربنا. قال هانز: «أهل الشّـرقاط»، ثمَّ نَهَضَ هو وسِـتون وتَبعوهم إلى الفناء. سـألت ييتي: «أهل الشّرقاط؟» أجابت: «كالأقباط تماماً في مصر، قدموا الطريقَ كلَّه منْ الشّرقاط[1]، قرب

---

(1) الشرقاط بلدة عراقية (صارت في أيامنا مدينة) تقع شمال بيجي في محافظة صلاح الدّين، وتعدّ أكبر قضاء فيها بعد سامرّاء وتكريت وبيجي، ويمرّ نهر دجلة عبر قضاء الشّرقاط ويقسمها إلى نهرين (صوبين). ما يزال أصل التسمية مبهماً غير معروف، فالبعض يقول إنه يعود إلى الكلمة الآشوريّة (أشور كات) أي بوّابة آشور، بينما يرى آخرون أنه اسم آشوري (شيركاتا) يعني: مدينة الذئاب. ويبدو أن كلام ماري تشَب هو الأقرب إلى الصّواب، بأن المعنى في اللغة الآشوريّة: القرية.

الموصل. تعني الشّرقاط القرية في آشور ـ وقد بُنِيَتْ في الأعلى مقابلَ التلّ تماماً، وهي كلُّ ما تبقّى من مدينة آشور Assure القديمَة: سوفَ تُشاهديْنها عندما نَذْهبُ شمالاً. وهم خبراء في رفْع الأنْقاض عَنْ حَفر الآثار، مثلهم في ذلك مثلَ أهل قفط في مصر؛ وقدْ وُظّفوا بالطَّريقَة ذاتها في أعمال التَّنقيب في جَميع أرجاء العراق. وبالطَّبْع، فقَدْ نالُوا أجْراً أكثرَ بكثير منَ الأشْخاص المَحَلّيّينَ، فالقليلُ جداً منَ المَحليين يُسْمَحُ لهم أنْ يكونُوا مع مَجرَفتهم في أيّ مكان بالقرب من الجدار الحالي لمدينة قَديمَة».

عادَ الشّرقاطيّون عبرَ المَدخَل المُقَنْطَر سَيْرا على الأقْدام، وألقوا التحية على بيتي بلُطْف. وكانَ مَظْهرهم بكوفياتهم وأثْوابهم البَيْضاءَ النَّظيْفَة والسَّواد الفاحم فوقَ عباءاتهم أكثرَ روعَة منَ رجال البَدْو الشَّماليين الفُقَراء. لهم أحذية قوية وأحزمة ومحافظ جلديَّة. انْتَقَلُوا إلى ساحاتهم قُرْبَ الإصطبلات.

قالَ هانز: «سَنَبْدا الحَفْرَ غداً صَباحا».

لم يكن الشّرقاطيّون يعرفونَ القراءةَ والكتابةَ، ولكنَّ بعضاً منهم كانوا أذكياء جداً، وجميعهم أدهياء. أخبرني سِتون أنَّه أخَذَ ذاتَ مَرَّة كتيّباً حولَ مكان تَنقيب آخَرَ لمقارَنة البناء الذّي كانَ يدْرسه معَ مُخَطَّط كانَ فيه. هبَّتْ نَسْمَة فَجْأَةً فطارتْ إحْدَى الورقات، فقامَ شَخْص مسنّ من الشّرقاطيّين ليلْتَقطها. شاهَدَهُ سِتون يَدْرُسها بعنايَة وهو يُعيْدُها ببطء. كانَتْ مسودةً لمُخَطَّط المَنْسُوب الأرْضي للمَعْبَد؛ وبالنّسْبَة للْعَين التّي لا تَمْتَلكُ خبرَة، فإنَّ كلَّ مَعْبَد في سومر القَديْمَة يُشْبهُ الآخَر.

أخبر الشّرقاطي سِتون: «أنا أعرفُ هذا البناء، فقد عملت فيه مع المدير كييرا[1] Mudir Chiera قرب كركوك عندما كنت غلاماً هنا، في هذه الغرفة، وأذكر هذه

(1) يقصد إدوارد كييرا (1885–1933) Edward Chiera عالم آثار أميركي من أصل إيطالي، كان عالماً بالآثار الآشوريّة وباحثاً في الأديان واللسانيّات. درّس عام 1924–1935 في المدرسة الأميركيّة للأبحاث الشرقيّة American School of Oriental Research وكان في الوقت ذات يجري حفريات في موقع نوزي الأثري بالقرب من كركوك، بدعوة من غرترود بِل Gertrude Bell (الستّ خاتون الشهيرة)، وكان لاكتشافه رُقُم نوزي وفكّه لرموزها أهميّة علميّة كبيرة.

المشـكاةَ فـي الأعلـى هنا، والدّعامـةَ هنا». لقد كان علـى حق تماماً ـ لقـد كان المعبدُ نفسُه؛ وعلى الرغم من أنَّ ذلك كان قبل سنة، فلم يكن بحاجة ليعرفَ أكثرَ من جدران وزوايـا محددة كان عليه تتبعها، ولكنه لم يحفظ المخططَ الكاملَ للجدران وحسـب، بل واسـتطاعَ تمييزَها بعد سـنين على شكل نسخة مطبوعة على الورق، وهو شكل غيرُ مألوف بالنسبة له.

أمـا الدّهـاء... فإننـا ندفع لهـم كلَّ فصل ما يكفـي للرحلة إلى ومن الشّـرقاط، كان بعض منها بالقطار؛ لسـكة امتدَّتْ حينذاك لمسـافة حوالي 150 كيلومتراً فقط شـمالي بغـداد. لم يتحدث حتى دفعت لهم للمرَّة الأخيـرة عندما كانَ الحفرُ يتوقفُ في 1937 وجاء جبرائيل نظيفاً بلا نقود. أعتقد أنه لم يجرؤ أن يخبرَنا من قبل.

«هل تعتقدين يا آنسة أنهم أهدروا تلكَ الأموال على بطاقات القطار؟ الشّرقاطيّون؟ لا ليسوا هم من يضيعون نقودهم على البطاقات. لقد كانوا يختبؤون في حظيرة مواشٍ فـي آخـر المحطة في بغـداد. ثم حينما بدأ القطار بالتحرك ببطء شـديد، و... بسـرعةٍ! وقبـل أن يتمكـنَ قائُـد المَحطَّة مـن إيقافهم كانوا يركضون بسـرعة ويقفـزون في آخر عربـة». لقـد كانت صورةً لطيفةً؛ قهقهة الشّـرقاطيّين الذين مكثوا خلف سـياج حظيرة مواشـيهم ـ ومن ثم هجموا هجوماً عاصفاً، وتدافعـوا داخلَ عربة النقل، وهم يرفعون أطـرافَ ثيابهم بينما كان ناظرُ المحطَّة المدني الضئيل يقفز من الرصيف وإليه ويصرخ مهتاجاً ويدعو اللهَ أن يصبَّ فوقَ رؤوسـهم الوقحة لعناته وغضبه. هؤلاء هم نفسـهم الشـرقاطيّون الذين اسـتلموا جوازات مرورهـم قبل قليل بامتنان ودماثـة[1]، وعيونُهم تنظـر إلـى الأرض وهم ينحنون عنـد الخروج. أما الآن فهم يتدرّجـون خارجاً بابتهاج وهـم ذاهبون إلى بلدهم في الشـمال على شـاحنة نقل البضائع وهم يهرشـون لحاهم ساخرين من المسؤول الخائب.

بدأ الحفر في السـابعة من صباح اليوم التّالي؛ وعند التاسـعة نزلَ سِتون من التل من

(1) دماثة: سهولة الخُلُق. (القاموس المحيط، ص 217).

أجـل الإفطار، وقال على الرغم من أنه يرتدي أربع كنزات[1] صوفيَّة فإنَّ الرّياحَ الباردةَ تكادُ تقطعه نصفين، وهذا ما جعل الأولاد ذوي القفاف يبكون إلى أن ارتفعت الشَّمسُ تماماً، لأنَّ الأرضَ كانت باردةً جداً تحت أقدامهم الحافية. وقال هانز إنه من الأفضل البدءُ بالعمل بعد ساعة عن ذلك؛ فقد قدمَ بردُ الشّتاء مبكراً.

أخـذتُ يـون Jon للسـير في فترة بعد الظهـر إلى موقع الحفر بينمـا ذهبت ييتي إلى غرفتها لتقرأ. كان معظمُ وقتها مشغولاً بالعناية بالصبيّ الصَّغير، وبإدارة المنزل وترتيب المخـازن (بغض الطرف عن موظفي المطبخ الصعبيـن أيضاً فقد كانوا ميّالين للاتفاق ضـدّ الطباخ الآشـوري، وهو رجل مسـنّ عصبيّ كان يخشـى أن تكونَ نهايتُه كشـهيد مسيحي في كلّ مرَّة كان يدير ظهره فيها لهم عند تقديم الحساء). قامت ييتي بذلك كله بشكل فعّال؛ لأنها كانتْ متعددةَ المواهب، مستعدةً لأنْ تجَرّبَ أيَّ شيء عمَليّ عندما ترغب في ذلك. ومنْ وجهة نظَرها فإنَّ نَزعتها العملية كانت سوءَ حظ لها؛ لأنَّ رغبتَها كلَّها كانت نحو عالَم الفكر؛ فالحَياةُ في معسـكر كان صراعاً مستمراً لإنجاز المَهَمّات الضَّروريَّـَة كي تجدَ الوقتَ لاهتمامها الأساسـي. عندما يكون الأشـخاصُ المفكرون غير عمليين بشـكل بائس فإنه باستطاعتهم اعتبار أنفسـهم محظوظين، بمعنى أنَّهم لنْ يُكلَّفـوا بأيّة مَهَمّات عمليَّة. فهـم يمْتلكُونَ كلَّ الوقت في العالَم للجلوس والتفكير في أسباب ذلك كلّه، بينما يكون زملاؤهم الأرضيون مشغولين بمتابعة طريقة التَّنفيذ.

ولكـنْ ييتي اسـتطاعَتْ القيامَ بعمل بـارع على نحو لا يُصدَّقُ فـي موقع الحَفْر، في إنقاذ وترميم اللُّقى الهشة، وكُنْتُ قد رأيت سابقاً بعضاً من إنجازاتها في مُتحَف القاهرة فـي قسْـم العَمارنـة؛ فقد اسْـتطاعتْ أنْ تَتغلَّبَ على أيَّـة حادثة غيـر مُتوقَّعَة ظهرت في الموقع خارجةً عن الروتين المعتاد، سـواء كان اجتياحاً مفاجئاً لعزلتنا من زوار أو فرع جديـد للبعثة يجبْ تنظيمه، أو مرة عامل بيد مكسـورة، حيثُ ارتجلتْ له بخبرة جبيرةً إلى أن أتيحَ له الذهابُ إلى المشـفى. كان أعجوبةً صغيرةً كيف استطاعتْ إيجادَ وقت للدراسة.

---

(1) كنزات: سترات من الصوف.

كان هانز متعاطفاً معها بشدَّة في تلك المشكلة؛ وبالنسبة له أيضاً تأتي الأمورُ الفكرية أولاً؛ وبفضل قراءتها الواسعة وتفكيرها العَميق فقَدْ أعْطَتْهُ في الحال مُحَفّزاً وأَرضيَّةَ اختبار لإلهامه، عندما يشعل البرهانُ في حقل العمل عقْلَهُ الوقّاد بالأفكار الجَديدة حولَ الحَضارَة القَديمَة، سَواءٌ هنا أو في أيّ مكان في الشرق الأدنى حيث كان شغلُه الشاغل أفكار جديدة عن فنون هذا الشرق وفكره ودينه. ومثل الحداد أحضرَ لها تلكَ الأفكار مسبوكةً وحارةً إلى سندان محاكمتها البارد، وهناك بين مطرقة وسندان، يطير متلألئاً، الشيءُ الجديدُ المبْتَكَرُ ويَتَجَسَّدُ شكلاً مصنوعاً بإتقان دائماً، وبقيمة عالية، ثمُّ بعد ذلك ليأخذَ شكلاً خارجياً في كتاب جديد قد يكون حدثاً في عالم علم الآثار.

كانا محورين مزاجيين متناقضين، ظهرا لي من أقوى الشخصيات التي عرفتُها في حياتي تميزاً، ومتناغمين بشكل تام في الوقت ذاته لدرجَة أنَّه لا يمكنُ لأحد أنْ يُفَكّرَ بأحدهما دون الآخر.

وأثناء وجودي هنا عندما كنت أتمشى يداً بيد مع ابنهما إلى موقع التنقيب ونحن نتكلم بسعادة حول هذا وذاك. وكالأطفال الصغار المتألقين دون عبارات كافية في الذهن لتشرحَ أفكارَهم المتزاحمة، كانت لديه الآن فأفأة[1] بسيطة. ولدى وصولنا لأول منحدر من التلّ توقف كلٌّ منَ العُمّال والأولاد حاملي السلال عن عملهم ليحدقوا به باهتمام شديد وابتهاج.

«الولد ـ ابن المدير. تبارك الله! الله العظيم». ولو كان فتىً صغيراً ما نظروا إليه نظرةً واحدة.

كنا قريبين من قسم التنقيب حيث يقع القصر، كان الرملُ يرتفع تحت مستوى الأرض تحتها بعمق كبير. وعلى أعلى نقطة من التل، كانت هناك كومةُ نمل أخرى نشيطة، ركضَت أشكال هم الأولاد حاملو السلال جيئةً وذهاباً هناك مقابل الأفق. علمت أن جايك كان هناك فوق، وقد أدخل هال في عمله الجديد، وذهبا ليحللا معاً

---

(1) فأفأ: ردّد الفاء وأكثر منه في كلامه. (القاموس المحيط، ص 60).

المنطقة حيث بُنيت جميعُ بيوت إشنونّا الخاصة، شمالي القصر.

لاحظتُ في الحال أنَّ الموقع لم يكنْ مكاناً مناسباً ليون Jon في يوم عاصف. كان الغبار الخانق يتطاير في كلّ مكان، وبالطبع كان المكانُ منقّباً ومحفوراً بشكل خطير. أعتقد أنَّهُ يمكنُ أن يكونَ قد شَعرَ بخيبة عندما قلت بأنَّنا لنْ نَذهَبَ إلى مسافة أبعد. ولكن يون سوّى الأمورَ بجلوسه على الرّمال الصَّخريَّة، وظهرُه إلى موقع التنقيب، وبدأَ بغناء أغنية هولَّنديَّة قصيرة. ثم وجدَ خنفساءَ كبيرةً تمشي قربَه، وقد أسعدته، فهو مفتون بجميع الحيوانات.

سألته: «يون هل من الممكن أن تكونَ على ما يرام لدقيقة، أريدُ فقط الذهابَ وإلقاءَ نظرة على الحُفرَة؟».

قال مبتسماً: «اذهبي» ثم أضاف ببطء كما لو أنَّه كان متأكداً من أنه سيلفظُ الكلمةَ الجديدةَ الباهرة بشَكل صَحيح تماماً، «وفي غضون ذلك سأبقى هنا وألعب مع خنفساي السوداءَ الكبيرة».

ذهبْتُ في الطَّريق الضيّق ووصلتُ إلى حافة الحفرة، ونظرتُ إلى الأسفل، كانت على عمق عشرين قدماً تماماً من هنا. شاهدْتُ تشابكَ جدران سميكة تمْتدُّ على كلّ الزَّوايا، وأودية مُنحَدرَة ضَيّقة، وأنفاقاً في الأنقاض لا معنى لها، وطرقاً ملتويَة؛ وفي مكان واحد سلسلة من خمس درجات بيضاء لا تؤدي إلى أيّ مكان، أقيمت عالية وجافة على منصة من آجر طيني؛ حيث تتلوى بالوعة[1] فخّاريَّة حول زاوية. لقد كانَتْ فوضَى مذهلةً لقبح قاتم.

كان الأولادُ يحملون السّلال ويدرجون بخُطُوات سريعة أعلى وأسفل منحدر مرهق، كانوا يسرعون وهم ينحدرون بسلال فارغة تتأرجحُ، ويبطؤون عندما يصعدون محمّلين؛ لينعطفوا بعيداً باتجاه مستودع الأنقاض الموضوع في الأرض على دواليب

(1) بالوعة: بئر تحفر ضيقة الرأس، يجري فيها ماء المطر ونحوه. كما تطلق على ميزاب تصريف المياه الآسنة (القاموس المحيط، ص 910).

تـدور على سـكَّة حديدية ضيقة بعيداً عن موقع الحفر. تعقّبْـتُ حولَ حافة الحُفْرة إلى أن اسْـتطعتُ رؤيـةَ أين وصل العمل الأساسـي؛ كان سِـتون في الأسـفل هناك يراقب الشَّـرقاطيِّين ينقرون على طول قاعدة جدار بمعاولهم الصغيرة. كانَ العُمّالُ المحليون يجْرفونَ الأنْقاضَ إلى السلال برشاقة. وطابورُ الأولاد يرسم متاهة متشابكة بدخولهم وخروجهـم في المَمـرّات المجنونَة. نَظر سِـتون حولَه وقدم عبْـرَ المتاهة نحوي، قال رافعاً بصرَه، مظللاً عينَه من الشمس: «تعالَي وانظري إليها عن كَثَب».

أجبتُ: «لا أستطيعُ الآن، فمعي يون Jon في الأعلى هنا. لقَد أتيتُ لتوّي للنظر هذه المرة. لا أسـتطيعُ فهْمَ رأسـها من ذيلها، فلم أرَ أيةَ آجرة مميَّزَة في أيّ مكان. إنها تبدو كما لو أنَّكَ تقطَعُ أشْكالاً منَ الطّين القاسي».

ابتسمَ وقالَ: «لَقَدْ حَذَّرْتُك. ستعتادين على ذلك».

«مـا هذا الجزء من البناء يا سِـتون؟ يبدو عن كثب أنَّهُ غيـرُ مرتَّب ترتيباً جيداً لا كما يبدُو في الصُّورَة الجَويَّة».

«كنـتُ أقفُ فـي القاعة الأساسـيَّة لقصْر حاكم إشـنونّا ـ ولكننا كنّا نُتابـعُ الآنَ فيما نَعتقـدُ أنَّهُ يمكـنُ أنْ يكُونَ مَعبداً هناك باتّجاه الشـرق؛ أنهينا هذا البنـاءَ العامَ الماضي. يمكنكَ مشاهدةَ أطلال سَبعة قُصور من مكان وقوفك».

حدَّقْتُ وأنا أكاد لا أصدق عبرَ زاوية جرفي الصغير نحو الأسـفل إلى واجهة جدار يَمتَدُّ على زوايا يمينيَّة من الجرف على بُعد بضعة أقدام، حيث كان يُشير.

«هل بإمكانك مشاهدةُ تلكَ الطبقة الرَّقيقَة من القرميد يميناً على القمة، على مستوى الأرض؟».

قلت حذرة: نعم أستطيع.

قال سِتون: «كساها إبق أدَد الثاني، قبلَ حَمورابي ـ حوالي 1800 ق. م. وهذا الخَطُّ من الآجر في الأسفل يعودُ لزمن والده إبالپل Ibalpel. ثم هذا الامتداد لجدار أدنى منه متجهاً نحو أسفل إلى مستوى الأرْض الثّاني هناك».

كُنْتُ قادرَةً على تمييز الآجر الرقيق الذي كان قد أراني إياه؛ ولَكنَّني الآنَ ضائعة لا أستطيعُ رؤيةَ شيء سوى جدار أبيضَ في الأسفل.

سـألته: «كيـف بإمكانـك معرفة أنَّ ذاك هو مسـتوى الأرض هناك؟ لا يوجد شـيء يثبتُ ذلك؟».

كان هانز قد دارَ حولَ زاوية في الأسْفل، وكانَ واقفاً قُربَ سِتون. يضعُ نظّارَةً شَمسيَّةً كي تحمي عينَيه منَ الغُبار المُتَطاير، مرتدياً معْطَفاً عسْكَريّا هولندياً لونه أخضر داكن.

صاح: «لا يوجد ما يثبته يا امرأة، انظري إلى ذاك ـ ماذا تتوقعين أن يكون؟».

رفع عصاه ولمسَ شـيئاً ما بارزاً من الحائط فوقَ رأسـه تماماً. برزتْ حافة حادة من حجارة رصيف أبيضَ مستو لمسافة إنش تقريباً من الحائط؛ بدا الجدار فوقه وكأنه حُفرَ إلى الوراء في تَجويْف طَفيف.

قـال: «ذاك جزء من عتبة باب البناء، مع مشـكاة فوقـه. جميل، وهو يعود دون ريب تقريبـاً إلـى دادوشـا Dadusha. وهنا حيـث دخلت نهايـةُ العصا ثلاثَة أقـدام أو أكثر، وتحركت على طول خطّ واضح من حجارة الرَّصيف.

قلت له: «لا تخبرني، دعْني أُحاولُ وأُظنُّ. إنَّهُ سَطْحُ الأَرض».

قال هانز بحزن: «إنها تهزأُ بنا».

ولكنـي كنْـتُ قَـدْ بَـدأتُ أرَى. لقَدْ كانَتْ شَـديدةَ التَّعقيـد، وجميلةً جداً. تحسـس سِـتون طريقَه إلى الأسـفل من خلال طن إثرَ طن لجدران من الآجر الطينيّ (الطابوق) المرصُوص بقَسْوَة، والأَنْقاض المُنْهارَة أعمق فأعمق، دون أنْ يَخسرَ شيئاً أساسياً أثناءَ ذهابـه؛ وتَمَّ تمييزُ الدليل لزمَن كلّ بناء بشَـكْل دَقيق وتَـركَ ذاكَ الدليْلَ معلَّقا دونَ أدْنى أذَى منْ مَجرفة أو معْوَل، إنَّه دليل غيرُ ملْحُوظ كما يوجدُ في روايَة بُوليسيَّة ضَخمَة.

لقد كانَ كشْـفاً بالنسْـبَة لي، أنا التّي رأيتُ حتَّى الآنَ مُجَرَّدَ زمن مدينَة بسـيط نسـبيّ واحد في تل العمارنة.

ذلك يُبيّنُ بوضوح كيفَ يؤدّي حَفْرُ البَعض بلا رَحْمَة منْ أَجْل غَنيمَة ماديّة أَنْ يَهدمَ بضَرْبَة واحدَة غير مُباليَة كُلَّ برهان باق لبناء قَديم.

تابَعَ هانز: «ذاك الرَّصيفُ يعود على الأَرْجَح إلى مبنى أورنِنمار Urninmar، وانظري إلى هذه». أسفلُ الخطّ الواضح الحادّ لحجارَة الرَّصْف التّي استَطَعْتُ تحْديدَ مكانها والجصَّ على الجدار قدْ اسوَدَّت في رقع، «ماذا تستنتجين منْ ذلكَ؟» قلتُ: «لا شئ». ثم عاوَدْتُ التفكيرَ وغامَرْتُ بقول: «هَلْ يُمْكنُ أنْ يكونَ بسبب النار؟» أجاب: «ليسَ ممكناً بل هذا ما حصلَ، وذلك سبب كاف يجعلْنا واثقينَ بأنَّ تلكَ الأرْض المُنْخَفضَة كانَتْ هي أرضيّة بيلالاما Bilalama. وبالطَّبْع فإنَّ هذا يعْني وجود أرضيّة كيركيري Kirikiri هناك أسفَل منها». وأشارَ إلى عَتَبة باب أخرى مرئية بوضوح، بالقُرب من أسفل الجدار.

تَفَحَّصْت مَليّاً تلكَ العَلامَةَ، ولَمْ أستنتجْ أيَّ شيء منها ذاك الوقت. لَقَدْ أحْبَبْتُ عبارَةَ «طبعاً». وبدا لي أنَّها كانَتْ لَحظةً مناسبةً لأخذ يون إلى المَنزل لشُرب الشّاي، وهذا ما قُلتُه، ضَحكَا ثمَّ عادا عبْرَ مَتاهة تلة الرّكام باتجاه البناء الآخَر.

قال يون عندَما اقْتَرَبْتُ منْهُ: «ستأتي خنفساي معي للزيارة، وهذه هي». وكانت يداه قد كُوّرتا بعناية حولَ صديقه الجديد. بدأنا نمشي الهوينى عائدين إلى المنزل تحتَ أشعة شمس بعد الظهيرة الدافئة. «ماذا عليَّ أنْ أسميَه؟».

قلُتُ: «أعتقدُ أنَّ كيركيري اسم لطيف»، وأنا أفكر كم كانَ لطيفاً أن تحظى بمحادثة مريحة داخلَ أعماق شخص ما. قال يون: «نعم، كيري ـ ك ـ كيري kiri_k_Kiri. إنه اسم لطيف جداً».

* * *



جيك وِستون يكشفان الحجر المحوري في الموقع

وصلـتْ بعضُ الأشـياء من الموقـع في تلكَ اللَّيلـة الأولى؛ ذهبْتُ وجَلَسْـتُ قُرْبَ راحيل في غرفَة الآثار القَديمَة الطَّويلة بيْنَما كانَتْ تسجلها؛ لأرى كيفَ تمَّ صنعُها. كان هانز قد قال إننا على الأغلب سنحتاجُ إلى شخصين هناك؛ لأنَّ الموقعَ كان في تحويل كامل. كانَ لديها سـجلّ ضخْم كُتبَ بنسـخَتين بالكربون، كانَ أشبَهَ بدفتر فواتير، ثُقبتْ أعلى الصفحة من حافتها ليكون بالإمْكان انتزاعها. لقد كانت فكرةً عمليَّةً، لأنَّها تَعني أنَّ الكتـابَ الثقيلَ الكبيرَ يمكن أنْ يُتركَ هنا في الصيف، وتؤخذَ الصفحاتُ العليا فقط إلى لندن لأَعمال النشر هناك.

كانت راحيل تُدخل شكلاً طينياً صغيراً لشخص بقبعة مدببة وبكرات مسطحة طينيَّة في عينيه. وكان يحمل حيواناً صغيراً في يدَيه.

قالـت وهي ترسـمُ مخططاً سـريعاً: «من الممكـن أنَّه إله، أو عابـد» إلى أن وصلت إلى زوج مسـماك[1] صغير. وهمسـت: «أبعاده 1.3 سـم في 3.6 سـم». ثمَّ نظَرْتُ إلى الصندوق الذي نُقلَ فيه المجسّم من الموقع إلى هنا، كَتب سِتون على الغطاء.

«الرقم 30–O 17 ـ ذاك فَناءُ بناء سِـتون»، قالت: «طبعاً 30–O هو المربع، فالموقعُ قـدْ غُطّيَ بنظام شـبكة مؤلفة مـن أحرف في اتجاه وأرقام في الاتجاه الآخر، والسـاحة كانت هي الغرفة رقم 17 الفارغة في المربع.

«هـل تريديـن أن تضعي بطاقةً علـى التّمْثال الصَّغيـر؟ على أَنَّـهُ As. 32 /I؛ أي أنه الشيءُ الأول الذي وُجد في تل أسمَر، موسم 1932».

صَنَعْتُ بطاقةً وربطْتُها حولَ عنقه.

كانت راحيل تتمتعُ بأسـلوب مريح، كنت قد اكتشفتُه، في الاستماع والإجابة عن أسئلة أوليَّة دونَ أنْ تجعلَ المرءَ يشعُرُ بجهله. بدت تلك لحظة جيدة لاكتشاف بعض الأشْياء.

---

(1) المسماك: مقياس دقيق للأقطار والسّماكات يسمّى في الإنكليزية: caliper وفي الفرنسية: pied à coulisse وانتقلت هذه العبارة إلى العاميّة في بلاد الشام: بياكوليس. وقد يسمّى في العربيّة أيضاً: القدمة ذات الورنيّة.

بـدأتُ بقياس الحيوانـات الصَّغيرَة من أجلهـا، ثم قلت: «راحيل، أبعـاده تبلغ 3.2 فـي 3 بالمناسـبة) كيفَ يمكن لهانز أن يقول: هنا إشـاراتُ نـار؛ لذا من الممكن وجود بيلالاما أسـفلَ ذاك، وكيركيري أسـفلَ ذاك؟ كيف علمَ بأسماء الأشخاص دون وجود أيّ نقش؟ ـ وما علاقةُ النّار بذلك؟».

قالـت: «أتاحت النُّصُوص موجـزاً لمقدار كبير من التاريخ، وحيـث حُفرت الأبْنيَّةُ الحقيقيَّـةُ حـاول أن يربـطَ بينَ ما يجدُه بمـا كان يعلمـه؛ ليَحصلَ بينَ الفَينَـة والأخْرَى علـى برهان صَريح أنَّهُ علـى الطريق الصحيح عند عثوره على ألواح آجرّ عليها كتابات منقوشَة أو بعضُ نقوش أخرى لبعض الأصناف.

كانـت بعضُ البَقايا مُربكَةً جداً، إذ أنَّ الأسـماءَ التّي أُعطيتْ للمسـتويات المختلفة كانـتْ تجريبيَّةً بشـكل كامل؛ تعودُ إلى نوع منَ ضربـة متفائلة لرجل ضَرير ـ «يجبْ أنْ يكونَ هذا بناء دادوشـا Dadusha؛ لأنَّنا علمنا بأنَّ الذي في الأعلى هو إبالپِل Ibalpel بسـبب الآجرّ ذي النقـوش الكتابيّة، ونعلمُ من النُّصُوص أنَّ دادوشـا كان والد إبالپِل ـ وهكذا».

قلت: «نعم، فهمت» وأنا أرفعُ حليةً طويلةً جميلةَ الشكل، بلون أسمرَ مصفَّر مقابلَ المصْباح الذي تدلَّى فوق المنصة، أضاءت الحليةَ وظهر لونُها الأحمرُ الداكن.

قالت راحيل: «هذا عقيق أحمر ـ أليس جميلاً؟».

أجبت، وأنا ألتقطها: «جميل، وماذا عن تلك النار؟».

ضحكـت. «جيد، لنبـدأ أبكرَ قليـلاً. تعلمين أنَّ إشـنونّا كانت مدينـةً تابعةً للحاكم المطلق لأور في السـلالة الحاكمة الثالثة. ولكن أور كانت قد سـقطَتْ في النهاية على أيـدي العيلاميـين Elamites، تقريباً حوالي 2000 ق. م. وكان آخرُ ملك لأور إبِسـين Ibisin، وقبله كان غِملسين Gimilsin، وكلاهما تمَّ الاعترافُ بهما كحاكمَين مطلقين مـن الحُـكاَّم المحليين المعاصريـن هنا، وهما: إلوشـويلياIlushuilia وأبـوه إيتوريا. ولكنَّ المثيرَ هنا هو أنه بعدَ سـقوط أور مباشـرةً اكتَسَـبَ الحاكمُ هنا اسـماً بدا كما لو

أنَّ الحاكَم نفسَه جاء من مرتفعات عيلام ـ كيركيري. ومنَ الممكن أنْ تكون إشنونّا تمَرَّدَت على أور وساعدَتْ العيلاميين على القضاء عليها، على أمل الاستقلال في المستقبل؛ ولكنَّها لمْ تَنلْ أفضلَ منْ حاكم مطلق أجنبيّ تعويضاً لمعاناتها. أو بالطبع من الممكن أن تكون إشنونّا تلك موالية بشكل كامل لأور، وأخذَتْ تُقاتلُ الكيركيريين الذين كانوا من العيلاميين المنتصرين، قاتلتهم من أجل السبب نفسه، فكانت إشنونّا حصّتهم من الغنائم، ونحن نعلمُ أنَّ الابنَ بيلالاما قد حكمَ هنا أيضاً؛ وبعدَ ذلكَ تجدّدُ الصراعُ السّومريُّ لطرد العيلاميين، وفي سياق هذا القتال كان معظم إشنونّا قد هُدم».

سألت: «بالنار؟».

قالت: «نعم، توجد هنا إشارات لها تمتدُّ عبْرَ القصر تماماً؛ ولابدَّ أنَّ حريقاً هائلاً قد أضرم، هدفُه محوُ المكان برمته من الوجود. وناسبَ الحفرة تماماً المكان الذي تتوقعينَهُ في النُّصُوص؛ لأنَّ مستوى البناء فوقَ آثار الحُروق تقارب غالباً زمنَ حكم أورنِنمار Urninmar والمعروف عنه أنه حكم مباشرةً بعد تحرير إشنونّا من حكم الدولة العيلاميّة.

فكَّرتُ بالجدار المليء بآثار الدُّخان الذي نظرتُ إليه في البداية نظرةَ جهل، وإلى الخَطّ النظيف لحجارة الرَّصيف فوقه، وإلى جميع تلك الكسر الهشة الأخرى من الشاهد الذي يرتفعُ فوقَه حتَّى يصلَ إلى مستوى الأرض الحالي.

سألتُ: «وهل كان هؤلاء الحكامُ المتأخرون مستقلين بعد الحريق؟».

قالت: «نعم، فقد سقطت أور، وانسحب العيلاميّون؛ وتابعت إشنونّا حوالي مئتي سنة دولةً مدنيَّةً مسْتَقلَّةً حتى قدوم حمورابي؛ ولكنه وضعَ نهايةً لحكايتها، حسب ما نعلم».

وضعنا الأشياءَ القليلةَ الأولى على الرفوف، وأغلقَتْ راحيل كتابَها ثم اتجهنا نحو الباب، وأطفأنا المصباحَ، سألتُ راحيل: «لمَنْ كانَ ذلك البناءُ المرفَقُ بالقصر الذي اعتقدوا أنه يمكن أن يكون معبداً، هل ثمّة أدلة ما؟».

«كان لبعض المُلوك يدٌ فيه، ولكن يبدو أنه بدأ قبل القصر الأقدم، ومن ثمَّ تخَلَوا عن القصر لسَبَب ما ـ ومازال في مرحلة مجهولة تفتقر لأيّ دليل ثابت ككتابات منقوشة على ألواح الآجرّ مثلاً، ربما لنْ نعْرفَ مَنْ بناها أبداً».

حاولْتُ لدى عودتي إلى غرفتي أن أصنفَها. فقد كانت تقضُّ مَضجَعي وتسحرني في الوقت نفسه. فقد قالت راحيل: «ربما علينا ألاَّ نعلمَ أبداً مَنْ بناها». وكنتُ قد نسيتُ ذعري لدى رؤية التشابك القبيح للحفر، ببساطة لأن راحيل وهانز وبينهما سِتون كانوا قد أعطوني أولَ لمحَة للتعمُّق في معناها وفي الأساليب الخادعة التي بواسطتها استعمل علماءُ الآثار مدخلَين مختلفَين جداً هما: الوثائق المكتوبة، والعمل في حقول التنقيب لحلّ المشكلة ذاتها.

يعطي عمل جايك نقط بداية لستون، ومن ثمَّ يملأ عملَ سِتون فراغَ الهيكل العام للنصوص بموجودات ماديَّة. علمْتُ لاحقاً كيفَ أنَّ التشابُكَ الغُباريَّ في تل أسَمر يمكن أن يُظهر، ليسَ الكثير من تاريخه القديم فحسب، وليس فقط للأكثر من تاريخ سومر ككل، بل وحتى معرفة جديدة لصورة أكبرَ للعالم القديم خلفهما. وفيما لو كنا نحفر لنؤكدَ ببساطة أكثرَ قليلاً من حقائقَ ضئيلة معروفة من قبل عن إشنونّا، فإنَّ النتائجَ ستسَّوغُ المَشروعَ الضخمَ والنفقة بصعوبة.

تحتاجُ تلك النُقطةُ إلى التوضيح: لأنَّ بعضَ النّاس الذينَ يجهلونَ الأهدافَ الحقيقيَّةَ لعلم الآثار أو يعرفونَ القليلَ عنها، يلاحظ المرءُ أنهم ينتقدون الجهودَ والأموالَ التي تبذلُ فيه ويتساءلون: «يا عزيزي لماذا لا تُمنح تلكَ الأموالُ للمستشفيات، وهي تفوقه أهميةً بكثير؟» ويكونون قد ضُللوا بالتفكير أنَّ كلَّ تنقيب يشكلّ وحدةً مستقلةً يمكنُ أنْ تفيدَ منَقباً مُتعصّباً على الموقع وحده دون أن ترتبطَ بعصر آخرَ أو مكان آخر.

إن عالمَ الآثار الجَيّد لا يَحفرُ أبداً أيَّ مكان مستقل كوحدة منعزلة. فوجْتُ نفسي أتخَيَّلُ بأنَّ رجلَ اليوم يجدُ ويحفرُ مدينةَ سومريّة قديمة قد يشبه رجل المستقبل بعد 5000 عاماً من الآن. وهو يرغبُ بإلحاح أنْ يَعرفَ أقصى ما يمكنه على سبيل المثال عن التاريخ الطويل لمدنيّة قديمة تُدعَى إنكلترا، وحول اتّصالاتها المحتملة معَ الأمَم

الأخرى؛ ويمكنُ أنْ يكونَ هذا الشـخصُ قد حالَفَهُ الحَظُّ في حلّ شفرة لقائمة الملوك الهانوڤرييـن، فيحصلُ على دليل لأماكن وجـود عائلة ويندزور[1] Windsor. وبالحَفر أسـفلَ تلكَ الرّابيَة الضخمة سيعرف أكثرَ عنْ قصة الأشْخاص الملكيين أنفسهم الذين حكمـوا هناك وعن أبنيتهم، وربما سـيجدُ أجزاءً وثائقيةً تُثبـتُ روابطَ قديمةً مع أرض بعيـدة تُدعى الهند؛ ربمـا تُظهرُ نصوص أقدم أنَّ سـكانَ المستَعمرات البَعيدَة ما وراءَ البحـار إلـى الغَرْب يقاتلُـونَ منْ أجْل اسـتقلالهم. وأقدم مـن ذلك أيضـاً يعرفونَ عنْ حاكـم آخَـرَ يَصْعُبُ تمييزُه بسَـبَب الملوك الأرْبَعَة الأوائل الذينَ حمَلُوا الاسْـمَ نفسَـه ـ الذيـن هدَّدَهُم منَ المُرْتَفَعات Highlands الشَّـماليَّة شـاب مـدَّع من الأقارب، يتجه جنوبـاً في محاولة للاسـتيلاء على العـرْش. ومنْ ثمَّ فإنَّ رجُلُ المُسْـتقبَل ذاك، يخترقُ أيضاً لمستَويات أعْمَقَ من الرّابيَّة، وربما يَجدُ آثاراً لسُلالات حاكمة أقدم لم يكن لديه شك في وجودها، بأسْماء غريبة: ستوارت وتودُر[2] Stuart and Tudor، وپلانتاجينيه ونورمان[3] Plantagenet and Norman ـ آثاراً ربما تسَجّلُ تاريخَهم الطَّويلَ الضائع، وتصـلُ بعيـداً خَلفَ حصُونهم القديمة إلى رجل يعلم كيف يفسّـرها، ويريدُ فوق ذلكَ كله أن يعيدَ تجميعَ العُصُور القَديْمَة للعالَم الذي يقطنه اليومَ بنفسه.

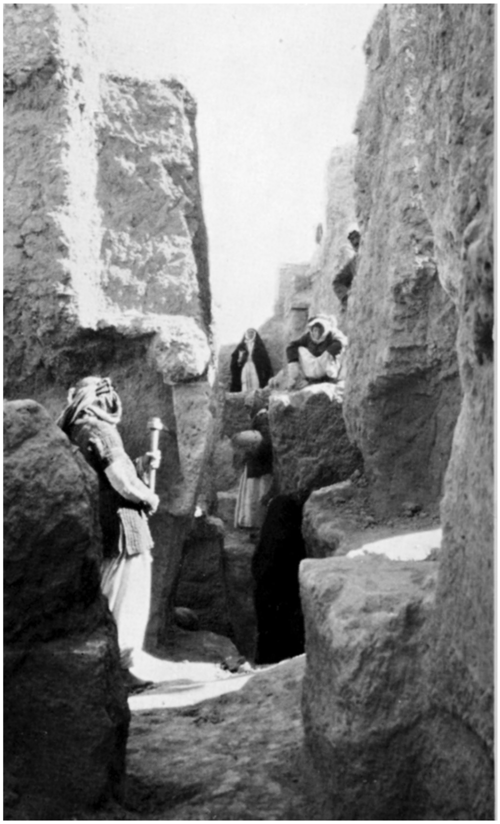
❋ ❋ ❋

---

(1) أي العائلة الملكية الحاكمة في بريطانيا، وكثيراً ما يُترجم الاسم بالغلط: وندسور.

(2) اسمان لعائلتين ملكيتين معروفتين في إنكلترا.

(3) أيضاً اسمان لعائلتين ملكيتين معروفتين في فرنسا وإنكلترا.



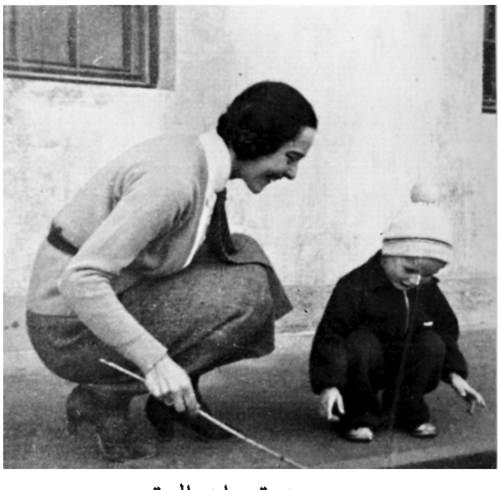
«... فوضى مذهلة لقبح بلون قاتم»



هانز يقوم بالتنقيب



هانز يصنّف اللّقى



ييتي ويون يقومان بالتنقيب

الفصل الخامس

انقضى شهر من العمل الشّاقّ، وكنتُ بدأتُ أشْعُرُ أن حركتَه وإيقاعَه قد أرهقاني ولكن لم يقضيا عليَّ، بدا سِتون واثقاً من الوصول إلى حقبة ما قبل البناء الكبير المجاور للقصْر، إذْ أنَّ الشّرقاطيّين وجدوا أنَّ الجُدْرانَ السَّميْكةَ قدْ انتَهَتْ ولمْ يجدوا دونَها سوى قطَع من أبنية عشْوائيَّة أو حتَّى تُربة بكر. وفي أعلى التلّ كان جايك وهال يقشران الطَّبقات العُليا منَ الخنادق المُمْتَدَّة والأعْمدَة الغائرة هناك؛ فالرّابيَةُ ذاتها قد تشكلت من البيوت القديمة، وفيما كان الحكام القدماء يملكون السلطةَ، والعمالةُ متوفرة لتسوية منطقة قصر قديم كاملة بشكل محكم قبلَ البَدْء ببناء قصر جديد عليها، لم يكنْ باستطاعة أتباعهم المتواضعين القيامُ بذلك إذْ أنَّ البيوتَ المنهارَةَ في منْطقة البَلدة أو التي غارت كانت تسوّى فوق الأساسات بصعوبة ثم تبنى البُيُوتُ الجديدةُ فوقها، فكانت النتيجَةُ أنَ مستوى البلدة نفسَه قد ارتفع أعلى فأعلى كلما بُنيَتْ البلدةُ من جديد، حتى تشكَّلَتْ رابيَة حقيقية من أنقاض البيوت القديمة. وفي الأزمنة التّاليَة كانتْ تُبنى البُيُوتُ على مُنْحَدَرات الهَضْبَة، وذلك شكّل لجايك ولهال الظاهرةَ المُدْهشَةَ التي صادف فيها العثورُ على بيوت بُنيت لاحقاً في مسْتَويات أخفضَ من بيوت أقدم بكثير منها كانت قد بُنيتْ في قلْب الرّابيَة.

وكانوا قد وجَدُوا بُيُوتاً في الأعلى تَماماً تُعَدُّ أقدمَ من مستوى القصْر الأقْدَم الّذي وجده سِتون، إذ أنهم استطاعوا تأريخَ بنائها إلى أيام ما بين 2400 و2200 عندما سيطر الأكّاديون على البلاد. فعلى الرغم من وجود الكثير منَ الأدلَّة فإنَّ الأواني الفَخّاريَّة وحدَها قد دلّتهم على ذلك، فقد أصبح الآن يُعرف الكثيرُ عن أنواع الأواني الفخارية في كلّ مدينة قديمة، وبالمقارنة يسهل نسبتُها إلى حقبتها من البقايا الموجودة منها،

وسبب ذلك بالطَّبْع أنَّ استعمالَها المحلي لا يستَمرُّ طويْلاً وعادة تبقى القطَعُ المُكَسَّرَةُ في مستوى البناء نفسه الّذي صنعت فيه لأول مرة.

«إنَّها تتبعثرُ في داخلي»، قلتُ لنفسي باستخفاف وأنا أنظرُ إلى أعمدة جايك العميقة وإلى القطع الفخّاريَّة المَدْفُونَة في الوَحْل كل بضعة أقدام باتجاه الأسفل وبجانبها غُرست علامات أنيقة للإرشاد. وكم من خادمة مستهترة في كلّ زمان كانت قد قالت مقالتي أو ما يشبهها في مواجهة سيدتها الحانقة وهي لا تعلم كم ستساعدُ أحدَ علماء الآثار في المستقبل.

كان هانز يعملُ تارةً مع جايك وأخرى مع سِتون، فقد كان متشوقاً لإنهاء عمل سِتون الحالي؛ ليتمكنَ من البدء في التنقيب في منطقة شمال التلّ عند البيوت الخاصَّة حيثُ يعتقدُ أنَّهُ يوجد هناك بناء كبير قد يكونُ أقدمَ من البيوت ذاتها.

وبما أنَّ سِتون كان قد وصلَ إلى أخفض مستوى من البناء فقد اقتنعَ هو وهانز بأن البناء كان غالباً في الأصل معبداً، غيرَ أنَّ الطبقات العليا بشكل خاص كانت مربكةً إذ بدا أنَّ الحكامَ المتأخرين لم يستخدموها معبداً بل إنهم أنشأوا عليها امتداداً للقصور المجاورة. بينما الآن في الأسفل عميقاً تحتها عند التربة البكر انكشف مخططُ المعبد تماماً؛ له مدخل متقن وفسحة رئيسة تحيط بها الغرف وله مدخل مثبت يقودُ إلى فناء داخلي وُجدَ فيه مَذْبَح مواجهاً للباب، وعلى المذبح ركيزة صغيرة لتماثيل الآلهة التي كانوا يعبدونها. وبرزت منصَّة قبلَ المذبح حُفرٌ فيها فتحات سفْليَّة وبالوعة لشفط ما يُراقُ أمامَ الآلهة، وكان هانز يعتقدُ أنَّ مستوى البناء يعودُ إلى وقت ما قبل كيركيري الأجنبي. وقد امتد ذلك المستوى يميناً من القصر عبر المعبد. كما ويُظَنُّ أنَّهُ يجبُ أن يُنْسَبَ إلى حاكم يدعى نوراخوم Nurakhum. وقد أظهر سِتون في المعبد الفترتين الزمنيتين الأدنى حتى وصل إلى الأساسات الأكثر قدماً.

قال هام: «حسب ذلك المنسوب يجبُ أن تكون قد أنشئت على يد إلوشويليا وإيتوريا، إذْ يبْدُو أنَّ الأساسات الأقدم للمعبد قد أسَّسَها إيتوريا الملك التابع لغِملسين Gimilsin ملك أور».

كل ذلك كان ظَنّاً إلى حدّ كبير؛ إذ أنَّ الدليلَ الوحيدَ هو تلك الآجرّاتُ ذات النقوش الكتابيّة بعد سنوات عديدة، والّتي تعتَمدُ عليها النظريَّةُ الافتراضيَّةُ بكليتها، فهل يمكن حقاً أن تكونَ الجدرانُ المنْهارَةُ الخَشِنَةُ تحوي على كوة هنا وحجارة رصْف هُناكَ، وطبقة من الرّماد هنا، ومكان ارتشاح هناك، شملت كلَّ أسماء الحُكّام المَذْكورينَ في القوائم القَديْمَة الّتي عُثرَ عليها في قسم آخرَ من المنطقة، على الرغم من أنَّ علامات النّار في منتصف المسافة إلى الأسْفَل كانت علامات قد تكون مؤكدةً، فهي تشيرُ في النّهايَة إلى الحادثة الفعليَّة للهجوم السومريّ المُضاد على المدينة العيلاميّة المحاصرة، والّتي كانت افتراضيَّةً إلى حَدّ كبير؟ وبدا مدهشاً أن يكونَ العملُ الميدانيُّ أسفلَ الجدران المتشابكَة وتحْتَ علامات النّار منَ الدقَّة والصواب بحيث يطابقُ الأسماءُ المعروفةُ للحكام، بيلالاما هنا وكيركيري هناك ونوراخوم تحتهما، أو هنا لطبقتين اثنتين أدناها جميعا، واللتين تعودان إلى إلوشويليا وأبيه إيتوريا.

تابع سِتون تنظيفَ وإظهارَ الطبقات الدنيا من المعبد، وكان اثنان من الشّرقاطيّين يعملون في الأسفل على جانبَي مدخل الباب المثبت الذي يؤدّي إلى داخل الملجأ الداخلي، ولم يكن ثمّة اختلاف أبداً في المظهر بين الأنقاض الواجب رفعها وبين الجدار القديم الذي كان يجبُ تحريرُه، فكلاهما يتكوّنان من مواد متماثلة: من طين مجفف، وكانت معظمُ الأنقاض قد تكوّنتْ من الأجزاء العليا المنهارة من الجدران ذاتها، وبفعل الرّياح والأمطار التي عملت مفعولَها لآلاف السنين أصبحت الجدرانُ والأنقاض المنهارةُ منصهرةً في كتلة واحدة غير قابلة للتمييز. بيدَ أنَّ الشّرقاطيّين قد طوّروا إحساساً غيرَ عاديّ لمعرفة الجدار الأصلي فوقفوا حيث كان قد بني في القديم، فلديهم إحساس مرهف للنقاط الصَّغيرة التي يختارونها للتنقيب فينقرون بملاقطهم، وكأنَّها امتداد لأصابعهم، ويربتون ويضعون ملاقطَهم بشكل عموديّ أو منزلق بلطف، فتتبعثرُ قطعُ الأنقاض ليظهرَ وجهُ الجدار الحقيقي الأمْلس كما تُرفَعُ قشرةُ البيضَة المطبوخَة نظيفةً عن بياض البَيْضَة، وكانَ منَ المُعيب جداً الخطأُ بتتبع الجدار بالنسبة للشّرقاطي. وفي إحدى المرات وجدَ ستون صعوبةً كبيرةً في التغاضي عن أحدهم

عندما حفَرَ إحدى دعامات آجرات الطين بالخطأ، وهو يتتبعُ القسمَ الخارجيَّ لسور المعبَد قبل أنْ ينتبهَ لفعلته.

كان اثنان من الشّرقاطيّين قد وصلا إلى الطبقة الأرضيَّة في المدخَل إلى الضريح، فلاحظ ستون وجودَ بناء مربع من الآجر الطيني على كلّ جانب قربَ الفجوة التي كانت تحْملُ حافةَ الباب، وقد طلبَ من الرّجال أنْ يحفروا أعمقَ قليلا، فقامَ كلُّ واحد بالكَشْف عن صندوق سطحيّ مصنوع من الآجر الطينيّ ملئ بالأنقاض الرَّمليَّة، كما كانَ هناك شيء آخر، شيء كبير وقاس. ترك الرجلان ملقطَيهما وبدأا بنفض الأنقاض بأيديَهما، فبَرقَت حجارة بيضاءُ عبرَ الغُبار، فنَفَخَ الاثنان على الغبار حتَّى كشَفا عن السَّطْح. كانَ يوجَدُ في كلّ صندوق مُرَبَّع الشَّكْل حجارَةً كبيرة دائريَّةً يبلغُ طولُ قطرها قدماً وفي مُنتصَفها تجويف مُفرَغ. أدرَك سِتون بالطَّبْع أنَّها الحجارةُ الكبيرَةُ الّتي قَدْ تَمَحْورَت عليهما الأبوابُ المُزدَوجَةُ المُؤديَّةُ إلى حَرَم المَعبد فيما مضَى، ولكنْ لمْ يكنْ هذا الاكْتشافُ الهنْدَسيّ المُهمّ ليجْعَلَ قلبَه يَخْفقُ بسُرعَة عندما حَدَّقَ بها، بلْ كانَ شيئا يُحيطُ بكلّ حجَر ما بين المُحيط والتَّجويْف في الوَسَط، لقدْ كانَ نقْشا طَويْلاً مَنْحُوتا بشَكل واضح وعميق. أرسَل سِتون صبيّاً إلى تلّ برسالة عاجلة إلى جايك فوَصَلَ بصُحبَة هانز. قامَ جايك برَفع أحَد الأحْجار المحوريَّة وقلَّبَها لبضْع دقائقَ بينَما كانَ الآخرونَ ينْتظرُون، ثمَّ بَدأ يقْرأ ببطء وهو يدوّرُ الحَجَرَ:

«لغِملسين الملك الإلهي، المَلك ذي القلب الصّافي لرعايته البلاد، مَلك أور القَويّ إلهه، قام إيتوريا حاكم إشنونّا، خادمه، ببناء هذا المَنزل».

De profundis clamavi... (من الأعماق صرختُ)[1] لا بُدَّ أنَّهم أحَسُّوا وهم يقفونَ هناك بأنَّهم قدْ سَمعُوا صَوتَ شبَح إيتوريا العَميق يَنهضُ من أنقاض مُعَبَّدَه مُنطلقاً بَعدَ مُرور 4000 آلاف سنة من الصمت، فتلكَ النُقُوش أخبرَتْهم عنْ إنجازاته في الماضي والنَّصر الحالي الذي أنْجَزوه. لقد كانَ نصْراً مُحَقَقاً بالتّاكيْد يَتَضَمَّنُ علمَ فقه اللُّغَه لدى

(1) التعبير باللغة اللاتينيّة، ومعناه: من الأعماق صرختُ. وهو اقتباس من مزامير داود، المزمور رقم 130.

جايك وعبقريَّة سِتون العَمليَّة وتَنسيقَ هانز لعمل كليهما لتنتجَ نظريةً رَعاها برأي سَديد مُترافقة بكلّ مَرحَلة مُشَوشَة نحْو تقييمه الأمثل للبَحث. وتلك الصُّخورُ المحْوريَّة أثبتتْ أنَّ مسْتوى كلّ بناء أقيمَ فوقَها كانَ قدْ خُصّصَ للحاكم المناسب، وأنَّ آثارَ النّيران سَببُها الثوار السُّومريون حَتْماً، وأبْعَدَ منْ ذلكَ أثبتَتْ أنَّ إيتوريا لم يكن قد أعلنَ أنَّ غِملسين هو سيده الأعلى فحسب، لكنَّه أيضا كانَ قدْ بَنَى المَعْبَد وكرّسَه من أجله، وكانَ الإلهُ المَعبودُ في ذلك المعبد هو الملك المؤلهُ نفسُه، «غِملسين الإلهي».

* * *

أحضرتُ بطاقات العُمّال في المَساء إلى المنزل، ذلك لأنَّ اليومَ التّالي كانَ يومَ توزيع الأجُور واليَومُ الذي يليْه يومُ استراحَة. فأمْضَيْتُ المَساءَ في حساب مبالغ المال التي اسَتحَقَّها كلُّ رَجُل يَتضَمَّنُ الأجر الأساسيّ مُضافاً إليه ربَّما الإضافات الّتي اسْتَحقَّها لإجادَته عملَه، أو الخُصُومات بسَبب الغَرامات المُتَرَتبة للسُلوك السيئ الذي اقترَفَه. حافظَ بعضُ العُمّال على بطاقاتهم نظيفةً مستويةً في علب معدنيَّة صَغيرة مع سجائرهم، والبعضُ الآخر سلّمها أجزاءً مكوّمَةً مُتَّسخة، فاستلمتُها على مضض.

في اليوم التالي حسبتُ النقودَ التي جلبها جبرائيل من بغدادَ مساءَ اليوم السابق. ثم نقلتُ الطاولةَ وحقائبَ النقود بعد الغداء إلى الشرفة الأماميَّة الممتدة أمام المنزل، حيثُ اجتمَع جميعُ العمال جالسين بصبر على الأرض يتَجَوَّلُ بينهم ثلاثةُ حراس يحملون بنادقَهم على أكتافهم وهم يتحادثون، والحارسُ الرابعُ وقف قربَ الطاولة حيث أخذت وهانز وسِتون مقاعدَنا. أما الشّرقاطيّون فقد جلسوا القرفصاءَ في مجموعات منعزلة في أَحَد الجَوانب.

كان هانز يعلنُ الاسمَ المَوجود على البطاقة، فكانَ الحارسُ يُردّدهُ بسرعة، ثم يعادُ النّداءُ له من الجميع إنْ أبْطأ العاملُ المطلُوبُ بالإسراع إلى الطاولة، وقد بدا على الجميع أنهم يستمتعون بالطُّقوس، لكنَّها كانت طويلةً، وكان أمامَهم عدَّةُ أميال ليقطعُوها قبل أن يَحُلَّ الظَلامُ؛ لذلكَ رغبوا بالإسراع لإنهاء تلكَ الطُّقوس. كان هانز يعيدُ تمريرَ البطاقة لي، وأنا أقومُ بعَدّ النُّقود بناءً على ما فيها، وأدفع بها نحو سِتون الذي

كان يدفعُ للرَّجُل ويسلمُه بطاقةً جديدةً، ويرمي البطاقةَ القديمةَ إلى صندوق ليلتهمَها لهيبُ الرحمة بسرعة بعد ذلك. كان يخبرُ الرجلَ أحيانا بأنَّه لنْ يقبضَ نقوداً في المرَّة القادمة إذا كانت البطاقةُ في مثل الحال التي عليها وكانت ملاحظتُه غالباً ما تُستَقبلُ بتكشيرة تعني أنَّه لمْ يفهم ما الخطأُ في بطاقته.

ابتعدت الحشُودُ نحو الأفق فأصبحت الصَّحراءُ بسرعة مرقشةً[1] بالبقع السَّوداء متَّجهةً نحوَ الأُفق. لاحظتُ في يوم الدَّفع الأوَّل أنَّ بعضَ الفتيان يحملون سلاحاً مُرعباً في أحزمتهم، كان السّلاحُ منحُوتاً على شكل الأجاصَة محفوراً في منتصَفه ومعلَّقاً على عصيّ قصيرة غليظة، وكان ستون قد أخبرني «إنَّها صَولجانات يحملونَها استعداداً لمهاجمة الفتيان الأكبر منهم لسرقتهم، وأنَّها تشبهُ كثيراً الصَّولجانات التي كانَ يحملُها السُّومريون في الحرب والتي كثيراً ما كنّا نعثرُ عليها عندَ التنقيب».

قبضَ الشّرقاطيّون أجورَهم أخيراً. وعندما حلَّ وقتُ الشّاي أصبحت الصَّحراءُ الغربيةُ أمامَ المنزل فارغةً.

قالَ سِتون مقترحاً: «ما رأيُكُم بجولة على ظهور الخيل بعْدَ احتساء الشاي؟» دونَ أن يغادرَ الطاولة. كانت ييتي قد أخبرَتْني قبلَ مغادرة إنكلترا بأنَّ امتطاءَ الجياد أحسنُ طريقة لترك المنزل لفترة وجيزة لكسر الرَّتابة، فأحضَرْتُ ألبسةَ ركوب الخَيل ولحُسن الحَظّ كانَ السروالُ الجلديُّ الخاصُّ بركوب الخيل مناسباً لي، حيثُ أحاطَ بساقي ومنعَ ركبتي من الارتطام عندما رأيتُ لأول مرَّة الجَوادَ الذي كانَ يتمايلُ على الجانبين، وهو يخرجُ منَ الإصطبل برفقة أحَد السّائسين[2]. كلّ ما كنْتُ أعمُلُه في الماضي هو أن أقومَ برحلة مأجُورة في الرّيف الإنكليزيّ على ظهر جواد أنيس حسن السُّلوك برفقَة آخرين، وكنْتُ أسمعُ أحياناً مرافقاً يقول بلهجَة أجنَبية: «Eels down, helbow hin» «الكعبان إلى الأسفل، والكوعان إلى الداخل» في مسير الجَواد خبَباً

(1) مرقشة: ترقش: تزين. (القاموس المحيط، ص 767).

(2) السائسين: مفردها السائس. يقال: هو يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها. (لسان العرب 6، ص 430).

على العُشْب، معظمُ النّاس يَعتقدونَ بأنَّ هذا هو ركوبُ الخيل، فإنْ استطاعوا فعلَه يعني أنَّهم متَمكّنُونَ من ركوب الخَيل، ولكنَّني على الأقلّ لمْ أخطئ التَّقديرَ في هذا، فأنا أعلمُ أنّي عندما لامسَ كَعبا حذائي الحصان بدا طيّعَ المَسير مُتثاقلاً، ثمَّ هرْولَ، فكانَ يقومُ بذلك لأنَّ تشارلي وستار وبوي كانوا يُهرولُونَ أمامَنا أيضاً، ولا يريدُ أن تفوتَه نهايةُ القصَّة التي بدأ تشارلي برواياتها. وقالَ أحدُهم مرَّةً لي: «دائماً اجعلي جَوادَكَ يَعْرفُ منذُ البداية مَنْ المُسَيْطر» لكنَّني وجدتُ أنَّه لا ينبغي لي أبداً أنْ أُفصحَ عن هذه المَعلومَة التي نعرفُها كلانا.

كان كلّ من ريغمور وسِتون وبيتي يمتلكون جياداً خاصَّةً بهم، وكانت في غاية الجَمال، وكانَ هنالك آخَر بلون أبيضَ ضارب إلى الرَّماديّ، كانُوا يعتمدونَ عليه في المَهام غير الاعتياديَّة، كتلك التي يقومون بها لإبقاء الاتّصالات مستمرةً مع قرية خفاجة وبغداد، عندما لا تستطيعُ السيارات السَّيرَ في الصَّحراء عندَ هطول الأمطار الغزيرة.

كانت فرسي تُدعى «هِلّي» Hillai وقدْ خُصّصَت لي عنْدَما أرغبُ في ركُوب الخَيل، بَلْ ربَّما عليَ أنْ أقولَ إنَّني أنا التي خُصّصْتُ لَها. الشَّخصُ الوحيدُ الذي قدْ يكون أحَبَّ هِلّي هو توم وبستر Tom Webster [(1)]، كانَ رأسُها يَتدَلَّى، ولعيونها جفُون سَميكَة وتَكشيْرَة باهتَة ساحرَة، لها قوائمُ طويلة ميّالة للالتفاف حولَ بعضها مثلَ الفرس تيشي Tishy في قديم الزَّمان.

كان مظهرُها الضعيفُ خادعاً ولكنَّني وجدْتُه مُريحاً عندما راقبْتُ الخُيُولَ الأخْرى وهي تَرقُصُ متباهيةً حولَ السائس، ولم يكنْ بإمكان هِلّي الجري سريعاً بشدَّة، وقد اكتَشَفْتُ أنَّ تلك علَّة فيها بسرعة عندما أخذْتُ بلجامها متوترةً لأُسرعَ باللَحاق بالآخَرين بعدَ انطلاقهم، استَدَرْتُ وحَمْلَقْتُ في هِلّي بنظرة ثابتة شريرة وما كانتْ لتفصحَ عن معناها بشكل أوضح لو أنَّها بدأت تُغَنّي باللَّهْجَة الايرلَنديَّة «أنا أعلمُ إلى أين أذهبُ، وأنا أعلمُ مَنْ بصحبتي».

---

(1) غِلبرت توم وبستر (1886–1962) رسام صور متحركة إنكليزي شهير، وكانت الفرس تيشي المذكورة أعلاه من شخصيات رسومه الشهيرة.

كانَ كلُّ شيء في رحلات ركوب الخيل تلك يبدو في الظاهر على ما يرام؛ لأن هِلّي كانتْ كسولةً تتمدد متهالكةً حولَ الإصطبل، وعندما تَتَعَثَّرُ على الكثبان على طول مجْرى الأقنية القديْمة وراءَ الآخرين كانَ كلُّ شيء على ما يرام لطالما استطعت أن أجعلَها تنظرُ إلى الأمام مباشرة ورأسها مستقيم حتى لا تقعَ عيناها الدوّارتان على وميض البرج البنيّ الذي أصبح الآن شكلاً مربعاً في الأفق البعيد خلفنا. فإذا حدث أن لمحتها هِلّي مرة فإنَّ الجولَةَ كما ـ فسَّرَ الكلمةَ أحدُهم ـ قد انتهت، فقدْ بدأ شكلُها الأخْرَقُ بالدوران بلا توازن، وهي ترتجفُ ثم تنفجرُ بقوة وقد انبَسَطتْ رقبتُها البَيضاءُ وتَمدَّدَتْ لدرجة مدْهشَة، وحوافرُها المنزلقةُ تلتهبُ، وهي تقاومُ ببسالة الكثبانَ المليئةَ بالحصى، ونبدو وكأننا سوف نبحرُ عالياً في الهواء، ولولا أنَّني كنت خائفة جداً لكانت تلك الحَركةُ ممتعةً فعلاً كمن يجلس على ظهر بجعة مجنونة مهاجرة، وأنا متأكدة لو أنَّني كنتُ قد راجَعتُ هِلّي لكانت النتيجَةُ موتاً محققاً، فلو أنها انْحَرَفَتْ فجأةً إنشاً أو اثنين إلى أحد الجانبين عن مسار قفزتها السَّهميَّة الطائرة لوقعتُ على رأسي فوقَ الأرْض الصُّلبَة، فتركتُها بتعَقُّل دون تدخل، وتمَسَّكْتُ بلا خَجَل بالسَّرج.

كان حدَثاً مُثيْراً جداً غيّرَ من رتابة مسار الأمور، فقدْ كنتُ أعودُ يوماً بعد يوم إلى المنزل من مناطقَ تبعدُ عن المعَسْكَر بسرعة 90 ميلاً بالسّاعة، وكان مواساةً لي أن أعودَ إلى المنزل في كلّ مَرَّة، فلو أنَّ هِلّي في تلك الحادثة أصرّتْ على أن تنطلقَ في أيّ اتجاه آخر هناك؛ ما كانت لتتوقف مئات الأميال إلا إذا انطَلَقَتْ باتّجاه الشَّرق، ووجَّهَتْ وجهَها الغبيَّ نحوَ جبال بلاد فارس.

بقيت تلك الأمسيةُ جميلةً بمجملها ـ يوم دفعْنا للعُمّال أجورَهم ـ فقد رأيتُ بعد غروب الشَّمس بعيداً منْ جهَة الجَنوب الغَربيّ ومضات مبهجة من الأضْواء تعْني أنَّ القَومَ الخفاجيين قادمون نحونا، وبعد ذلك وصلوا وتجمهروا ودخلوا تاركين هواءَ المساء شديدَ البرودة إلى دفء غرفة الجلوس، وعلا صوتُ نقرات المصافَحَة والكلام. كانوا قد أمضوا أسبوعاً جيداً، وبعد قليل تجمهروا حول هانز وحولنا قربَ المدفأة ليستمعوا إلى قصة المحاور الصخريَّة.

وقـفَ هنـاك هانز مُحاطاً بهيئـة مُوظَفيْه، كانَ مرتَّبـا، وقصيرَ القامة، وأسـمرَ، ينتعلُ نعليه المصريَّين اللذين اعتاد لبسَـهما في المسـاء عندما يخلعُ ثيـابَ العمل والتنقيب، بينما كان بعضُ الموظفين مازالوا بغبار وشعث عمل يومهم.

كان معظمُهـم أكثرَ طـولاً وأعظم وزناً منه، لكنَّني لاحظْـت وقتها ما أصبحتُ دوماً ألاحظه بعدئذ ،وهو أنه كانت أجواءُ ما يتمتَّعُ به منَ السُّلطة الخيّرَة العَفويَّة قويةً لدرجة أنَّ المَـرءَ يحمـل انطباعاً عفويـاً عنه بأنه رجل طويـلُ القامة إذْ كان القـومُ ينظرون إلى الأعلى عندما يتحدثون إليه.

كانـت لغتُـه الإنكليزيةُ سـليمةً، ويسـتعملُ الكثيرَ مـن المصطلحات الشّـائعة التي اسـتفادَ منها بشَـكل مَرح لتُناسبَ هواهُ وبإضافة إيماءاته وهو مُنفعل تصبحُ مدهشةً إلى حـدّ ما، فيقوم بها أحيانـاً دونَ قصد، وأحياناً متعمداً لما فيها مـن متعة، ثم أنهى روايته بتلويحة من يده.

علّق پيير قائلاً: "Magnifique" «عظيم».

قالت بِتي: "Just wonderful" «رائع حقاً».

وقال كلّ منْ هام وماك معاً: "Swell" «ممتاز».

نظر إليهما هانز متهللاً وأجابَ وهو يلعبُ بلفظ swell: "completely swollen" التي تعني «منتفخ جداً» مما أثار عاصفةً من الضحك.

وزاد مـن أجـواء الاحتفال عندئذ قـدوم جبرائيل من بغدادَ حامـلاً معه البريدَ، فراح هانز يبحث فيه وبالأوراق والرسائل التي طالَ الشَّوقُ إليهما. قام جبرائيل بتسليم سِتون صندوقـاً صغيراً وسـمعتُه يقول له بتلهف: «سـيدي لويد وجدتُهم فـي متجَر إنكليزيّ، ولكننا آسفين سيدي لـم يكن عندهم إلا تلكَ الكُراتُ البَيضاءُ، آسفين سيدي لويد هذا أفضلُ ما استطعتُ القيامُ به» ثم حَرَّكَ رأسَه الكبيرَ بحزن.

كانـت تلك كرات جديدة للعبة البينغ بونغ كان سِـتون قـد طلب إليه محاولة العثور عليهـا؛ لأننـا كنّا نلعَبُ أحيانـا لعبة البينغ پونغ علـى طاولة غرفة الطَّعام. ورفع سِـتون

غطـاءَ العُلبَة فلمعـتْ حزمةُ الكرات البيضـاء التي فيه، وكانت موضوعـةً بكؤوس منَ المَناديل الورَقيَّة.

فقالَ: «إنَّها ممتازة جبرائيل تماماً كما رغبتُ شكراً لك».

أجاب: «هل هي *awright* جيدة؟». (كذا)

«نعم شكراً جبرائيل ممتازة، تصبح على خير».

ابتعد جبرائيل متثاقلاً، وعلى وجهه العريض أمارات مختلطة من الارتباك والارْتياح فقَدْ كانَ يكْرَهُ أنْ يُخطئَ بما يشـتري واكتَشَـفْتُ سَـبَبَ ارتباكه بعدَ عدَّة أيّام عندما كُنْتُ أراجعُ حساباته التي كتبها لذلكَ الأسبُوع:

«2 ديسمبر، لمستر لويد، دستة كرات پينك پونك pink Ponk».

* * *

«تعالَي لتسمعي بعضَ الأسطوانات المسجّلة»، قال هام بلهجة أمريكيَّة ”reccuds“ بعد العشاء من تلك الأمسية. «آل ماك قادمون أيضاً».

قبلـتُ بسـعادة، فقـد عَرَفْـتُ مـاذا تعنـي ”reccuds“ لأنَّ ثقافتـي الأمريكية كانت تتقدم بسرعة، كانَتْ غرفةُ جلوس هام وهال مكاناً مبهجاً للدخول فيه بعيداً عن صقيع السّـاحة الخارجيَّة التي كانتْ تشـعُ تلكَ اللَّيلة بلون أزرقَ فـولاذيّ تحت ضوء القمر، فاسـتقبلتني دمدماتُ أغنية للمغنّي ويرينغ[1] Waring من پنسـلڤانيا اسمها ”dancing in the dark“. وعبرَ الطَّريق طَرقَ سـمعي صوت خافت لموسـيقى صادرة من غرفة الجلـوس، حيـث كان هانـز وبيتي وراحيل يسـتمعون لنـوع آخرَ مختلف جـداً من الـ ”reccuds“، وكان ماك يجلس على الأرض وبيده كأس وبِتي تحوك في كرسي ذي مسند مصنوع من الأغصان المجدولة.

قدّم لي هال كرسياً وقدَّمَ لي هام شراباً، كانت السَّتائرُ الحَمراءُ مُسْدَلةً، وكانَ المَوقدُ

(1) فريدريك مالكوم ويرينغ (1900-1984) Fredrick Malcolm Waring موسيقي أميركي شهير، لقّب بسيّد الغناء الأميركي، والرجل الذي علّم أميركا الغناء.

الزَّيتِّي يشعُّ بدفء كبير. وكانت توجد في القرب نسخ وصلت مؤخراً من جريدة النيويوركر New Yorker، ووضِعَتْ زهور إفريقيَّة في إناء قصير أبيضَ على طاولة صغيرة. كان هام قد طلب إلى جبرائيل أن يحضرَ له بعضَ الزُّهور من بغدادَ من أجل هذه الحفْلة الصَّغيرة، وكانتْ أجواءُ الغرفة مختلفةً عن أيّ شيء آخرَ عرفتُه في حَياتي، وعلى الرغم من أنَّها كانت مُتطابقةً في الشَّكل والمفروشات مع كلّ الغرف التي تحيطُ بالفناء[1] الخارجي، فقد كنتُ أظُنُّ ببساطَة أنَّ ذلكَ يعودُ إلى هؤلاء الأرْبعَة الودودين بلهجاتهم، وخواصُ التعبير اللُّغَويّ غيرُ مألوفة عندهم، وكذلك باستعدادهم لإظهار ترحيبهم بصحْبَتي، أوجدَ كلُّ ذلك قطعةً صغيرةً من أميركا بين جدران الغرفَة الأربعة لتكونَ أولى الومضات من العالم الحديث في قلب هذا المكان المُغْرق في القِدَم.

وبينما كانَ فريد أستير[2] يرتديّ قبَّعَتَهُ العالية ويلمّعُ أظافرَه، كنا نحن نتحدّث، فأدركْتُ أنهم كانوا مستعدين لسماعي وسماع رواياتي عن الحياة في ظلمات إنكلترا كاستعدادي لسماع رواياتهم، ووجَدْتُ نفسي أصفُ لهم الكوخَ ذا المئتي عام من العمر في هامشاير حيث عاش والدي، حتى أصبحَ وصفي كالشعر عندما وصفْتُ لهم كيف تبدو منحفضاتُ هامشاير («يبدو أنها كان يجب أن تُدعى مرتفعات هامشاير Hampshire ups» لدى ماك) ووصفت لهم جمالَ وينشستر Winchester وورومزي Romsy القديمتين، ولأن هال وهام كانا مهندسيَن معمارييَن فقد عَرَفا كل ما يتعلق بنظريات الأبنية الإنكليزية والنورماندية القديمة وكانا مندهشَيْن لهم أن تكونَ مازالت شيئاً مدهشاً يتشوقون لرؤيته على الطبيعة، فقلت لهم: «من الأفضل أن تأتوا وتَرَوا تلكَ الأبنيةَ بأنفسكم».

فقال هال: «كذلك يجدرُ بك القدومُ إلى أميركا يوماً ما»، وأضافَ متدبراً: «يمكن أن تكرهي بعض ما فيها، ولكنَّك سوف تحبينَ فيها بعضاً آخر».

كان سديمُ[3] التَّدخين يتماوجُ في أرجاء الغُرفة، وأغنيةُ ويرينغ من بنسلڤانيا ما

---

(1) الفناء: المتسع أمام الدار. (لسان العرب 10، ص 339).

(2) كناية تشبيهية بالراقص الأميركي الشهير فريد أستير (1899-1987) Fred Astaire.

(3) السَّديم: الضباب الرقيق. (القاموس المحيط، ص 1446).

زالت تصدحُ في الظَّلام مرَّةً أخرى، لقد تاخَّرَ الوَقتُ ولكنَّ اليَومَ التّالي كانَ يومَ عطْلَة، فكانَ الجَميْعُ مبتهجينَ ومسترخين، ثمَّ قالَ ماك إنَّهُ جائع قليلاً وسارَ مُتمَهّلاً ليُغيرَ على المَطبَخ، ثمَّ عـادَ بالكثير منَ البَيض والبَسكويت والبيْرَة، فقمنا بسَلق البَيض ليُصبحَ قاسيا في إناء معْدَنيّ كانَ هام قدْ وضَعَهُ على الموقد لترطيب الجَوّ.

تخلّى هال عن تماسُكَهُ المَعْهُودَ، وأصبحَ متبسطاً مع رفاقه ليستطيع تحَمُّلَ الأجْواء القارسَـة في العالم القاسـي. أخبرَني هال عن قصة مدهشـة حدثَتْ أيامَ أبيه الأولى في الغَرب الأوسـط عندمـا كانَ يعملُ مع فريق يقطعُ الأخشـابَ، وكيف أنَّـه في أحد أيّام الخَريْـف عندما كانَ صبيّا صـادَفَ وجودُهُ في البَلدَة، مـرَّ بمَدخَل باب مفتوح لإحدى المدارس حيثُ كانَ الصبْيانُ الأصغرُ منه سـناً بكثير جالسـينَ يُمتحنون، فاندَسّ بينَهم، وجلَسَ على أحد المقاعد، وحاوَلَ الإجابَةَ على الورقَة الموجودة عليه وشعرَ بالخُزي الشـديد عندما اكتشـفَ أنَّهُ لمْ يستَطع الإجابَةَ عن سـؤال واحد لأنَّه لم يذهبْ قطّ إلى المدرسة، ثم كيف اكتشفَ أمرَه الرئيسُ، واهتم به ورتَّبَ الأمرَ كي يعلّمَه في فترة الشَّتاء الطَويلة عندما يتوقفُ عمّالُ الأخشاب عن العَمَل، وهاهو الآن قد أصبَحَ الرئيسَ الأوَّلَ لأكبرَ مدرسة في ميلووكي Milwaukee.

انقضـت الحفلـةُ، والجَميعُ يغلبهـم النُعاسُ، وما زلتُ أحتفظ حتى الآن بأسـطوانة أغنية "Dancing in the Dark"، ما كان عليَّ إلا أنْ أديرَ أسطوانتها بقدمها وبما فيها من خدوش مشـوهة بفعـل رمال العَواصـف الرَّمليَّة التي أصابتها؛ لاسـترجعَها أمامي وكأنَّهـا حقيقةُ الأصوات والضَّحكات، وأشـّم رائحةَ البارافيـن الملتهبة، وصوتَ وقع أقـدام الحارس المَكتُومَة وهو يمرُّ بالنّافذَة الخارجيَّة في جولاته اللَّيليَّة، ثمَّ لأرى ثانيةً ماك الضخمَ متربعاً على الأرض، وفكرُه الوقّادُ الذي يختفي بمكر وراءَ تكاسله الظاهر، وأرى بِتي الرقيقةَ اللَّطيفةَ، وهال ذا العينين الشـهلاوين الحزينتين، وضحكتَه الخجولةَ الخاطفة، وكذلك هال سريعَ البديْهَة والحَرَكَة كالزئبق صافي القلب كالذهَب.

* * *

بـدأت الاكتشـافاتُ تتدفَـقُ مـنَ البُيُوت الخاصَّـة؛ وكنتُ أمضـي معظمَ أمسـياتي الآن بصحبـة راحيـل فـي غرفة الآثـار، ومـا كانَ يسـعفني حديثـي عمّا سـأجدُ داخـلَ صناديق الكرتون، فالأشْـياءُ فيها لم تكن تشبه أيَّ شيء رأيتُه في حياتي من قبل. ولأنَّ مصدرَها كان مـن البيـوت فقد حملت محتوىً إنسـانياً أكبرَ من تماثيـل الآلهة الطينيَّـة الصَّغيرة وعُبّادهم والأضاحي الحيوانيَّة المُقَدَّمَة إليهم، والتي شكّلتْ معظمَ الأشياء الواردة من المَعبد، وكان من بينها صولجانات صُنعَتْ قبل 4000 آلاف سنة من تلكَ الصولجانات التي كان يحملها صبيةُ السلال الصغار في أحزمتهم، بعضُ الصولجانات كانت مثلَ أجاصات كبيرة مدهشة الصُّنْع والتَشكيل، وتنتهي بنهاية ضيّقة تشبه نصفَ الخنزير الأعلى قد حُزّزَ بعضُها أو جعل عليه أشـكال بارزة حول الكتفين مما شـكّل منها سـلاحاً رهيباً، أما القبضاتُ الخشبيَّةُ التي تثبت عليها رؤوسُ الصولجانات فقد فنيت ولم يُعثَرْ عليها أبداً. ولكن من الممتع أن ترفعَها نحو النور لترى العلامات الحلزونيةَ فيها، والتي تركها المثقبُ المَعدنيُّ وهو يخترقها. لقد تنوعت الحجارةُ التي صُنعت منها تلك الصولجانات، فبعضُها صُنعَ من المَرمَر بلون أبيضَ صاف، أو موشح بالرّمادي واللون الزهري، وبعضُها من حجر الصَوّان الأمْلَس والأحجار الكلسيَّة متنوعة الألوان فيها الأخضر والأبيض. وكان عددها كبيراً حتى ليظنَّ المرءُ أنَّ كلَّ فرد في ذلك الزمان كان قد حملَ صولجاناً.

وفي إحدى الأمسـيات التقَطْتُ ختماً أسطوانيّاً منْ أحد الصَّناديق شكله يشبهُ شكلَ بكـرة قطن خضراءَ ثُقبت عبرَ مسـتواها العمودي، وعليها علامـات حُفرَت حولها من الخارج، تخيّلتها كحيوان هائج، وكانتْ أوَّلَ مرة في حياتي ألمسُ فيها ختماً كهذا. كان هانز وقتئذ في الغُرفة يتفحصُّ بعضَ الآثار المكتشـفة، فأدْرتُ الختم أكثر من مرة وقد راقبني وهو يمعن التفكير بها وقال لي وهو يأخذها من يدي: «انظري»، ثم وضع أمامي قطعة صلصال التقطها من أحد الرفوف ثم دحرجَ الأسطوانةَ بحذر وهدوء على طرف الصلصال، وهو يضغطُها في الوقت نفسه وكأنها آلةُ جزّ عشب الحدائق وهي تمرُّ على عشـب مرج صغير، ثم رفع الأسطوانةَ، فحملقتُ على الأثر المسطح التي تركته تحتَ مسـارها بعد رفعها وعلى طول سـطح قطعـة الصلصال بعد أن كان فارغـاً قبل لحظة،

برزت الآن أشكال صغيرة واضحةُ المعالم بشكل مثالي ارتفاعهُا أقلُّ من إنش واحد. ثم قال هانز: «إنها ليست طبعات جيدةُ، عليك أن تراقبي ريغمور وهي تنفذها بشكل مثالي فهي قد طبعت كلَّ نقشات الأختام قبل أن تقومَ بتصويرها».

أظهرت النقوشُ أسداً وحيواناً له قرون نشبا على قوائمهما الخلفية، وقد التحما بالقتال، بينهما شجيرة ملأت الفراغَ بين أقدامهما، وخلفَ كلّ منهما يقف شكل، أحدُهما لرجل تعلو رأسَه قبّعة فوق خصلات شعره الطويلة، والآخرُ لنصف إنسان له رأس عجيب، نُفذت الأشكالُ بمهارة حرفية جميلة، إذا ما وضعنا في الحسبان كونَ مساحة نقش المنظر كانتْ صغيرةً، إلى جانب أنها قد نُقشت من الداخل إلى الخارج، كما أنها نُفذت لتنتجَ مشهداً بنقوش بارزة إذا ما دُحرجتْ على الصلصال الطري، فكلُّ عضلة في الأقدام المشدودة برزتْ بتوتر حيّ مما جعل هيئتيَهما مألوفة، منظرُ الأسد بذيله المندفع الملتف وفمُه المزمجرُ وقوائمُه الأماميةُ المرفوعةُ يواجهه الحيوانُ ذو القرون، قلت: «إنهم تماماً كمرافقي القطعان» فأجابني: «حسناً هذا النوعُ من الأختام الذي يحوي الحيوانات المتقاتلةَ هو أساسُ تلك الأداة» فقد يكون وحيدَ القرن يدينُ بوجوده لأحد الحيوانات ذات القرون مثل هذا ـ قد يكون وعلاً ـ لأننا نرى جانباً واحداً من قرونه في صورته الجانبية، ولكنَّه التصميمُ الوحيدُ الذي وصل إلى أوروبا بطرق غامضة، وقد استعمل هناك بشكل شعارات رمزيّة، ولا تظني خطأ أنَّ معنى هذه الكلمة هنا «شعار» Herald لأنها ليست كذلك. قلت: «ماذا تراها تعني إذن يا هانز؟ وإلى أيّ تاريخ ترجع؟» أجاب: «إنها أختامُ الأكّاديين المثالية، وقد وجدَها أحدُ رجال جايك في مستوى بيت الأكاديين، تعلَّمَ الأكّاديّون السّاميّون فنَّ حفر الأختام من السّومريين الذين غزَوهم، كما تعلَّموا منهم الكتابةَ، ولكن كما تتخيلين فإنَّ عقليتَهم كانت مختلفةً، لذلك اختلفتْ أختامهُم بشكل كبير، ليس فقط بالتقنية المتبعة، ولكن أيضاً بالطريقة التي رُتبت فيها المناظرُ على الختم، وفي طبيعة المناظر المنتقاة، وهذا الختمُ لأحد مناظر الأساطير المعروفة لبطل يدافعُ عن قطيع مهاجم، هل أنت مهتمة بالموضوع؟ سوف أعطيك شيئاً لتقرئيه عنه.

ثـم ذهبنـا إلى المكتب وفيـه خزانة كبيرة مليئة بالكتب، وسـحب لي كتابـاً كبيرَ الحجم وقال: «إنه موضوع واسـع، فكما أنَّ الأختامَ تلقي ضوءاً كبيراً على الإنجازات الفنية لحقبة زمنية تمتد حوالي 3000 سنة – فهي صُنعتْ واستعملتْ باستمرار منذ تاريخ يُقدّر بين 3500 إلـى 500 قبل الميـلاد ـ ولكنَّ تلكَ الأختامَ أيضاً تفتحُ حقـلاً للبحث عبرَ مجمل عالم فكر الديانات القديمة، فهل أنت مهتمة؟» سألني مرةً أخرى. وتابع: «إنني أفضل أن تنغمسي في أعمال التنقيب بعيداً عن الجانب الآخر في المكتب ـ فأنت حتى الآن لم تفعلي ذلك».

خلقـتْ لمسـتي للختم شـيئاً ينشـطُ في داخلي، إحساسـاً لـم أشـعرْ به مـن قبل في التنقيـب هذا، فأخبرتُ هانز أنني سـوف أبدأُ بالقراءة عن الأختام، فأنا إلى الآن أشـعرُ بالحيرة من كلّ شـيء، بعيداً عن واقع أنَّ العملَ المكتبيَّ قد أخذ الكثيرَ من وقتي عندما كنـت أبحثُ عـن طريقي، ثم قال هانز: «إنه كتاب سـطحيّ نوعاً ما، والشـروحاتُ فيه رديئـة، لكنها سـوف تكونُ البدايةُ لك على أرض الواقـع، فابدئي بالتعلّم كيف تميزين أسـلوبَ كلّ حقبة زمنية، وبإمكانك أن تسـأليني عن أيّ شيء تريدين معرفته، وبالطبع في النهاية سـوف نقومُ بكتابة منشـوراتنا حول الأختام التي وجدَتْها بعثة التنقيب مرفقةً بالصحائف التي نفذناها، كلُّها من رسـومات صور ريغمـور الفوتوغرافية، وفي يوم ما أريـد أن أؤلـفَ كتاباً عن الموضـوع بمجمله بعيداً عن عمليـات التنقيب هذه، وعليك أثنـاءَ ذلـك أن تخرجـي إلى أعمـال التنقيب قدر المسـتطاع كلَّ يوم إن أمكن وتسـألي الأسئلة، وبالمناسبة كيف هي تلك الحساباتُ اللعينة؟» موجهاً كلامه لجايك.

أجابَ جايك: «حسناً إنَّ ميزانيةَ هذا الشهر الأول جيدة. إذا كان هذا ما تقصد». فنظر إليه متشـككاً، وقال: «متوازنةَ؟ أحساباتُنا متوازنة يا جايك»؟ وظلَّ يرفعُ صوتَه، ونحنُ نراه يمرُّ بالممرّ المفتوح باحثاً عن حمّامه المسائي: «جايك الحسابات متوازنة!». عاد جايـك إلى الغرفة متظاهراً بوجه باسـم مخطـط بالغبار الأكّادي وقال: «سـبحان الله» وكأنه كان يتذكرُ رحلةَ القطار الرهيبة في السـنة الماضية، «سوف نكونُ مشهورين جداً في شيكاغو إلى الأبد»، وقال هانز: «سيكون الشرابُ على نفقتي هذا المساء».

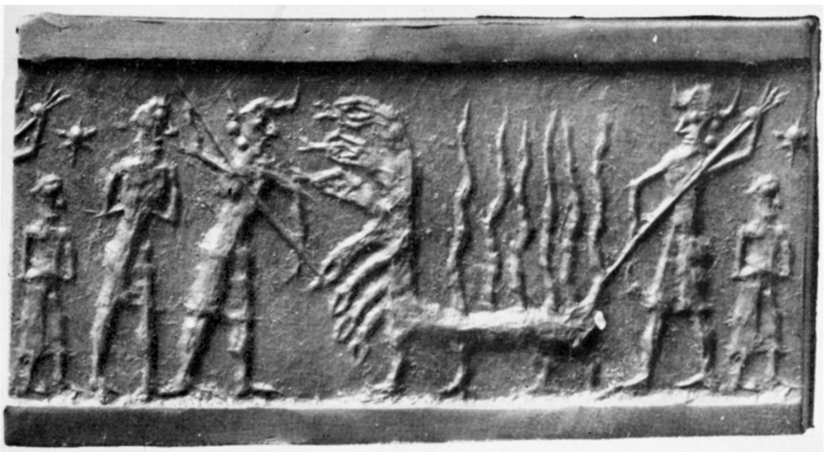
* * *



طبعة للختم الأسطواني الذي يعود أصله إلى الهند



طبعة لختم أسطواني أكّادي جميل



طبعة للختم الأسطواني الذي دلّ على بلاد الإغريق

بدأتُ أبحثُ في موضوع الأختام الأسطوانية، واكتشفْتُ شيئاً وهو أنني أدركْتُ الآن ماذا كنتُ أفتقدُ في هذا التنقيب الهائل، وهو شيء صغير ملموس وشخصي كان من الممكن أن يُعرّفَني بالناس الغامضين أنفسهم، والذين عاشوا في الماضي الغابر في البلاد القديمة. فالأختامُ الأسطوانيةُ كانت اختراعاً عبقرياً في بداية عهد السّومريين. وبعد ذلك عندما انفتحتْ طرقُ التجارة الخارجية نحو البلاد المجاورة المحيطة حيث وجدت تلك الأختامُ بعيداً عن سومر، إذ أنَّ هذا الاختراعَ قد اقتبسَ واستعملَ لفترة من الزمان في البلاد البعيدة، ولكنَّ منشأَهُ كانَ في بلاد ما بين النّهرين Mesopotamia لأنه وُجد لأول مرَّة في بقايا حقبة أوروك Uruk، وهي الحضارةُ الثانيةُ من حضارات ما قبل التاريخ، وهؤلاء الأقوامُ كانوا أولَ مَن استعملَ المعدنَ، وصنعوا أدوات القطع والتي ما كان بالإمكان دونها تشكيل وحفر الأختام الأسطوانية.

استُعمِلَت هذه الأختام بالطبع في البداية لختم الممتلكات الشخصية، فمثلاً عندما كانت إحدى الأواني الفخارية تُختم كانت تُربطُ قطعةُ قماش فوق فوّهتها، ويُربط خيط مشدود تحتَ حافة الفوَّهة، ثم يغطَّى الخيطُ المشدودُ بكامله حولَ الفناء بطبقة كثيفة من الصلصال، وقبل أن يتصلبَ الفخارُ يقومُ المالكُ بدحرجة الختم الخاصّ به على ذلك الصلصال. إما أن يكونَ المرءُ مسروراً بختمه أو يضعَه في طوق في رقبته أو مغروزاً بشابك (دبّوس) طويل يُشبكُ به عباءَتَه، ويتميزُ الختمُ الأسطوانيُّ عن ختم الطابع بأنه يمكن جعل النقوش متتابعةً طولاً أو قصراً حسبَ مقتضيات الضرورة.

وإن كثيراً من النقوش العملية التي وُجدت يظهر على جانبها أحياناً علامات واضحة للخيط المشدود الذي كان يغطيه الصلصال.

وبعدَ حقبتي أوروك Uruk وجِمدِت نَصر Jemdet Nasr دخلتْ أيامُ سلالات الملوك الأوائل، ومع تطور الكتابة اكتسبت الأختامُ وظيفةً أخرى، فقد اسُتعملَتْ كتواقيع للوثائق التجارية والقانونية؛ وذلك بدحرجتها فوق ألواح الصلصال تحتَ مجموعات المقاطع الصوتية السومرية المسمارية الشكل، والتشكيلات الواسعة في الأختام الأسطوانية والمناظر المتنوعة المنحوتة عليها، وما تمثله تلك المناظرُ

يجعلهـا موضوعـاً سـاحراً ومهمـاً للبحث، ويجعـلُ وظيفتهـا العمليةَ أقلَّ متعـةً فيها، ويوجد شـروحات مكتوبـة في بعضها يلقي الضوءَ مباشـرةً على معنـى التصاميم التي فيهـا. وقـد أطلعني هانز على صورة شـروحات أحـد الأختام التي وُجِـدتْ في القصر السـنةَ الماضية، كانـت مصنوعةً من أحجار الـلازورد، عليها أغطية ذهبيـة تُعرَضُ في نهايتهـا، وصـورةُ عابد قدَّمته إحدى الآلهة إلى الإله المتوّج، وقد كتبت حاشـية خلفَ التاج يُقرأ في قسـم منها: «يا تِشـپاك، الملـكُ كيركيري Kirikiri الجبّارُ حاكمُ إشـنونّا قـدّم ختمَـه لابنه بيلالامـا Bilalama». ولكنَّ معظمَ الأختام غيرُ مكتوب عليها شـرحٌ فلـم يكـن من حاجة لما كان ممكناً أن يكون عنوانـاً أو تعليقاً عندما يكونُ المعنى جلياً تمامـاً للرجـال الذين قطعوها وحملوها، فمثلاً لا يسـتطيعُ المرءُ دوماً أن يعرفَ بالنظر إلـى الختم للحظـة فيمـا إذا كان القطيعُ يغادرُ الحظيـرةَ أم أنَّ الرجـالَ يقومون بإطعام القطيـع أم أنـه لرجال يقومـون بالحراثة أو حتى لرجال يجلسـون لخـضّ الحليب في جرار كبيرة لاسـتخراج الزبدة منه، وقوالب من الزبدة المجففة موضوعة على الرفوف فوق رؤوسـهم، وفيما إذا كانت هذه المناظرُ للحياة اليومية أم أنَّها تحملُ معنىً طقسـياً مرتبطاً بالقطيع المقدَّس التابع للمعبد، إذ أنه من الصعب أحياناً أو حتى من المستحيل تفسير المنظر، ولكنه بلا شك ذو أهمية دينية.

وارتباطاً بهذه المشـاهد الدينية يجد المرءُ انشـغالَ الرجل الأبديّ وتفكيرَه بالموت والحياة، ترمز إليه الدورةُ المألوفةُ للطبيعة، فحبةُ الذرة النامية والحصاد يرتبطان بالإله الـذي هلـك ومـات في وقـت الحصاد ليحيا مـن جديد مع دوران السـنة ومـع البذور المبرعمـة. ردَّدْتُ في داخلـي: «ربيع الذرة» وكلما نظرتُ إلى تلـكَ الأختام بالتحديد أجدني أحياناً أدمدمُ أغنيةً شـعبيةً تعلمْتُها عندما كنتُ في روضة الأطفال، كنّا نقفُ في دائرة ممسـكينَ أيـدي بعضنا، وفي منتصف الدائـرة يقومُ بضعةُ أطفـال بتمثيل الأغنية تدرّبنـا معلمـة لطيفة فتيّة قد تكون أدركَت – وعلى الأغلب أنها لم تُدرك – أنَّ أصواتَ صيحاتنـا المرحـة في تلك الغرفـة المتعرضة للشـمس المليئة بأزهـار النرجس البري الناميـة، كانـت رجعاً لصـدى الأفكار الهائلـة الأولى التي مـرَّت بكلّ العصـور التالية

للعالم حتى وصلتْ إلى أقدامنا الصغيرة التي ترتدي الصّنادل المفتوحة.

كانت الأغنية تُقول:

كان يوجد ثلاثةُ ملوك جاؤوا من الغرب
يحاولون الانتصار،
وأقسموا بأقدس الأَيمان
بأن جون بارليكورن[1] سوفَ يموت.

أخذوا محراثاً وحرثوه فيه
وأهالوا على رأسه التراب،
وأقسموا بأقدس الأيمان
بأنَّ جون بارليكورن قد مات.

فتمدّد هناك لمدّة أسبوعين
حتى نزل قطرُ النَّدى عليه،
ثم نهضَ بارليكورن من جديد
وذلك فاجأهم جميعاً.

(1) الاسم بالإنكليزية: John Barley–corn ومعناه: جون حبّة الشعير. لكن هذه الأغنيّة الشعبيّة ذات الأصول السّكسونيّة تتغنى بنبات الشعير الذي يكنّ له لإنكليز أكبر تقدير، حيث أنه العنصر الأساسي لصنع الجعة والويسكي. ولا علاقة لذلك بفلسفة أديان الشرق الأدنى القديم.

وبقي هناك حتى منتصف الصيف
فبدا شاحباً ونحيلاً،
وباركيكورن طالت لحيتُه
فهكذا أصبحَ رجلاً.

فأرسلوا رجالاً يحملون مناجلَ حادة
ليقطعوه عند ركبتيه،
يا لجون بارليكورن المسكين
كيف عاملوه بأسلوب همجي.

يا جون بارليكورن يا خيرَ الحبوب
التي زُرعَت في المرج،
دعوه يموتُ فربما يعودُ للحياة
ويملأُ قلوبَنا بالغبطة.

فدعوه يموت، إذ ربما عادَ إلى الحياة ـ هنا في الختم أستطيعُ رؤيةَ الآلهة الأم تُظهر السوقُ المبرعمةُ من كتفيها، وهي تبحثُ عن ابنها الإله الميت المتمدد في ضريحه الجبلي، بعض الأختام تصوّرها وهي تساعده، وإحدى يديها على تاجه أو على يده أو على قدمه وهو ينهضُ من قبره، بينما تنمو شجرة غضَّة صغيرة من جانب الجبل الذي كان مسجوناً فيه.

والانشغال بالموت والضياع والأمل بالخلود نفسه يظلُّ موضوعاً يتواتر عبرَ القصة

العظيمة لأسطورة ملك أرك Erech (الوركاء) المعروفة بأسطورة جلجامِش[1].

كان لجلجامِش صديق غريَب نصفُ رجل اسمُه إنكيدو Enkidu استطاع كلاهما القيامَ بأعمال بطولية عظيمة ولكن إنكيدو مات عقوبةً لجلجامِش الذي أغضب بغطرسته الآلهة، وجلس في عزلته ليكتشفَ قدرَ استطاعته سرَّ الخلود، فقال: «أنا نفسي سوف أموتُ، أفلن أكون وقتها مثل إنكيدو؟ قد تغلغلَ الأسى إلى روحي بسبب خوفي من الموت الذي قد سيطر عليَّ، هل ارتحل عبر البلاد؟» وأثناء بحثه هذا قابل أوتانَپشتيم Utanapishtim الذي قال له إنه لن يستطيعَ الفرارَ من الموت، وإنه هو نفسه أي أوتانَپشتيم كان الخالدَ الوحيدَ الذي اكتسبَ الخلودَ، وقد نجا بفضل رحمة الآلهة به، وأخبر جلجامِش كيف أنَّ الآلهةَ أرادت إفناءَ الحياة على الأرض، فأرسلت طوفاناً عظيماً غطَّى وجهَ الأرض، وكيف أنَّ الآلهةَ وجدت أنه هو وحده قد بقي على قيد الحياة؛ لأنَّه أبحرَ في سفينة كان قد بناها بنفسه فوهبوه الخلود. نحن نعرف أوتانَپشتيم باسم آخر في كتاب قرأنا عنه فيه وهو سِفر التكوين وكان الأطفالُ يلعبون على أرض روضة الأطفال بألعاب حُفرَ عليها شكلهُ وشكلُ عائلته، ويلعبون ببيته العائم أيضاً[2].

أشفقَ أوتانَپشتيم أخيراً على جلجامِش، وأخبره أين ينبتُ نباتُ الخلود في قاع إحدى البحيرات الكبرى، فشدَّ جلجامِش على رقبته أثقالاً، وغاصَ بجرأة إلى القاع، وأمسكَ بالنبات، ولكنَّ ذلك ذهب أدراجَ الرياح، إذ أنه بعد ذلك وأثناء أسفاره ترك النباتَ دون حراسة بينما كان يستحمُّ في البركة، فجاءت أفعى وأكلته وضاع أملُه بالخلود إلى الأبد.

---

(1) المفترض في كتابة هذا الاسم استخدام ما يدلّ على جيم لهويّة (كالمصرية أو اليمنيّة) وليس الجيم الشجريّة المشبعة كما نلفظها في القرآن الكريم. أي بلفظ: Gilgamesh. وعلى القاعدة التي أتّبعها في هذه السلسلة بكتابة الجيم الحلقيّة (غ) كان بودّي كتابة الاسم: غلغامش، غير أن الذي شاع فيه: جلجامش، فتركته هكذا على كره. وحبّذا لو تحلّ لنا مجامعنا اللغوية أمر هذا الحرف الشائك.

(2) من الواضح أن المؤلفة تعني سيّدنا نوح، الذي ارتبطت نبوّته بحادثة معاقبة الله تعالى للعصاة من البشر بكارثة الطوفان. لكن محاولتها الإقران بين الشخصيتين تتضمن معنىً واضحاً من الإلحاد.

لم يُشرْ إلى جلجامِش بشكل مؤكد في الأختام الأسطوانية، ومن اللافت للنظر عدّه بطل الأساطير في تلك الأيام، ولكن قد يكون ممكناً أن يكونَ الأشخاصُ المنقوشةُ رسومهم على جانبيَ الحيوانات المتناحرة التي نُقشت على الختم الأكادي الأول الذي لمسته وهي صورةُ الإنسان وصورةُ نصف الإنسان تمثل جلجامِش وإنكيدو، ولكن لا يوجد ما يثبت ذلك. ويوجد هناك ختم عليه صورة بثقلين كالأوزان على كتفيه، ربما هو البطلُ الذي كان يستعدُّ للغوص للبحث عن النبات، وهناك نقش آخر عليه أشخاص على متن قارب أحدهم يرفع نباتاً نحو الآخر الذي كان متوَّجاً، وقد يكونا جلجامِش وأوتانَپشتيم الخالد (أو نوح).

* * *

في إحدى الأمسيات حينما كانت راحيل تروي لي مقاطع من ملحمةَ جلجامِش Gilgamesh، دخل هانز ومعه اللُّقى وقال: «لقد وجدوا قدراً صغيراً مملوءاً بأشياء في أحد البيوت، وسوف نفرغه هنا على الفور»، ثم ناولني ختماً أسطوانياً مصنوعاً من حجر كلسي زهريّ اللون «ماذا ستصنع بذاك؟ هاك بعض المعجون».

أدرته مرات عدة وأنا أغرز المعجون فيه، فقد أصبحتُ معتادةً على قراءة النقوش من الداخل إلى الخارج، استطعْتُ رؤيةَ خطّ متواصل لحيوانات صغيرة لها قرون مرتدة إلى الوراء، كانت سيقانها قد أُخفيت تحت خطوط ثلاثة، لها أو أربع فتحات صغيرة يلامس بعضُها بعضاً، كانت سهلةً.

قلتُ: ”Jemdet Nasr“ جِمدِت نصر[1].

قال هانز: «أصبتِ»، وأضاف، وكنت أشعر بالسعادة داخلي والمهارة التي اكتسبتها مؤخراً:

«وماذا أيضاً؟ لقد وجدها هال اليوم».

نظرتُ إلى وجهه المتحرك يتموجُ بين المتعة وقلة الصبر، لقد نفّذ هذه الحركات

---

(1) ترد التسمية بالعربيّة في بعض المراجع الحديثة: جمدة نصر.

بحاجبه الأيسر على ما أعتقد، فقد كان يرتفع بشكل هزلي فيخفف به من تعبير النصف الآخر من وجهه الذي كانت تبدو عليه خطوط أكثر جدية، وأحياناً خطوط تجهُّم. فتماسكْتُ وقلت: «هل تعني ماذا يفعل هذا الختم في بيت أكادي؟».

أجاب: «نعم.. بالضبط، فليس اعتيادياً أبداً أن يجدي أيُّ شيء قديم مثلَ هذا في مستوى العهد الأكادي، لابدّ أن تكونَ أقدمَ منه بـ 600 سنة على الأقل، وبالطبع فإنَّ عدداً كبيراً من الأختام المصنوعة من المعدن الصُّلب بقيت إلى عهود متأخرة، وبقيت قيدَ الاستعمال إلى أزمنة بعد العهد الذي صُنعت فيه».

قلت: «أنا أملكُ ختماً في البيت تعود ملكيتُه إلى والد جدي، فالأحرفُ الأولى من اسمه كأحرف اسمي الأولى، فسمح لي والدي أن أستعملَه».

أجاب: «ها هو ذا.. الشيء ذاته قد حدث، لقد جاء القدر».

دخل هال يتبعه عامل صغيرُ السنّ يحمل صندوقاً كبيراً بحذر، أخرج منه قدراً فخارياً، ووضعه على المقعد، كان الغبارُ ينهمرُ من الشقوق، ثم تدفق عندما رفع هانز بحذر شديد قطعةً كبيرةً منه. فظهرت في داخله المغبر قطع غريبة من شرائطَ معدنية وقضبان رفيعة. فبدأنا بإخراجها واحداً واحداً، فتدحرج على المقعد ختم أسطواني، ولكن سطحه كان بلا نقوش.

ثم قال هانز: «ها» وهو ينظر إليه، وكان يتلمسُ بأصابعه قضيباً حديدياً صغيراً له نهاية منبسطة، وتابع «ختم غيرُ كامل الصنع وهاهنا واحد مكتمل مصنوع من حجر اللازورد، وهذه أدوات، إنها معداتُ صانع الأختام».

وأظهرَ لنا كيف أنَّ القضيبَ الذي كان يمسُك به والذي فيه حافة حادة لثقب الختم بشكل عمودي كانت نهايته الثانيةُ مربعة، وقال: إنَّ هذا كان يركب على عمود خشبي يحمل خيطَ قوس للإسراع في قطع الأطراف، وما زالت فتحاتُ المسامير تثقبُ في الصين بالطريقة نفسها إلى يومنا هذا.

كان في القدر أيضاً عدةُ أدوات حفر على النحاس، وكان هناك بضعُ خرزات لم

تُثقب بعد. قال هانز: «سنجعلُ پيير يرفعُ طبقات الصدأ عن الأدوات كي تظهرَ الأطرافُ الحادةُ بوضوح، إنَّ ذلكَ ممتع لأبعد حدّ».

كان هنالك شيء يجذبني في ذلك الكنز الصغير المغبَرّ داخلَ القدر، إنها اللمسةُ البشريةُ، مرةً أخرى صوت يتكلم عبرَ العصور، كنت أسمعهُ عندما أرى، وأشعرُ بالخصوصيّات الصغيرة الشخصية للناس القدماء، فهذا الختمُ اللازوردي قد قلّبتْه ساعةً تلوَ الأخرى يدٌ سمراءُ دافئة، بينما كانت الأداةُ الصبورةُ تحفرُ وتنحتُ على سطحها، وهذا المثقب قد غُرس مرةً في قلب الختم، وهو يلفُّ تحتَ أنامل العامل الماهر نفسه الذي مات منذ 4000 آلاف سنة.

بينما كنتُ ما أزال أنظرُ إلى تلكَ الأشياء وألمسها قبل أن يُزالَ عنها الغبارُ الذي غطاها لفترة طويلة ظهر جايك عند مدخل الباب، وأقبل مسرعاً نحو هانز، كان وجهُه دائمَ الهدوء وقد ملأتْه تعابيرُ الإثارة المكتومة وقال: «انظر هانز»..

وسلَّمه ختماً أسطوانياً آخرَ فكانت لحظةَ صمت، ثم جاء الهولنديُّ المتدحرجُ المدهشُ ثم قيل: «راحيل انظري إلى هذا!».

نظرَتْ راحيل وندَّت عنها صرخةٌ صغيرة، وذهبتْ نحو شريط من البلاستيسين، ولم يطلبْ أحد مني النظرَ إلى أيّ شيء.

راح الختمُ الأسطواني الصغير يتدحرج عبرَ الشريط، ونحن جميعاً نحملق نحوه إلى الأسفل إلى الموكب الغريب الذي سار عبر البلاستيسين، والذي يتألف من فيل ووحيد قرن وتمساح.

قال هانز لهال: «كنْ شاباً لطيفاً واعثرْ على بيتي واطلب إليها الحضور».

فذهب هال خارجاً.

علَّق جايك قائلاً: "Mohenjo Daro" موئن جو دَرُو[1].

(1) موئن جو دَرُو: عبارة بلغة السِّند تعني: أكمة الأموات، وهو اسم إحدى أكبر مواقع الاستيطان البشري في حضارة وادي السِّند التي ازدهرت في القديم حول نهر السِّند، ويعود تريخها إلى

فأجابه هانز: «نعم».

قالت راحيل: «أقدام الفيل».

فأجاب هانز: «متطابقين تماماً».

كانوا جميعاً متهيّجين بشدة. أمّا أنا فلهول المفاجأة كدتُ أنفجر بالصّراخ، وإذا بِبيتي تأتي وهي تركض متحمسةً أيضاً حماساً شديداً.

ثم دارَ حولي هانز وشدَّني إليه بقوة، وصاح بعيون لامعة: «هل تعلمينَ ماذا يعني هذا؟ لم تكنْ تلك الحيواناتُ معروفةً في هذه البلاد، وهذا الختمُ مطابق إلى حدّ كبير لختم كان قد وجد في الهند في مكان ما في وادي السِّند Indus Valley، ولا بدَّ أنه جُلب إلى هذه البلاد مما يثبت بلا ريب أنَّ لمدينة إشنونّا علاقات مع الهند، قبل تاريخ 2000 قبل الميلاد، وأنَّ لها علاقات مع الهند.

نظرتُ إلى الشيء الصَّغير المغبرّ الذي يمسكه بين إبهامه وسبّابته ومن ثمَّ إلى الطاولة.. لم يكنْ هذا الشيءُ الصّغيرُ قد كشف في رحلته فوق البلاستيسين عن الحيوانات السائرة فحسب، بل إنه كشف أيضاً عن صفحة جديدة من التاريخ.

* * *

حوالي 2600 ق.م.

الفصل السادس

ثمّـة بناءٌ ضخم شُـيِّد في شـمال التلّ خلـفَ منطقة البيوت الخاصة، كان سِـتون قد تجاوز الرابيةَ الصغيرةَ مع رجاله، وأصبح الآن على منحدرها الشمالي الأخفض حيث تنبسـطُ أفقيـاً بالتدريج في مسـتوى الصحراء القاسـية في العصور الحديثـة، كان البناءُ يعودُ للعصر الأكّادي، وكان جيداً جداً في تناسـبه وتصميمه، ممّا جعل هانز يقرّر فوراً أنـه لا بـدَّ أن يكونَ هو القصرُ الـذي يخصُّ الأميـر الأكّادي. وبجداره الشـمالي قربَ سور المدينة العظيم يمتدُ بشكل تقريبي شمالاً وجنوباً مستطيل ضخم بجدران شديدة البراعـة تحتـوي على مجمّع غـرف، حيث قامت خارجهـا تماماً في زاويتهـا الجنوبية الغربيّة أجزاء لمعبد أكّادي صغير.

أكثـرُ معلم مثير قربَ القصر كان أنابيب المياه. وقد امتدَّ زقاق ضيق خارجَ الجانب الشرقي الطويل جداً، وهو مرصوف ينتهي بمدخل في حائط المدينة. ومن هذا الزقاق كان النـاسُ يدخلون إلى القصر. أزاح سِـتون أحجارَ رصيفه، ووجد شـيئاً مدهشـاً في الأسفل يمتدُّ على طول الزقاق تقريباً، كان مصرفَ مياه مقنطر يبلغ ارتفاعه ياردا تقريباً، بُني بشكل جميل من آجرّ مشوي، مع انحراف عليه، بحيث يمكن أن يُبهجَ قلبَ مفتش الصحة الأكثر دقة، الذي لا يتوقع أيَّ شيء في بلد رفاهية القرن العشرين، وهو ينحدر باطراد، ويعبر بشكل مستقيم عبْرَ مدخل المدينة إلى الخارج في الأرض الخلفية.

تختـرق الجـدارَ الشـرقيَّ للقصـر خمـسُ مراحـلَ لمصـارف ميـاه بحجـم أصغر، وتتصـل بالمصـرف الأساسـي فـي الزوايا اليمنـى؛ وفي داخـل القصر وبشـكل كامل قربَ جانبه الشـرقي وُجدت مجموعة مؤلفة من خمسـة حمامات وستة مراحيض، لم

تكـن الحمامـاتُ أكثرَ من ألواح غسـل بالتأكيد، ولكن كان كلُّ واحـد عبارة عن منصة مصفوفـة بعنايـة من الآجر، مغطـاة بقار bitumen عـازل للمياه، وينحـدر باتجاه ثغرة تحمل الماءَ بعيداً. ولكنَّ الحمامات كانت أمراً متقناً بمقاعدَ آجر، وكلٌّ واحد فيه جرةُ ماء كبيرة بُنيت في الأرضية الآجرّية، وفي واحدة منها أو اثنتين كانت المغرفةُ الفخاريةُ مـا تزال ملقاةً وكانت تستخدمُ لغسـل المرحاض، بنيت جميعُ الترتيبات بشـكل جيد قبل (2000) سـنة ق. م؛ وهي لم تكشف فحسب فهمَ تلك الأيام المبكرة للنظافة على أنها مهمّة وأنها مشـكلة ينبغي أخذها بعين الحسـبان وحلّها، ولكن أيضاً كانت تملك المعرفةَ العمليةَ وإمكانيةَ تحقيق كليهما بفعالية تامة.

احتوى القسـمُ الشـماليُ من القصر منـزلَ الحاكم؛ حيث ضمَّ قاعـةً لمدخل صغير فيه كتلة للغسـل أشـبه بالمرحاض في أيّ بيت حديث، ويمكنُ للزائر المرورُ من غرفة المعيشـة الرئيسـة الكبيرة، حيث يتم اسـتقبالُه؛ وفي الجانب الشـرقي لـه امتدَّت غرفةُ نـوم الحاكـم، وحمّـام ومرحاض، وكانـت هناك سلسـلة جميلة لغرف مـلأت الزاوية الجنوبيةَ الغربيةَ للقصر، في قسـمه الأقرب إلى المعبد. وفي الجانب الآخر من القصر يشـقُّ المرءُ طريقَـه عبرَ غرف ملئت بحمامات كثيرة، ليخرج إلى مجمع يشـكل أماكنَ المعيشـة لسـيدات القصـر. وجدنا خـرزات عديدةً ملقـاةً على أرضيـات تلك الغرف وأدوات تجميـل حُفظـت بعنايـة داخلَ محارات بلـح البحر، أحمر شـفاه في البعض، وكحل أسود في البعض الآخر؛ كانت تُستخدم لتجميل الحواجب والأهداب. ووجد مشـط عاجـيّ ملقىً في زاوية إحدى الغرف، وفي أخرى بقايـا لما كان يمكنُ أن يكونَ حرفةً يدويةً أو هوايةً تليق بسيدة لملء أوقات الفراغ.

وأُلقيتْ هنا وهناك قطع صغيرة من عرق اللؤلؤ قطعت بأشـكال مختلفة مع ألواح رقيقة من القار بالقرب منها، ضُغطت مشـكّلةً شـكلاً مضحكاً؛ كمـا كان هناك غطاء صغير مدوّر صنع بهذه الطريقة، وكان ممكناً أن يكونَ جزءاً من صندوق صغير لحفظ حلي أو مراهم.

فـي صباح أحد الأيام كنت وبيتي مشـغولتين بإنقاذ تلـك القطع الصغيرة كي يصبحَ بالإمـكان تنظيـفُ تلـك الغرفة مـن الغبار لتكـون جاهـزةً لريغمور وكاميرتهـا. وعلى

الأرض المستوية في الأسفل تمكّنّا من مشاهدة يون على حماره الصغير يقوده فتىً موثوق من العائلة حول ضواحي إشنونّا القديمة. وبعيداً في الجانب الجنوبي الغربي للقصر كان سِتون الآن ينظّفُ أسفلَ الغرف ليرى ماذا يوجد تحتها.

قطعَ أحدُ العمال الأرضَ في أكثرَ من غرفة جنوبية، وأعمل ملقطهُ في كسارة ناعمة، وجعل سِتون يرى أين تنخسفُ الأرض قليلاً، أوقفه سِتون ومرَّر يدَه عبرَ الغبار الرخو في المنخفض الضَّحل. وأخرج إلى السطح حليةً من عقيق أحمرَ وقطعةً رماديةً باهتةً لشريحة معدنية، وقف وأنعم النظرَ في قطعة المعدن لدقائق، ثم أرسل ولداً بملاحظة كُتبت على عجل إلى بيتي ليسألها إن كان ممكناً لها المجيء، كنا لتوّنا قد التقطنا آخرَ قطعة مرصعة باللؤلؤ، لذا لحق كلانا الصبيَّ عائدين إلى حيث كان سِتون منحنياً قربَ حفرة من الأرض. رفع يدَه عن الكسرة، وسقط الغبارُ مثلَ الشلال من بين أصابعه الطويلة، وبقي على يده قرص رمادي مستدير وبعضُ الخرزات.

سأل بيتي: «هل تحبين أن تحققي في هذه؟ إنها حفرة صنعت عمداً في الأرض ـ وقد وُجدت قطعة من فضة، أعتقد أن هذا القرصَ من الفضة أيضاً، ألا تظنين ذلك؟ يبدو إلى حدّ ما كما لو أنَّ شيئاً ما خاصاً قد خُبئ هنا، لقد حان الوقت لاستراحة منتصف النهار فلربما يمكنك أن تقومي بذلك في فترة ما بعد الظهر».

قرَّرْنا أنه يجدر ببيتي الذهاب في الحال بعد الغذاء لتبدأَ بتنظيف الحفرة في الأرض، بينما أعمل أنا في البيت إلى أن يحينَ وقتُ نهوض يون من نومه؛ ثم تأتي وتأخذه معها، بينما أكون قد تابعتُ تنظيفَ الحفرة، إذا كنت لم أنتهي من تنظيفها بعد.

كنت أقوم لتوي بغلق سحّاب السترة الجلدية القصيرة الصغيرة عليه حوالي السّاعة 2:30 عندما دخلَتْ بيتي وقالتْ بسرعة: «لقد أخرجتُ الكثيرَ منها، إنها جميلة، طَميرة من المجوهرات، ولكن لا يزال مقدار كبير هناك ـ بعضُها هشّ جداً، تتحطم بسهولة جداً فتعاملوا معها بهدوء».

قال يون وهو يلفظ كلمةَ مجوهرات بلكنة: joolery «أريد رؤيةَ المجوهرات». ولم

يكنْ قد فاتَه من الأحداث شيئاً.

قالت: «إنه بعيد جداً بالنسبة لك، سنبقى هنا، وسنلعبُ في الفناء».

ردَّ وقد توسعت عيناه، وتدلَّى فمُه: «ولكنني أرغُب جداً برؤية المجوهرات، إنني أريد ذلك».

قالت لي ييتي والتي كانت هي نفسُها تريد رؤيةَ المجوهرات مرةً أخرى: «جيد ـ حسناً، سنذهب ببطء»، ثم خاطبتني: «ولكن من الأفضل أن تسرعي. جميعُ الأشياء التي ستحتاجينها موجودة هناك فوق».

انطلقت ذاهبةً بسرعة، لقد كان طريقاً طويلاً جداً للوصول إلى النهاية الجنوبية للقصر، مروراً بالإصطبلات، ومروراً بمعبد غِملسين Gimilsin أعلى المرتفع الحجري أمام البيوت ـ ولوَّحْتُ بيدي لهال وهو منحن فوق طاولته التي مازالتْ باقيةً كما هي ـ ثم إلى الأسفل مرةً أخرى في الجانب البعيد حيث يقع القصر ويعجُّ بالعمال، وسِتون ينتقل بينهم، صارماً ومتمهلاً. وفي الخلف بعيداً تقع الصحراءُ التي كانت يومَها شديدةَ الاصفرار في شمسٍ ما بعد الظهر، تمتدّ بعيداً إلى الأفقِ الشماليِ البعيدِ نحو السماءِ الزرقاءِ الصافية.

كان عرضُ الحفرةِ في الأرضِ ما يقاربُ القدمين، وأصبحَتْ الآن عميقةً جداً. كان على جانبِ الحافة صناديقُ كرتونيةٌ صغيرة، تحتوي كلُّ واحدةٍ منها على أنواع مختلفة من الأشياء كما صنّفتها ييتي. فجلستُ على الأرضِ وتفحصتُها فوجدتُ قطعاً بلونٍ أزرقَ قوي جميلٍ على شكلِ إسفين بلونٍ عرفت أنه حجرُ اللازورد؛ وقطعاً أكثر بشكل إسفينٍ، بالحجم نفسِه تماماً، بلونٍ رمادي باهت، والذي قال سِتون إنه كان من الفضة ـ وخرزاً من العقيق الأحمر والفضة والعقيق اليماني، والكثيرِ من أقراصٍ دائرية من الفضة، أقرب ما تكون لقلائدَ كبيرة، ولكلٍّ واحدة منها شريطٌ فضيٌّ صغيرٌ عُلِّق بالحافة وثُقِب ليأخذَ صفوفاً متعددة من الخيوط. كان هناك دبوسان[1] طويلان

(1) الدبوس: مفردة دخلت العربيّة، وفي اللغة: الشابك.

بـرؤوسٍ كبيرة من اللازورد والفضة، وتعويذة أو اثنتان من اللازورد، بدَتْ كما لو أنها كانت ثيراناً، ففكرتُ أنّه كم كانت جميلةً تلك التركيبة من اللون والمعدن عندما كانت جديدةً ومتألقةً: البريق نصف الخافت للعقيقِ الأحمرِ والذهبي، واللون الأزرق الداكن الكامد للازورد، حيث ظهرَ كلاهما مع وميضِ الفضةَ ولمعانها؛ وما كنتُ لأدركُ وقتَها كيف يمكن أن تبدو متألقةً مرةً أخرى، ولكن بفضل مهارة پيير الكيميائية، وترميم ييتي عادت تماماً كما لو أنها في اليومِ الذي صُنعت فيه.

في تلك الفترة كنتُ هنا منبطحةً على الأرضِ أنظفُ بحذرٍ الغبارَ وأضعه في صندوق كنـتُ قد وضعتُـه داخلَ الحفرة؛ ولـدى امتلائه رفعتُه وسـكبتُ المحتويات في مُنخلٍ ناعم في حالِ فقدانِ شـيءٍ ما. وفي كلِّ مـرة كنتُ أفعل ذلك، تبقى خرزاتٌ صغيرة في الشـبكة، وأتساءل بمَ كانت تستعمل تلك الخرزات؛ فقد كانت صغيرةً جداً أصغرَ من أن تُنظمَ في خيط بين الحبات الكبيرة. ثمَّ اصطدمت فرشاتي بشيءٍ قاسٍ، نفختُ لعدة دقائـق، وظهر بريقُ لـونٍ أزرقَ غامقٍ من خلال الغبار، نفختُ مرةً أخرى بلطف إلى أن أوضَحْتُ حدوده الكلية. ثم زلقتُ شـفرةَ سـكينٍ عريضٍ على جانبها، وأعملتها هناك فـي الأسـفلِ تدريجياً إلى أن دعمتُ الشـيءَ الصغير. وأخرجتُها مـن الحفرة، ونظّفتُها بلطفٍ بفرشاة صغيرة ناعمة.

لقـد كانت طائراً بجناحَيـن ممدودين، والنهايةُ الواضحةُ لأحـد الجناحين اللازورديين كانـت متوّجـةً بالفضة. أما الجنـاحُ الآخرُ فقد ضاعَ غطـاؤه ولكنه ثُقبَ بثَقـبٍ صغير قربَ طرفـه بشـكلٍ واضحٍ من أجلِ بعضِ الملحقات، كان الـرأسُ من الفضة أيضاً، لكنه لم يكن رأسَ طائرٍ، رمادي ومغبرّ وممهّد وعلى الرغم من أنه كان في سـجنهِ الطويلِ فقد اسـتطعْتُ رؤيةَ أنه كان رأسَ أسد، واستطعتُ رؤيةَ شيء آخر أيضاً: سلكٌ منظمٌ ما زال يمرُّ عبرَ الرقبة الفضيـة وعبرَ الثقـبِ في الرقبة اللازوردية لربطِهما معاً، وعلى السـلك واحدة من خرزات العقيقِ الأحمرِ الصغيرةِ التي وجدتها، كانتِ الخرزاتُ ببساطة عبارة عن اللمسات الأخيرة لإبـراز تأثيـرِ لون الفضة واللازورد معـاً، وبما أنني لم أحاولْ أيضاً إخراجَ التميمة بواسـطة إصبعٍ أو إبهام فقد كان من المحتملِ أن ينكسرَ السلكُ بمجرد اللمس.

نظـرتُ داخلَ الصندوق حيث وضعتْ ييتي جميعَ قطعِ الفضة، واكتشـفتُ ما كنتُ أتمناه: قطعةٌ صغيرةٌ مثلثةُ الشـكل، تشـبه حافظةَ أقلامٍ سُـوِّيتْ بشـكلٍ طفيف، وكانت هناك فالتقطتها وأزلقتُها على الجناح الذي فقد غطاءه الفضي. لقد ناسـبَتْه تماماً، ولقد كنـتُ أعلمُ حتى الآن من تصميمات الختم الأسـطواني ماذا كانت تمثلُ تلك التميمة، لقد كان إمدُغود Imdugud، النسـرُ برأسِ أسـدٍ رمزَ إلهِ الخصـب، ونينورتا Ninurta، ملـك النبات وقاتل الوحش، ثم وجـدْتُ تميمةً أخرى أصغرَ لإمدُغود؛ هذه المرة كان رأسُه والجسدُ والذيلُ كلُّها من الفضة، وأجنحتهُ وحدَها من اللازورد.

وصلت ييتي وهانز معاً وكان يون بينهما مبتسماً، فأخذت ييتي مكاني على الأرض، ووضـع هانز يدَه على التميمة، ووقف يون مشـاهداً وواضعـاً بهدوء يديه خلف ظهره، كمـا تـدرَّب على فعلِ ذلك في كلِّ مرةٍ يكون فيها قربَ أيِّ شـيٍ أثري. كان منهمكاً في مشـاهدةِ الكِسَـرِ الصغيرة القادمة من الحفرة واحدةً تلو الأخرى. وقفنا جميعاً حولها، عندما كانت ييتي مرّرت فرشاتها أخيراً حول القسم الداخلي للحفرة.

بدأَتْ تقول: «أعتقد أنها هذه هي كلُّها، لا.. هاهنا ما يزال شيءٌ ما في القاع».

تحركـت الفرشـاةُ بحـذر إلى الأمـام والخلف عبـرَ الغبار، واسـتطعْنا رؤيةَ شـكل دائري.

قالت: «أريدُ شيئاً ما مسطحاً تماماً، إذ لا أجرؤ على رفعها».

كسـر هانز حافـةَ غطاء صنـدوق، وناولها إياه، ووضعها في الأسـفل قربَ الشـيء المسـتدير، وبعنايـة فائقة رفعت حافتَه بسـكين، وزلقـت قطعةَ الكرتون القوية أسـفل منها، كانت شـيئاً فشيئاً تنظف وتنفخ وتلاطف القرصَ بعيداً عن صدعه، وكانت قادرةً أخيراً على رفعه للأعلى إلى مستوى الأرض، واستطعنا رؤيتَه للمرة الأولى في وَضَح النهار. لقد كان حليةً جميلةً مصنوعةً من الفضة بقطر خمسة إنشات تقريباً، له نتوء في المركز، ومازال حتى الآن مجللاً بالغبار كما كان، واستطعنا مشاهدةَ وجود نسخ كبيرة لكلّ الأقراص التي وجدْناها من قبل، تمتد بين النتوء ومحيط الدائرة. على أربع دوائرَ

متحدة عند المركز بصياغة تخريمية بالغة الدقة.

بيـدَ أنَّهـا لم يكن لها تعلُّـق بالإطار؛ كانت كلُّهـا قد جُمعَتْ معـاً، ووصلت بالخرز والتمائـم، ولكـنَّ حجم القرص الضخـم ووزن يُظهران أنه قد يكـون عقداً غير عاديّ. حمـل هانز تميمـةَ إمدُغـود الكبيرة في يده، واسـتدارَ لينظـرَ نحو أجزاء جـدار القَصْر الواقع على مستوى الأرض من المعبد الصغير، والذي كان على بُعد عشرة ياردات أو أكثر من تلك النقطة، وبرز في زوايا يمينية.

قـال: «سِـتون! هـل أخـذت ريغمـور جميـعَ الصور التـي نريدُهـا للمعبـد كما هو موجود؟».

قال سِـتون إنَّه شاهدَ مسـودات الصُّور ذاك الصَّباح، وكانت كلُّها جيدةً جداً. وعلى الرَّغـم ذلـك فـإنَّ أجزاءَ البناء لـنْ تُقبلَ إلا إذا عُـرفَ عن طريق سـجلاتها المرئيَّة ـ أي الصور ـ بأنَّها مُرضية بشكل تام.

تابع: «جيد إذاً، هل سـتبدئينَ النزولَ إلى الأسـفل هناك بـدءاً من الغد؟ فأنا متلهّف جداً لأعرف ماذا يوجد في الأسفل؟».

قالـت ييتي وهي تنظرُ إلى قطْعَة مُعقَّدَة من الفضَّة على راحة يدها، والتي فيها قلائدُ طويلـة لا تزال مرتبطَـةً بها هنا وهناك: «أعتقد أنه باسـتطاعتنا عمل ترميم جميل لهذه، أسـتطيعُ رؤيـةَ التَّنظيم الأصليّ للقَلائد هنا تماماً، وسـنكون قادريـن على إعادة بعض القطَع المخلخلة. ألـم تتمكن من إحضار پيير ليقومَ بالعمل في الفضة؟».

أجـاب: «نعـم – ممتاز، ومن بعـد ذلك تعيدينَ بنـاءَ مجمل الأشـياء وتعيدينها إلى وضعها السابق، وبإمكان راحيل عمل رسم بالقياس الطَّبيعيّ لها».

بعـد مضـيّ بضعة أيام، وعندما عاد ماك وزوجته وهام إلـى خفاجة بقي پيير متخلفاً عنهما، واختفى في مخبره الصَّغير جانبَ الغُرفة المظْلمَة (غرفة تظهير الأفلام). حيث رأينا بعدها كنزَ المجوهرات، وقد كانت الفضَّةُ تشـُّع مرَّةً أخرى، وومضَ واتَّقَدَ العقيقُ الأحمـرُ والـلازورد، كانت نظيفـةً الآن، ووجد القـرصَ الكبيرَ مثقوباً فـي جانبيه، كي

يأخذَ ثلاثةَ أسلاك من الخرز، واعتقد هانز أنها تشبه كثيراً قلادةً طقسيّة؛ وأن ذلك القيدَ الفضيَّ المعقودَ بقلادَة طويلة رُبطت به على طول إحدى حافتيه كان عصابَةَ رأس، بدأت يبتي بصبر لا ينفد بتهيئة المئات من القطع في كل متَماسك، مثبّتةً في البداية التمائمَ بسلك وقطع العقيق الصغيرة بسلسلَة من الخرز الأزرق، وأخذتْ تملأُ جميعَ الفَجَوات على طول حافَّة عصابة الرّاس مع القَلائد المناسبَة المَصْنُوعة من الفضَّة واللازْورد.

استغرقت أياماً قبل أنْ تكونَ جاهزةً لتسليمها لراحيل التي كانت مبتهجةً لهذا التنوّع المرحّب به لعملها اليَوميّ الاعتيادي، لأنَّها كانت فنّانةً بارعةً فقد قامت بوضع المجْمُوعَة كاملةً على لوح الرَّسم، فوضَعَتْ عصابةَ الرّاس في الأعلى، ثمَّ سلسلةَ التمائم، وبعدها قلادةً من أوتاد مُتَعاقبَة بين الفضَّة واللازْورد، وبعدَها قلادَة عظيمةً لامعَةً محْمولَةً بين خطّ حليها الثلاثي. ها هي ذي تستلقي هناك وتلتمع، بينما استقرت راحيل وهي تدندنُ بسعادة؛ لتعيدَ بناءَ ألوان ما كانت قد توصلت إليه بشكل مدهش.

في تلك الأثناء كانَ بناءُ المعْبَد الأكّادي الصَّغير قد تَلاشى إلى الأبد، وكان رجال سِتون من الشّرقاطيّين يتتبعون أثرَهُ في مستوى أدنى وأعمق، وذات صباح كنت أرقُبُهم في تلك المهمَّة عندما قال هانز فجأة (وقد كان جاثماً[1] فوق الخندق الذي ظهر منه رأس الشّرقاطيّين): «هذا هو.. محدّب مستوٍ planoconvex».

عُدْتُ بذاكرتي إلى محطة هامستِد تيوب Hampstead Tube Station، ووجَدْتُ نفسي أنطلقُ باتجاه شارع فيتزجون Fitzjohn’s Avenue – هل من الممكن أن تكونَ قبل خمسة أشهر فقط؟ شعرتُ مثلَ يون: «أريدُ رؤيةَ الآجر المحدّب المستوي، وقد فعلت».

قال لي هانز مشيراً نحو الأسفل إلى الحائط في الخندق: «هل تشاهدينها؟» وضع الآجر بشكل منحدر مرَّةً باتجاه ومرَّةً باتجاه آخرَ، وتوجدُ واحدة هناك واحدة غير ثابتة ـ سأحضرها». أزالَ آجرةً وناولني إيّاها، كانت مستويةً في القاعدة، ومحدَّبَةً في القمة،

(1) جاثماً: جثم: لزم مكانه فلم يبرح. (القاموس المحيط، ص 1403).

صُقلَت الحَوافُّ الخَشنَة، وكأن أصابعَ قد رُسمت بسرعة عبْرَ الطّين؛ وكانت هناك علاماتُ إبهامَين واضحَين عليها أيضاً. نظرْت إلى هانز.

قلت: «أعلم كيف صُنعت هذه الآجرات، وكيفَ بُنيَت الجُدرانُ بها، ولكن ماذا يعني هذا؟ أظن أنه يجدرُ بي أنْ أعْلَم».

قَال بصَبر، وهو يَنظُرُ كما لو أنَّه يَتساءَلُ كيفَ يُمكنُ لأحد ما الجُلوسُ لمدة شَهر يدَوّنُ ملاحَظات عنْ أيّ شَيء دونَ أنْ يعلمَ ماذا تعني كلها – إنها تعني أننا وصلنا إلى عصر السّلالة الحاكمة الباكرة. يَتطابَقُ استخدامُ هذا الآجر تقريباً بشَكل تام مع ذاك الوقت، من بدايات السلالات الحاكمة وفي الوقت، حوالي 6000 سنة لاحقاً، عندما اجتاحَ الأكّاديّون السّومريّين.

وعندما تجدُها يمكنكَ أنْ تقولَ بكلّ ثقَة السُّلالَةُ المبكرة، تشيرُ تلك الآجرةُ العلويَّةُ أنَّ المعبد السّومري الصِّرف الأخير يقع هنا ـ وفوقه كان المعبدُ الأكاديُّ الأقدم عهداً بانسبة للمعابد الأكّادية».

وهكذا كان الأمرُ «هل ستجدُ أبنيَةً تعودُ إلى عصر السّلالة الحاكمة الباكرة تحت القصر أيضاً؟».

قال: «لا ريب، على الرَّغم من أنَّ طَميرةَ المجوهَرات وُجدَتْ في أرض أكّاديّة، لكنَّها تَتضَمَّن ملامَح لمجوهرات تنتَسُب إلى زَمَن أقْدَم؛ فالأقْراصُ الصَّغيرَةُ هي فواصل حقيْقيَّة، مع قطَع جُمعَتْ من أجْل ضمّها في حبال منَ الخَرَز، على سبيل المثال، فهي تماماً مثلَ بعض ما وُجدَ في أور في عصر السّلالة الحاكمة الباكرة.

أحضر سِتون في المساء ذاته الأشياءَ الأخيرةَ التي تعُودُ إلى العصر الأكّادي للمَعبَد الصَّغير؛ كانَ بينها ختْم أسطوانيّ من حجارَة رماديَّة. يُشاهدُ إلهَان مسلّحان بحراب يهاجمان وحشاً رهيباً، هو تنين له سبعةُ رؤوس نجح الإله الذي يُهاجمُ الرُّؤوسَ بذبح أرْبَعَة منها، حيثُ تَدَلَّتْ هزيلةً، واستَمَرَّ رأسُ الحَربَة يطعنُ الرّاسَ الأعْلى. ولكنْ ظلَّت الرُّؤوسُ الثَلاثَةُ المُتَبقيَّةُ منْتَصبَةً ومُتَوعّدَةً، بألسنَة متعَددَة الرُّؤوس وهي تَمتَدُّ

نَحْو الإله. وارْتَفَعَتْ أَلْسنةُ لهَب طويْلَة ومُرتَجفَة من ظَهْر الوَحش.

شَـعرَ هانز بإثارَة شديدة، وقال لراحيل: «قاتل الوحوش، أتساءل إن كان هذا يرتبط مـع تَميمَـة إمدُغـود Imdugud في طَميْـرَة المُجوهـرات والتي من المُمْكـن أنْ تكونَ مُجوهَرات طَقسيّةً ليَرتَديها موظَّفو المَعْبَد مُكَرَّسَةً لنينورتا Ninurta؛ وتلك الزاوية من القصر، القريبة جداً من المعبد، يمكن أن تكونَ قسمَ المساكن لموظّفيه».

قالت راحيل وهي تنظرُ أسفل إلى الختم: «كنت أتساءل عن هِرَقل Herakles».

«تقصدين الرؤوسَ السبعةَ للوحش».

أجابـت راحيـل: «نعم، وهناك إلـه ثان هنا يسـاعد قاتل الوحش، تماماً كما سـاعد لـولاوسLolaus عمَّـه هِرَقل - وانظري إلـى اللَّهَب الخارج منَ التنيـن ـ وفي النهاية اضطُّرَّ هِرَقل Herakles إلى اسْتخدام النّار ليتَغَلَّبَ على الهيدرا[1] Hydra».

إنَّهـا واحدَة من تلـك اللَّحظات المَجيدة التي تُكافئُ العَمَـلَ الرُّوتينيَّ الصَّبورَ لأيام وأسـابيعَ عندما يُرشدُكَ جسْمٌ صغير مُعفَّر سلمَ من أنقاض الحَفر، يرشدك لأول دَرجَة مـنْ مَمَـرّ ظلّ خَفيّـاً حتَّى ذلك الوقْت، وعند ظهـوره يَفتحُ الطَّريقَ إلـى معارفَ جديْدَة للذين يعرفون كيف يتتبعونه.

أحسَسْـتُ مـع الآخَريْـنَ أنَّ خيالَنا انطلقَ يتسـابق بعيداً جـداً لآلاف الأميال وأكثر؛ ليراقبَ قوافلَ البَضائع القَديمَة وهي تمُرُّ في الطُّرُقات المَفتوحَة مُنذُ فجر التّاريخ على طـول الطَّريـق القادم من الوادي السِّـنْدي حامليـنَ معهُم البَضائعَ والأَخْبـارَ عن البلاد البَعيـدة إلـى مواطني إشـنونّا. شَـعَرْنا جميعاً بذلك عندما شـرح هانز لأول مـرة أهميَّةَ الختم من موئن جو دَرُو Mohenjo Daro.

والآن.. فتحـْت كلمـاتُ راحيـل طريقاً جديداً غريبـاً ـ يمتدُّ هذه المرَّة شـمالاً - باتجاه الغَـرب عبرَ آسـيا الصُّغرَى نحو اليونان، طريقاً سـافرَ عبـرَ الزَّمان أيضاً لآلاف السّـنين من التّاريخ، تحمل إلينا معها حكاياتٍ قديمَةً جداً، نصفُها من الذّاكرَة ونصفُها من الأحْلام عن

(1) الهيدرا: أفعى خرافية، من أساطير الإغريق، لها تسعةُ رؤوس قتَلها هرقل.

الآلهـة الذين أنقَذوا رجالاً بحمايَة قطعانهم من الوُحُوش الضّاريَة. ومن ذلك الدَّليل الأوَّل الذي قدَّمَهُ الخَتمُ الأسْطوانيُّ المؤلَّفُ من حَجَر رماديّ صغير. بدأت راحيل تشـّكل رابطاً إثـر رابط، سلسـلَة من أدلَّة قويَّة، نشـرتها لاحقاً، تُبرهنُ فيهـا أنَّ هِرَقل Herakels بطلَ بلاد الإغريق الجَبّار، يدينُ بأصله إلى إله الخَصب في منطَقَة مابينَ النَهريْن القديمة.

وعندما كنْتُ في إجازَة سائقي الباص. بدا أن پيير كان قد قَرَّرَ أنْ يتوقفَ عن الكفاح في ترتيب مبالغه الخاصَّة لوجود محاسـب متدرّب حرّ يطوفُ في تل أسـمَر، فأرسـلَ رسـالَةً ليسـألَ هانز إن كان بإمكاني الذَّهابُ ليوم واحد إلى خفاجة أقومُ بترتيب ذلك. فانطلقتُ في أحد الأيام مُبَكّراً جداً مع جبرائيل، وكان سـيوصلني إلى خفاجة، ويأخذَ قائمَةَ مشـترياتهم ثم يُتابعُ إلى بغداد، ولأن سـكان خفاجة كانوا عائدين تلكَ الليلة إلى تل أسـمَر في عطلتهم الأسبوعية، فقد اسـتطعْتُ العودةَ معهم. واقترح هام أيضاً جولةً على الحصان لبعض الوقْت في فترة بعدَ الظُّهر، ووَعدَ أنْ تكونَ جولةً لطيفةً.

كُنْـتُ أحـسُّ بنَوع منَ العـبء مُلقىً علـيَّ فبالرغم من أنَّنـي كنْتُ متَشـوقَةً لرؤية الحَفر فـي خفاجة، كان لـديَّ الكَثيرُ من الرَّسـائل لأنْجزَها لهانـز، وتَقريراً طويلاً لـه عليَّ طباعته للپروفسـور برسـتِد Professor Breasted، الـذي كان وقتها في مصـر. كانت كتابات هانز شـيّقَةً ولكنَّها شـاقة؛ لأنَّها كانتْ تتضمَّنُ دوماً أُقصُوصات خُرزَتْ هنا وهناك على نحو غير متوقع. كما أنها تتضَمَّنُ خطوطَ طباشـير حمراء وسـهاماً تقودُ علـى نحو دقيق إلى الخَلف والأمـام وإلـى فوق وإلـى تحت عبْرَ الخَـطّ الواضح المُسـتَعجَل، ودائماً كل شـيء ينقلب ليصبح حاضراً وصحيحاً، حتى لو كان بعضُه مقلوباً رأسـاً على عقب، وكنت أشـعُرُ وكأني ثيسـيوس Theseus وهو يَتَتبَّعُ الشُّعاعَ القرمزيَّ من أعماق المتاهة، فقد كان يأخذُ مني وقتاً طويلاً كلَّما جلسْتُ أمامَ الآلة الطّابعَة، وأدَرْتُ المَخطُوطَ ببطء بحثاً عن نهاية جملة، وربّك أعلم لماذا لم يستطيعوا تدَبُّرَ ميزانياتهم الخاصة في خفاجة!

ولكـن كان مـن الصَّعـب التذَمُّرُ في صَبـاح جميل كهذا فقَـدْ كانتْ الصَّحـراءُ كلُّها كالذَّهَـب والفضَّـة، وكان الجَوُّ الصافي يلعب خدعـاً معنا، ويعرض امتـدادات هائلةً للمـاء حيـث لا إمكانيَّـةَ لوجود ماء. لـم أرَ في حَياتي أبداً سـراباً حقيقيـاً من قبل، ففي

بعض الأحيان نظُنُّ أَنَّنا نتَّجهَ مباشَرةً نحو سَبخة ماء لنْ نصلَ إليها أبداً ـ أو حافةَ بحيرَة واسعة بقيَتْ دائماً على بُعد بضعة أقدام أمامَ عجَلات سيّارَتنا السَّريعَة. وكانتْ تَظهرُ قمَمُ قواميع الرّمال التي صَنَعَها جبرائيل ليضعَ علامات على الطَّريق. لقد بدتْ واضحَةً عبرَ سَراب المياه، سوداءَ مقابلَ الضَّوء المُبْهر، مُنحنيَةً ومتَجَعّدَةً بعيداً عبْرَ المَسافات أمامنا، كنسق علامات طوافات صغيرة تتمايلُ على السَّطح الهادئ لبحر الصيف.

وصلنا بعد مدة إلى مفترق طرق حيث يوجد طريق جانبيَّة تقود إلى خفاجة، فانعطفت السيارةُ نحو اليمين، وبسرعة رأيتُ بوضوح صفاً من شجرات النَّخيل تتدلَّى قربَ الأفق الغَربيّ؛ ولكن جبرائيل قال بأنَّها كانتْ أيضاً سَرابا.

قالَ بلهجَة أمريكيَّة: «هناكَ شَجر في البَعيد بلا ريب، ولكنه يوجد على بعد أكبر ـ بعيداً عن النهر ـ وهذه مجردُ انعكاسات له».

ومنْ ثمَّ شاهدْتُ ضفافاً طويلةً على اليمين، محاطَةً ببحيرَة متألقَة، تتحَرَّكُ فيها أشكال سوداءُ صعوداً ونزولاً عندَ الأفُق، فقَرَّرْت لتوّي أنَّها خيال أيضاً عندما لوّح جبرائيل يداً سمينةً وقال: «موقع خفاجة!». وفي الوقت ذاته جمعت البُحيرَةُ ذاتَها واختفت. وكفّت الضّفَّةُ – التي كانت كومَةً من مفرغات الحُفرة ـ عن اللّعب على أنَّها جزيرة، واستَقرَّتْ بلطف عندما اقتربنا منها على أنَّها أرض جافة.

قال جبرائيل: «هل آخذُك إلى المَنزل يا آنسَة أم تريديْنَ الوقُوفَ عنْدَ موقع التَّنقيْب أولاً؟ هاهو المسيو دُلوغا[1] Mr. Delougaz هناك ومستر داربي[2] Mr. Darby هناك».

لم أرَ أحَداً منهما، ولكن جبرائيل كان قد أشار إليهما في أماكنَ مختلفَة من المَوقع؛

---

(1) پنحاس پيير دُلوغا (1901–1975) Pinhas Pierre Delougaz عالم آثار عمل مع المعهد الشرقي (OI) التابع لجامعة شيكاغو مع إدوارد كييرا الآنف الذكر، ثم انضمّ إلى مشروع تنقيبات ديالى، وكان هو الذي شحن الثور المجنّح إلى متحف المعهد حيث يوجد الآن عند المدخل. ثم انضمّ إلى حفريات خُرساباد إلى جانب توركيلد ياكوبسِن وسِتون لويد. وهو من تذكره المؤلفة دوماً باسم پيير، وتستمتع بذكر مقاطع من كلامه بلهجة إنكليزية مكسّرة، فهو أوكراني الأصل.

(2) هو هاميلتون داربي الذي يرد ذكره في الكتاب باسم: هام، اختصاراً.

فقد أراني رأسَ پيير، وكانَ منَ المُمكن رؤيةُ الرأس كاملاً وحْده، إنَّه مذْهل حقّا أنْ يكونَ الرّاسَ على مستوى الأرض، قلتُ: إنَّني أرْغبُ بالخروجَ والذَّهابَ ومشاهدةَ العَمل، وعندما قادَ جبرائيل السَّيارةَ ذاهباً إلى المَنزل استَقامَ پيير منتصباً عندما سَمعَ صوتَ محَرّك السَّيارَة وقدْ كان يعملُ في قَعر الخَندق ولوّحَ لي وأنا أقْتَرب، قلت: «پيير، لقد رأيتُ آجراً مُحَدَّباً مسْتَوياً».

أشرقَ وجهُهُ الأحمرُ المستديرُ بالضَحك. «*Tiens*! هكذا إذن؟.. إذا كان ذلكَ ما كنت تتمنّين رؤيتَه، فلقد أتيتِ إلى المكان المناسب».

أشارَ إلى الحائط في الخَندق، وإلى كلّ ما حَولَه؛ كانت هناك آجُرّات بأشْكال غَريبَة حيثما نظَرتُ بُنيَتْ مُتعَرّجَةً مع صفّ مستوٍ بين كلّ صف مزدوج. قلت بلا مُبالاة ضاربَةً على ساقي المُرتديَة سروال ركوب الخَيل بالسُّوط وحاولتُ ألا أُفْسدَ ذلك بالضَّحك: «بناء عصر السّلالة الحاكمة الباكرة بالتأكيد».

بدا پيير متفاجئاً ومسروراً لمعرفتي الواسعة، وصعد ببطء خارجَ الخندق، ومشينا نحو هام، الذي كان واقفاً على قمة حائط منخفض يوجّه بعضَ العُمّال.

كانت خفاجة بخلاف تلّ أسمَر مستويةً جداً. ومن قمَّة حائط هانز يمكنُ أنْ تُستوعَبَ إجمالاً كمخطط مرسوم على الورق. وعبر الموقع وعلى بعد بضع مئات من الياردات نَحو الغَرب استطَعْتُ رؤيةَ البَيت الأثَريّ الصَّغير - صغير مقارنةً بالنسب المدهشَة لأجزاء البَيت في تلّ أسمَر. وعلى اليمين منه باتجاه الشمال، وعلى مسافة ليست بعيدةً اسْتَطَعْتُ رؤيةَ شيء جميل - ومضة مياه: ماء حقيقيّ هذه المرة، وخلفَ ذلك على الضفَّة البَعيدَة لنَهر ديالى شيء ما آخر جلب انتعاشاً كاملاً للعيون التي اعتادت رؤيةَ الأرض المُنبسَطة دونَ ظلال - حزام أخضر مزرق كثيف لشجر النَّخيل. وجَدْتُ صُعوبَةً في التَّوقُف عن النَّظَر والتَّركيْز في حفْرَة التَّنقيْب ولكن پيير كان يشرحُ عنها.

كان يقول: «لمْ يعْثُرْ على شيء يُشبهُها أبداً من قبل، انظري الجدارَ المنحني هناك الذي يطوّق الرصيف».

قـال هانـز ممازحـاً: «وكلُّهـا صُنعَتْ من آجـرّ مُنحنٍ مسـتوٍ جميل، لقـد نَظَّفْنا فقطْ مـا يقاربُ سـتين ألفـاً منها، أعرفها كلَّها كمـا أعرفُ ظهرَ يديَ». بيـن الآجرّات اتّضَح المُخطَّطُ الرائعُ الذي يمتد عند مستوى أقدامنا، فعلى الرَّغم من تعريَة الرّياح والأمْطار لها حتَّى أصبحَتْ في مسـتوى سـطح الأرض، فقد وجدتْ أدلة كافيَة تُثْبتُ أنَّ المعبدَ بُنيَ فوقَ مسـتطيل كبير بارز له درجات صاعدة من السّاحة الدّاخليَّة إليه وهو والسّاحة الداخليـة، وقـد طوّقهما جدار ضخم على شـكل بيضـاوي فُتحَ في نهايتـه البَعيدة عن المعبـد ببوابَة دقيقَة تحيطُ بها الأبراجُ. لقدْ اسْـتطَعْتُ رؤيةَ الجدارَ البيضاوي بوضوح؛ ولكن ولأنَّه لمْ يكنْ هناكَ شـيء يُرى داخلَ منعطفه باسْـتثناء مخطَّط الآجر المسـتوي على الأرض، لمْ يبدُ لي من الحَماقَة الشَّديدة على أيّ حال أنْ أسألَ كيفَ اسْتَطاعوا أنْ يعرفُوا أنَّ معْبَداً كانَ قائماً ذاتَ مرَّة هنا على المنصة البارزة.

قادنـي پيير بوقـار عبْرَ طـرق متقاطعة مزعزعـة قائمة فوق رؤوس الجـدران وعلى جانبيهـا حفـر وخنادق. صاح هانز: «سـأراك وقت الغذاء» واختفى عـن النَّظر في أحَد الخَنادق. مررنا في إحدى النقاط بحفرة هائلة مستديرة لا تحتوي على أيّ جدار، وقال پيير إنَّها كانت إحدى الحفر التي أحدثها اللُّصوصُ الذين سلبوا الموقعَ قبل أن نحصلَ على امتياز التنقيب هنا.

عبَرْنا الجدارَ الملتَّفَ الواسعَ ومشَينا عبْرَ السّاحة الداخليَّة باتّجاه مستطيل مبنيّ من بنـاء آجـريّ متين في الطَّرف الجَنوبيّ، فاسْـتَطَعْتُ الآنَ رؤيةَ أنـه احتوى على دعامات مسَّـطحَة جميلـة ومتماثلة رغْمَ أنَّ هذه المنَصَّة كانـت بارتفاع بضعة طبقات على طول جوانبها.

وقفَ پيير على بُعد بضعة أقدام بعيْداً عن الحافّة الطَّويلة الخَلفيّة للمنَصَّة وأشارَ إلى الأرض، كلُّ ما اسْـتَطَعْتُ رؤيتَه كان درجتين خشنتين من الآجر تقفان وحدهما، وهما معزولتان تماماً وعاديتان جداً. قال ببساطة: «هكذا عرفنا».

قبل عدة أسـابيع من قراري الذي حمل جهلاً محضاً أنَّ تصريحاً مثلَ هذا لا يمكنُ أن يكونَ له أيَّ أسـاس راسـخ، فعلمتُ الآن بشـكل كافٍ تماماً مـع الإبداع في العمل

المتقن في الموقع أنْ أنتظرَ بصمْت وعقلانيَّة بينما استوفى پيير هذا البيان. فقد فسّر بأنَّ الدرجتين قد حُفظتا بشكل جيد جداً، بحيث أنّ الارتفاع وعرض الخطوة في كليهما قد دُرس على نحو دقيق. لذا فعند قياس المَسافة بين الدرجَة الأكثر انخفاضاً وقاعدَة المنَصَّة كان من السَّهل حسابُ كم كان عددُ الدَّرجات التي كانت تقود في الأصل إلى الأعلى، وبناءً عليه كم كان ارتفاعُ تلك المنَصَّة، فكان ناتجُ الحساب ما يقاربُ خمسَةَ عشَرَ قدَماً. لاحَظْتُ أنَّ الدرجات لم تكن مقابلَ مركز المنَصَّة، ولكن على الأصح باتجاه نهايتها الشَّرقيَّة. قال پيير إنَّ هذا أقوى برهان على أنَّه معبد، وليسَ بناءً مدنياً قد وُجد ذات مرة هناك. بالتأكيد إنَّ الدَّرجات كانت توضع بشكل مباشر مقابلَ مدْخَل أيّ بناء مهم، وكانت هذه بالضبط مكانَ المداخل الرئيسَة للمعابد التي وُجدت في مواقعَ أخرى تقعُ في جانبها الطويل الشمالي باتجاه نهاية طرفها الشَّرقيّ، وكان المعبدُ الصَّغيرُ في تل أسمَر يتّبع الخُطَّة نفسَها تَماما.

تابعْنا المَسيرَ إلى الجانب البعيد من الفناء الداخليّ، حيث أراني پيير صفوفاً من غرف المخازن، والتي حوتْ ذاتَ مرَّة وسائلَ الحَرب والسَّلام داخَل جدارها الضَّخم الواقي. في أحدها وُجدَ أكثرُ من أربعين من رؤوس الصَّولَجانات في العام الفائت، وفي أخرى وُجدَ منْجَلُ حصاد حجَريّ بحَوافّ منشاريَّة حادَّة، كان القارُّ ما يزالُ سميكاً في المكان الذي ثبّت فيه بالقبضات الخَشبيَّة، وفي غرفة أخرى أيضاً وُجدَتْ أعمدَة طينيَّة للشُّبّاك مع خيطان الشَّبكة التي ما تزالُ تُرى مَعقودَة حولَ بعض منها. كانت بعضُ أرضيات تلك الغُرف مكسوّةً بالجصّ، وأراني پيير أحدَها الذي يتركُ مرآها أثراً مدهشاً.

في أحد الأيام قبل 4000 سنة، بينما كانت أرضُ إحدى الغرف ما تزال ناعمةً، كان طفلٌ سومريٌّ يحاول تنفيذَ إنجازه الجديد في المشي، فترك أثراً مثالياً لقدمه على الجصّ - أصابعَ قدم صغيرة مدوّرة وعقبَ قدم ضُغطَ بثبات، وتعارض مع شبكة من الخطوط. وضَعَ هذا الطفْلُ علامتَه الصَّغيرةَ المجْهولَةَ هناك قبل مئات السنين من أبرَهام، الذي كان بعيداً في أور، وقد جمع أهلَه وممتلكاته في أيّام حمورابي، ليبدأَ الرّحلةَ غرباً إلى موطنه الجَديد.

سِرْنا إلى دارة البعثة، التي تتألَّفُ من فناء مربع صغير، مُلئ تقريباً بمرج زهور مستديرة أغلقت في طرفيها بالقُرب من حفرة عند الجدار، وأغلقت الحافتان الأخريان من الفناء بسلسلة من الغرف المشابهة للأكواخ. كانت أحواضُ الزُّهور ذاتَ حوافّ جذّابَة بدوائرَ بلوريَّة بنّيَة صَغيرة، التي لدى فحصها عن قرب يتبين أنها عبارة عن قواعدَ مقلوبَة لزجاجات بيرة لا تُعَدّ، دُفِعَت برفق رأساً على عقب.

كانت بِتي التي أَعَدَّت الغذاء تجلسُ في الفَناء المُشمس مشغُولةً بعمل رسومات بيانية للآنية الفخاريَّة بمساعدة عدد كبير من أزواج المساميك. وبقربها تَمدّدتْ كلبة مسنَّة لها صوف أبيضُ وأسود، مع جرائها الثلاثة تترامى حولَها، كانت نائمَةً نوماً خفيفاً على الأرض قربَ بتي على جانبها، وبتكاسل ارتفعت لتحيّتنا، كانت على الأصحّ وبشكل غير ملائم تُدعى ريموش Rimush، تيمناً بخليفة سَرغون الأكّادي. وقد وُجدتْ في السَّنة الماضيَة آنيَة من الحَجَر كان اسمُه منقوشاً عليها.

في الجانب الآخر لكرسي بِتي جلس غزال صغير ساحر بهدوء. لقد كانَ وديعاً إلى حدّ كبير، ومشغوفاً بالسَّير مع ريموش ومجموعة الموظفين، كما أخبرت. كما أخذت بعضُ الأرانب الأليفة تقفزُ بتثاقل حولَ الفناء ـ كانت جميعُها مسالمَةً جداً.

قالت بِتي، وهي تنهض: «قهوة؟ لن يكون الغذاء جاهزاً إلا بعدَ ساعة أو أكثر. ماك موجود في الغرفة المُظلمَة».

أمضَينا وقتاً طويلاً نمشي بتمهل حول الموقع، حتى مضى من فترة الصَّباح نصفُها.

قلت لپيير: «الحسابات».

نظر إليَّ بأطراف عينيه بمكر ثم ضحك.

«ليست سيئةً جداً نوعاً ما، ومع ذلك ـ ربما أعطيك مبلغاً صغيراً، وبالتالي سنشعر جميعنا برضا داخلي، ونفكر تماماً ـ أنك ربما ترغبين بيوم استراحة وبرؤية خفاجة».

فكرت للحظات بمكتبي المكدّس بملاحظات واختزالات لرسائلَ غير مطبوعة،

وكذلـك فكـرت بالتقرير الطويل الـذي كان ممكناً أن يصفعَ الرجـلَ اللطيفَ الصغير، ثم شـعرت فجأةً بأجواء العطلة تسـيطر عليَّ، خاصة أنها كانت غيرَ متوقعة أبداً، عندما قَدمْـتُ كنـتُ قاصدةً أن أكونَ مثابـرةً تماماً معظمَ النهار؛ وقررتُ بمـا أنني الآن هنا أن أسليَ نفسي بشكل كامل.

كان يومـاً جميلاً، جلسـنا بعـد الغذاء في الشـمس ـ وهناك وصـل فوتوغراف هانز المحمـول؛ وفي الحـال أخبرَنا صوتُ نويـل كاوَرد Noel Coward الـذي كان جذاباً نوعـاً مـا، وعلى الرغم مـن أنَّـه كان كالمخنوق وخالياً مـن التعبير فقد أخبرنـا أنَّه كان واثقاً من أنَّه شـيء يتعلقُ بالربيع. وبعدها جمعتُ مبلغاً بسـيطاً كما طلب، ثمّ قمتُ أنا وهام بجولة على الجياد عند نهر ديالى الذي يجري واسعاً ومتعرّجاً بين ضفاف شديدة الانحـدار، ويَتَعَـرَّجُ مَمَرّ ضيق أعلى وأسـفل علـى طول ضفته بين شـجيرات خفيضة وأعشـاب؛ وعبـرَ الماء اسـتطعتُ رؤيةَ رقع سـاطعة من أرض محروثـة، ومجموعات بيـوت طينيَّـة صغيرة تجمعت مقابلَ الأشـجار الجميلة، التي امتـدت جميلةً وخضراءَ باتجاه نهر دجلة، على بُعد بضعة أميال. ذهبْنا على طول الممرّ في صفّ أحادي، ولكن تركنا النَّهرَ أخيراً حيث انحرف بعيداً نحو الشمال؛ وسرنا بشكل جماعيّ أكثر جنباً إلى جنـب الآن، تخبُّ الجيـادُ عبرَ الصحراء في دائرة كبيرة عائـدةً باتجاه المنزل. كان هام فارسـاً جيـداً بالفطرة، ونقل عـدمَ اكتراثه وهـدوءَ أعصابه لي، ولذلـك ولأول مرَّة في الخارج هنا عرفْتُ متعةَ ركوب الخيل الطويل الهادئ مع رفقة مرحة ولطيفة.

كان الغربُ يتوهجُ عندما اقتربنا من الموقع، وعندما تلاشت الشَّمسُ أسفلَ الأشجار بعيداً خلفنا، أظلمت الصحراءُ بسـرعة. وقال هام إنَّهُ من الأفضل أن نعيدَ الجيادَ سـيراً في بضعة مئات من الياردات الأخيرة؛ بسـبب وجود عدة خنادق تجريبية تمتدُّ بشـكل مزعج قرب طريقنا.

لدى قدومنا ببطء قرب المنزل، تابعتُ التفكيرَ بأنَّني سـمعتُ دمدمةً خفيفةً خلفي، ثم أفصحتُ عن ذلك فنظر هام إلى الوراء نحو الرّمال المُظلمَة في ذلك الحين، تقريباً سـوداء مقابلَ السَّـماء المتَوهجَّـة، ثمّ انحنى إلى الأسـفل تماماً حيثُ كان رأسُـه على

مستوى الأرض تقريباً. وضحك وقال: «أجل، اعتقدتُ ذلك ـ أنظري من هذه النقطة في الأسفل». وقفتُ على رأسي أيضاً ونظرتُ خلفي. الصورة تظلل مقابلَ الغروب شيئاً بشكل حرف v؛ صغيراً وناعماً وأسود. لقد كانت قرني الغزال الذي جاء لملاقاتنا، وها هو ذا الآن يعدو سريعاً نحو المنزل معنا على مسافة حذرة من حوافر الجياد.

كان احتساءُ الشاي حولَ مصباح زيتيّ يتَّقدُ بلطف ـ إذ ليس هناك كهرباء في خفاجة ـ في الكوخ الصَّغير الذي يشبه غرفةَ معيشة. ثمَّ بدأوا جميعُهم بإحضار حقائبَ صغيرة وقضبان من غرفهم ويرتبونها في السيّارة Toto، التي كان ماك قد أَحضرها أمام الباب. وأعطى آخرَ التوصيات للحراس؛ وبعدها أصبحنا بعيدين، كتبت العنوان لتل أسمَر، جثم پيير بمعطف ذي ياقة من الفرو قرب ماك، وأجلس هام النحيلُ نفسَه بطريقة ما بيني وبين بِتي. في الحال لاحَ ضوءُ تل أسمَر في الأفق. كان يومي الجميل على وشك أن ينقضي ـ واحد من تلك الأيام البسيطة، وفوق ذلك هي أيام نادرة، قليلة جداً من العمر، والتي تدخلُ في قلبك وتبقى هناك إلى الأبد، بينما آلاف غيرها، ربما كانت زاخرةً أكثرَ بالأحداث، تذهب ترفرف بعيداً في الريح، وتصبح منسية.

عُدْتُ إلى ذاك التقرير أخيراً، وطبعتُه مقابلَ أغنية مُلحّة في داخلي، ولم تتركْني في سلام.

إنه من الممتع جداً أنَّ تلاحظَ أن تلك المجوهرات وجدت في بناء أرّختْ أدلّة أخرى بأنه ينتمي إلى العصور الأكّاديّة:

(«شعور لا أستطيعُ وصفَه

ثمّة أنشودَة في الجو... »)

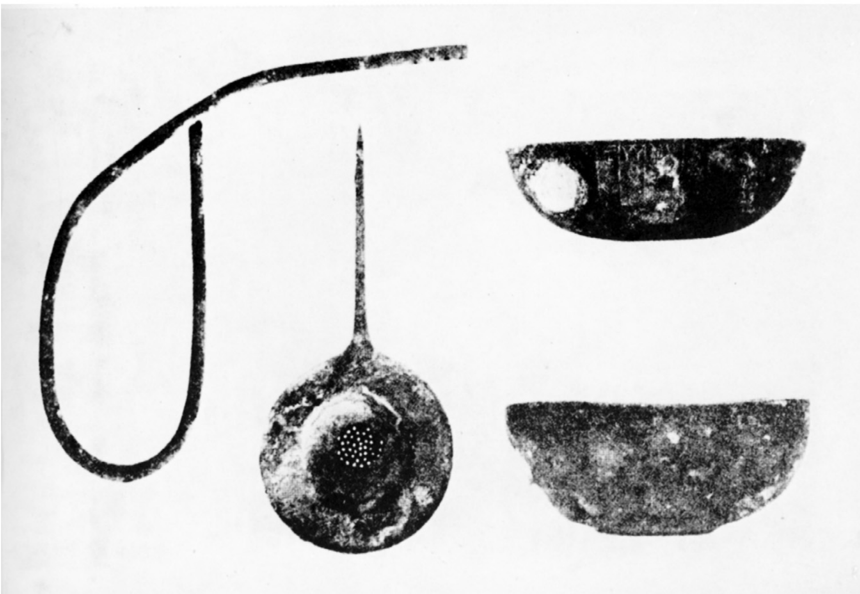
وتُعرضُ أيضاً بقايا واضحة من أشكال سابقة لعصر أكّاد وُجدت في أور وفي المقبرة الحَديثة في كيش Kish».

(«أنا متأكد أنَّ ثمّة صلة ما لهذا بالربيع»).

* * *



الطميرة النحاسيّة لدى اكتشافها



أنبوب الشرب، والمصفاة، والطاسات المنقوشة بالكتابات

فـي كلّ مكان في تل أسـمَر وصل الحفـر الآن إلى عصر السّـلالة الحاكمة الباكرة. كشف جايك وهال منزلاً كبيراً يعَدُّ أوَّلَ بيت عُرف، صُنع بشكل كامل من آجرّ محدَّب مستو بخمسـة مداخلَ مقوّسـة، وفي هذا المنزل أيضاً كانت هناك لقيـةٌ أخرى فريدة: نافذة صغيرة مربعة مع شظايا مفحّمة لإطار خشبيّ ما يزالُ معلقاً حول الفتحة.

كان سِتون قد وصل إلى أسـفل القصر الأكّادي في الغرفة في الزاوية الكبيرة حيث لامسَ القصرُ تقريباً المعبدَ الصغيرَ.

فـي صبـاح أحد الأيّام كانَ أحدُ الشّـرقاطيّين التابعين له في زاويـة تلك الغرفة يتتبعُ الجدارَ قربَ الزاوية، لقد كان مجصصاً بدقة ـ مما يجعل دائماً تتبعَ الجدار أسهل.

ثقبـت حافةُ معوله المدببة الجدار فجأة، وانزلَق داخلَها حتى المقبض. حدّقَ النظرَ وهـو يسـحبه بحـزن في حفرة صغيـرة مـدوّرة، أحيطت بما يشـبه آنيةً فخاريَّةً سـميكةً صفراء.

أراها لسِـتون داخلَ سـماكة الحائط مباشـرة، فقام برفع الأنقاض عنها من الحفرة، وكشفَ الجانبَ من وعاء فخاريّ أصفرَ كبير بسماكة إنش على الأقل الذي كان الحفّارُ قد أدخلَ معولَه عبْرَه بإهمال.

كان شـيئاً غريباً وجودُ قدر كبير وراءَ جدار مباشـرةً من الداخل؛ فأرسَـل غلاما ليَجدَ له هانز، ولحسـن الحظّ كنتُ أنا ويون متجهَين معه إلى الموقع في تلك اللَّحظَة. وسـوية جثمَ هو وسِتون في الزّاويَة، وبحَذر شديد أعادا رفعَ الأنقاض المُحررَّة إلا أنَّه كانَ هناكَ تجويفٌ كبير تحتَ الجدار؛ ولكنَّ الإناءَ الكبيرَ كانَ متَصدّعاً بشدَّة، وبالتَّدريْج فقدَ الدَّعمَ من الأرض المُحيطَة به، فبدأتْ قطَع كبيرة بالتَّكَسُّـر، وسَـقطتْ على الأرض، ومع سـقوط الغُبار، يتبع القطعَ المكسورة من الآنية الفخارية، لمع فجأةً من الحفرة الرماديَّة المعْتمَة طاووسٌ أزرقُ وأخضر. جعل هانز رأسَه وكتفيه أسفلَ الجدار المعلَّق ونظر نظرةً طويلة.

قـال متحَمّسـاً وصوتُه مكتُوم: «يوجد هنـا الكثيرُ من الأواني المعدنيـة، أعتقدُ أنَّني أستطيعُ رؤيةَ شفرة سكّين بلون أخضرَ لامع – كلُّ شيء مؤكسد بكثافة».

قال يون فوراً: «أريدُ رؤيةَ نصل السكين ذات اللَّون الأخضر اللامع». وساعَده هانز بالنُّزول في أسفل الخندق المُغبَّر. نـزَلَ على أطرافه الأربعة كلّهـا، وكان من الممْكن أنْ يختَفيَ بشَـكل كامل في الحُفرة أسـفلَ الجدار لو لـم يمسـكْه هانز بإحكام من مقعد سرواله الصَّغير.

قـال هانـز: «علينا إبعادُ كامل الجدار من حولها ومن أعلـى منها، آجرّةً إثرَ آجرة، إذ لا نستطيعُ أن نخاطرَ بسقوط الجدار عليها فجأة فهي مكسورة إلى قطع، ومن الممكن أن يكونَ كلُّ شـيء في الداخل هشـاً، ولكن أريدُ أولاً صورةً لها مثلَ هذه، قبل أن ننقلَ أيَّ آنية أخرى من القدر».

وفي بقية اليوم، وطيلة فترة الصَّباح في اليوم التالي كان العمل التمهيدي مسـتمراً ـ بالصّور التوثيقية، وعندما أزيلَ الثّقَلُ الخطيرُ للجدار المتدلي بشـكل كامل، سـيطرت ييتـي علـى الوضـع، وبـدأت تفـرّغُ المحتويـات، كان الإنـاءُ قد عُبّـئَ حتَّـى الامتلاء. أخذنـا صناديقَاً مبَطَّنَةً وألواحاً، وكما كانت الأشـياءُ قد حُـرّرت عن جوانب الآنية فقد زلقناهـا أولاً على الألواح، ثمَّ إن لـم تكن هشَّـةً على نحو خطير، وضعناها باليد داخلَ الصَّناديـق. كانت هناك مجموعات من أوانٍ وأطباق نحـاس بيضاويَّة، جُمعتْ واحدةً داخـلَ الأخرى للتَّقليْل من مكان التَّخزين؛ كلٌّ واحدة من تلك المجموعات كانت قد أصبحت ملتصقَةً معاً في كتلة واحدة، ولأنَّ معدنَ الأطباق كان رقيقاً، فقد تساءلنا فيما إذا كان بالإمكان أن تُحرّرَ بنجاح، لقد بدت أشبهَ بمهمَّة كبيرة أخرى لپيير.

قال هانز قبل أن تكونَ قد عُولجَت بأيَّة طريقة، إنَّ الكثيرَ منها كانت مُماثلَةً في الشكل مـع أوان ذهبيَّة وجدت فـي أور على يد وولي[1] Woolley في القبـور الملكيّة، لذلك فهـي معاصـرة لها أو قريبة من المعاصرة تعودُ إلى السُّـلالة الأولى في أور. واسْـتطَعنا الرُّؤيةَ عبرَ القشرة الخَضراء المُزرقَّة أنَّ بعضها قد حُزّزت بشكل جميل، بالطَّريقة ذاتها كتلك التي في أور.

---

(1) سير تشارلز ليونارد وولي (1880 - 1960) Sir Charles Leonard Woolley عالم آثار بريطاني اشتهر بتنقيباته في أور، ويُعدّ من أوائل علماء الآثار المعاصرين بالمعنى العلمي لهذا اللقب.

في تلكَ اللَّيلة قال هانز على العشاء، عندما كانت جميعُ الأشياء النُّحاسيَّة من القدر قد أصبحت أخيراً في المنزل: «لن أقولَ أيَّ شيء إلى أن تصبحَ نظيفةً إلى أبعد حد. على الرَّغم من أنَّني كنْتُ أعلم بماذا أفكر فقد أرسلتُ رسالةَ استغاثة إلى پيير وهو سوف سيأتي غداً، دعونا نحاولُ أن لا نعوّلَ على النُّقوش بشكل بالغ جداً».

وصل پيير وبقي مدَّة أسبوع لا يخْرجُ إلا نادراً من المختبر. انتزع الطاسات واحدةً تلو الأخرى من أعشاشها؛ وواحدة تلوَ الأخرى فقدتْ سطحَها الفَيروزيّ الوامض وتَحولَّت إلى نحاس بنيّ هادئ. قال أخيراً إنَّه عملَ كلَّ ما يمكن أن يُعمل، وكانت كلُّ مجموعة قد صُفَّت على طول رفوف غرفة الآثار القديمة. لقد كان من المستحيل تقريباً تصديقُ أنَّ جميعَ تلك الطاسات كانت قد جُمعت في تلك الجرّة وحدها، رغم أنها كانت ضخمةً فلقد كان هناك ستّون قِدراً، وأربعةُ مصابيح مصْنوعة على شكل أصداف مطابقة لتلكَ التي وُجدت في أور؛ وأربعةُ مَصافٍ لها أيد طويلة وثقوب ثُقبَت على نحو مُتقَن؛ وأربعةُ خناجرَ بطبقة فضية رقيقة كانتْ ذاتَ مرَّة تغلف مقابضَها ما زالت محفوظة، على الرغم من أنَّ القَبضات نفسها، التي ربَّما كانت من الخَشب، قدْ فَنيَت. وكما كان هناك أنبوب طويل مثَقَّب في إحدى نهايتيه ـ لقية فريدة، رغم علمنا أنَّها استخدمت في الحال من مظهرها في منظر محدَّد رُسَم على الأختام الأسطوانيَّة، حيثُ يظهرُ الرّجالُ فيها جالسين على كل جانبَي جرّة خمر يشربون منها بواسطة أنابيب طويلة غُمسَتْ في السّائل. لقد كان أول أنبوب للشرب (قشّة) يُعثر عليه على الإطلاق.

كان هناك لقية أخرى رائعة، ففي حين فُقدَتْ مقابضُ أنصال السكاكين النُّحاسيَّة الأربعة، كان هناك مقبض معدنيّ واحد موجود دون أيَّة علامات للنَّصْل، وقد كان مزخرفاً بالبرونز، وبمعنى آخر كان النُّحاسُ قد قسّي بإضافة نسبة ضئيلة من القَصدير؛ واحتوى على شكل منقوش مخرّم دقيق وكتلة صغيرة من معدن يمكنُ رؤيتُها داخلَ المقْبض، تَهتزُ بحُرّيَّة وحجمُها أكبرُ من أنْ تنفصلَ عنه. وجد پيير شيئاً مُهمّاً جداً وصدئاً في الشَّقّ الطُّوليّ حيث ثُبّتَ النَّصلُ بالسّكين ذاتَ مرَّة، ويعني ذلك أنه كان من

الحديد، وفُسّـرت حقيقة أنَّ النّصل قد فُقد ولقد صدئ ببساطة خلالَ آلاف السّنين في الجرَّة وتحَلَّلَ، ثمَّ انتزَعَ پيير الكتلةَ المعدنيَّةَ من المقبض، وحلَّلَهُ قدرَ استطاعته بواسطة التَّجهيزات المُتَوفرَّة لديه؛ ووصلَ إلى نتيجَة بسبب عدم وجود النيكل، فالحديدُ أرضيّ وليسَ نيزكياً.

كانت الأشياءُ المعدنيَّةُ المَصنوعةُ من الحَديد النيزكي قد عُرفتْ قبلَ ذلك التّاريخ؛ ولكـن فيمـا لو كان پيير على حق فإنَّهـا كانت أقدمَ نموذج وحتى تلـك اللَّحظة الأقدم لشيء شُكّلَ من حديد أرضي ـ تماماً أقدم بكثير من 1500 سنة من تاريخ صنْع السّكين التي قُدمت هديةً نادرةً ونفيسَةً لتوت عَنخ آمون Tutankhamun من قِبَل أمير حِثّي.

لاحقاً في تلك السنة كانت قطعةُ الحديد تلك قد أرسلت إلى مختبر الفيزياء الوطني في تِدينغتون Teddington، وكانت قد أكَّدت مصدَرها الأرضيَّ بشكل مؤكد.

في تلك الفترة كان پيير قد عرض على هانز شيئاً ما كان قد تاقَ لرؤيته.

وعندمـا أزيـحَ غشـاءُ الصدأ فـي كلا الوعاءين، ظهـرت ألواحُ نقـوش مربعة، وفي الألواح نقش لكتابة قديمة جداً. أخبروه أنَّ الأواني قد كرست «لبيت آبو Abu».

كان آبو إلهَ النبات، واللقب يشـيرُ أيضاً إلى تمّوزTammuz ونينورتا Ninurta، إله النبات وقاتل الوحوش.

كان هانـز متأكـداً الآن أنَّ طَميرةَ النُّحـاس الضَّخمة تضمنَّت أوانيَ اسـتُخدمت في مأدبة طقوسـيَّة، وتعودُ بشـكل مؤكَّد تماماً إلى المَعبد الصَّغيـر، فبَعدَ مهرجان كلّ أوَّل يـوم عام جديـد، كان هناك عيد، تُقامُ المراسـمُ فيه لضمان خصـب المزروعات للعام القادم، وتقام فيه دائماً وليمة طقسية.

شـعر الآن بثقة أنَّ المعبدَ كان مكرَّسـاً لعبادة إله النبات آبو Abu بكلّ تأكيد. وختم هِرَقـل Herakels الذي وُجد هناك ارتبط مع إله الخَصب الذي قتَل الوحش. وأوحت المجوهراتُ التي وُجدت في القصر ـ برسـمها المتكرر للأسـد برأس نسر ـ أنَّ الحليَةَ الضَّخمَةَ كانت هي التي يلبسـها الكاهنُ في خدمة نينورتا. وترجّح أنَّ القسَـم الجنوبيَّ

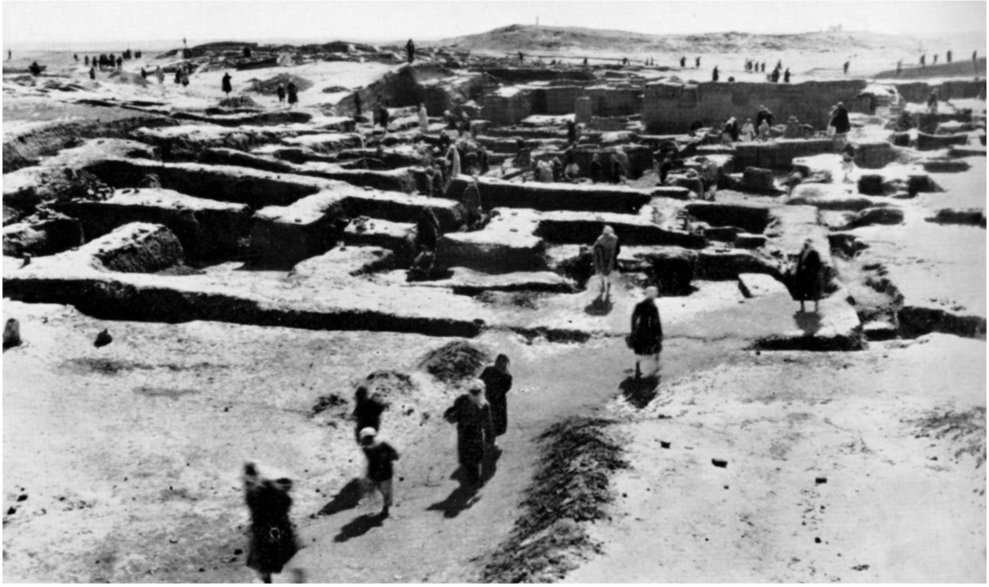
الغربيَّ للقصر كان يُستخدم لإيواء موظفي المعبد الرسميين.

كانـت تلك الأواني الطقسـيَّة مقدسـةً جداً ليتم جمعهـا معاً، وقد كُدّسـتْ باهتمام شـديد فـي وعاء ضَخم، وأُخفيتْ داخلَ سـماكة الجدار مباشـرةً الـذي جُصص بعناية فائقة فيما بعد لمضاعفة التأكد من الإخفاء.

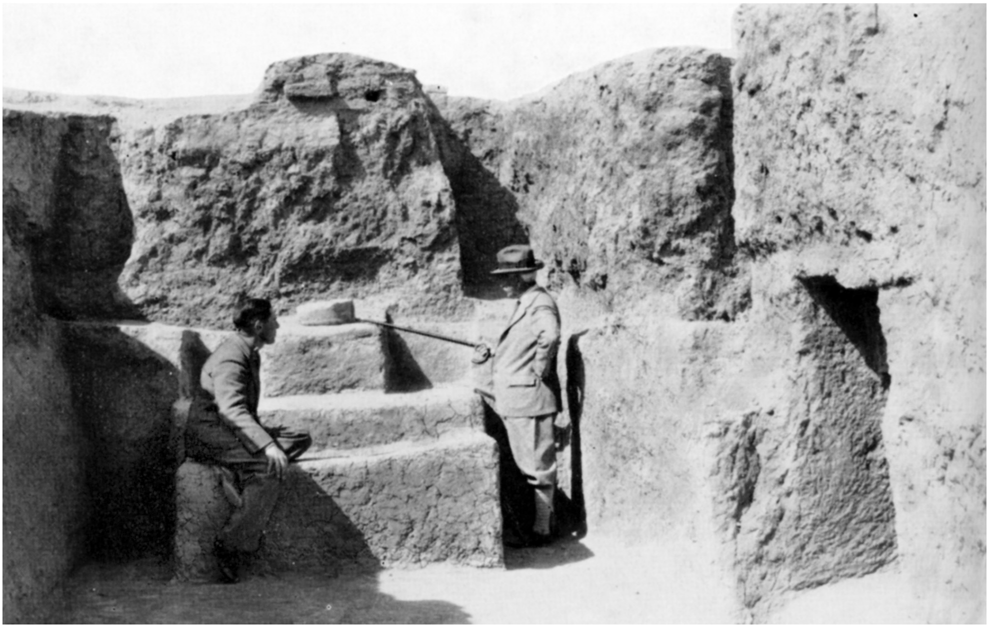
اعتقـد هانز أنَّه لـم يكن يصعُبُ الحُصولُ على السبَب وراءَ ذلك، ففي تلك النّقطة بالـذّات مـن التّاريخ وفـي فترة الحَياة المسـتقرَّة لإشـنونّا، ربما تكونُ قد انتشَـرت في المَدينـة إشـاعات مُروّعة عن جيش ضخـم من قبائل البَدو البرابـرة توحّدوا معاً تحت زعامة شـيخ قويّ باسـم غريب، يتقدمون بإصرار نحو وادي النهر قادمين من الشمال، إشـاعَة لمدينة إثر مدينة في سهل شنعار تسقط تحت هجوم سَرغون ممّا خلق الخَوفَ وتأسَّـس بقوة؛ إذ اسـتطاعَ المرءُ رؤيةَ الرسـومات على الجدار، وعلـى البَوابات وهم يُحَدّقـونَ يومـاً بعد يـوم باتجاه السَّـهل الأخضَر الهادئ الـذي امتَدَّ أسـفَلَ منهم بعيداً نحـو النهـر البعيد، يراقبون الغيمةَ المفزعةَ من الغُبار في الأفُق أو لمعانَ الشَّـمس على الأقواس المُتجمعَة وعلى الرّماح.

وبينمـا كان الحـرّاسُ مُسـتمرينَ فـي الحراسَـة، كانـتْ تبـدأُ خلفَهـم فـي المدينـة الاسـتعداداتُ الشَّديدة للحصار، حصار يُعلم سكانَ إشنونّا أنَّهم لن يستطيعوا مقاومته لمـدة طويلة ـ بينمـا كان موظفو المَعبد قد أفرغوا المكانَ المقدَّس من كنوزه بسـرعة، وحملوها بعيداً إلى مسـكنهم ليختموها داخلَ جدار بأمل يائس وعقيم أنَّهم سـيظلون أحيـاءً في تلك الأوقات الخَطيرة، يرون اليوم عندما يتمُّ إخراجُ الأطباق المُلمَّعَة لتُزَيّنَ مأدبتَهـم المُقدَّسَـةَ مـرةً أخرى. وفي حـال كان ذلك حلماً لا يتحقـقُ فعلى الأقل تبقى تلك الأواني محميَّةً لئلا تمسـها أيد شـريرة. على الرغم من أنَّهم لم يسـتطيعوا رؤيتَها ثانيةً، ولكنهم حفظوها من التدنيس ـ كما كانوا يدّعون ـ إذ لم يمسـهم أحد منذ لحظة إخفائهـم بحـذر إلـى أن قمنـا نحن أنفسـنا بإخراجها بلطـف من الجـدار، أعجوبة في عددها، وفي صنعها.

❊ ❊ ❊



منظر باتجاه الجنوب فوق القصر الأكّادي صوب معبد آبو
ويمكن مشاهدة برج دار البعثة الأثرية فوق خط السماء مباشرة



هانز في معبد آبو مع الدكتور برستِد الذي يقف مباشرة
فوق طميرة التماثيل المدفونة

كان الوقت تقريباً الآن نهايَةَ شـهر فبراير، ومع أنَّنا كنّا سـعداء فإنَّنا لمْ نَتوقَّعْ وصولَ جيش غازٍ، وكنّا نَرى بشـكل يوميّ تقريباً عموداً من الغبار من الجَنوب في الأُفُق، وفي الغالب أقرب.

قال هانز، وهو يراقبه مضطرباً: «لم نحْظَ بمطرٍ وافٍ هذا الشـتاء». وكانت الشَّـمسُ تتوهَّجُ كلَّ يوم، وتهبّ ريح حانقة لبضْع ساعات، ثم يَعُجُّ السَّطحُ الرمليُّ من الصَّحراء الجافَّة في الهَواء، وينتشرُ مع الرّيح، يعمي ويخنق. وبانهمار جيد للمطَر بين حين وآخر يتخلَّـل الأرضَ على عمق عدةَ إنشـات، يكـون كافياً لإيقاف الرّمـال والغُبار حتَّى ولو هبَّت الرّيحُ قويَّةً لمدَّة من الزَّمن. ولكنْ لم يأتِ المَطرُ أبداً، واشـتدّت الريح، وظهرتْ زوبعَة صغيرة قربَ الأرض، تُهَسْـهسُ وتهمسُ كأرواح شريرة، بينما كان جدول أصفرُ متعرّج يمتدّ في أديم الأرض الجافَّة الرَّماديَّة.

وصلتْ رسـالة من القاهرة، من جيمس هنري برستِد[1] James Henry Breasted، يقول فيها أَنَّه أنْهَى زيارتَه لمصر وقرَّرَ أنْ يسْتأجرَ طيّارةً ويذهبَ إلى العراق لبضعة أيام ليـرى الموقع، وذلك قبل إبحـاره إلى الولايات المتحدة؛ وفعلاً وصل بعد بضعة أيام. انتشرت الأخبارُ بسرعة بين العمال بأنَّ الأبَ لجميع المواقع قدْ جاء.

هـذا الأب لجميـع المواقـع بسـنواته السـبعين ونيّفاً ، أمضـى ثلاثةَ أيام يسـتوعبُ بنشاط كلَّ تفصيل في عملنا، سواءٌ كانَ ينتقل من نقطة إلى نقطة في الموقع، أو يدرسُ المخطَّطات في مكتب الرَّسم، أو يمسكُ اللقى الموضوعة صفاً فوقَ صف على طول الرُّفوف في غرفة الآثار القديمَة يستوعب بعين الخبير اللمّاحَة كلَّ شيء عُرض عليه.

تحـت الحاجـب الكثيف والشَّـعر الفضيّ النّاعم المسـرّح، كانت عينان سـوداوان

(1) جيمس هنري برستِد (1865–1935) عالم آثار مختص بالمصريات ومؤرخ أميركي ذائع الصيت، من أصول إنكليزية وهولنديّة، قام بحفريات عديدة في مصر والعراق. كان صديقاً شخصياً لغرترود بل، وهاورد كارتر، واللورد كارنارڤون، واللورد آلِنبي، والملك فيصل، وجون د. روكفلر الابن. يعد بلا منازع مؤسس الأبحاث الأثرية الأميركية لدراسة مصر القديمة والشرق الأدنى القديم.

تنظران نظرةً ثاقبةً بل بشكل مرعب مع تألّق ولطف في بعض الأوقات؛ لأنَّ لديه، على غـرار كثيـر من الرُّواد الصّارميـنَ والعلماء الأجلاّء جانباً مبهجـاً أخفَّ ظلاً. جلسَ في ليلته الأخيرة معنا مستعيداً بصوت هادئ لطيف ذكريـات الأيّام الأولى في مصر. لقد كان من الجيّد الجُلوسُ حولَ النّار المُتّقدَة في غرفة المَعيشَـة ومشـاهدةُ رأسـه النّاعم القديم والتفكير: «هذا هو برستِد، الذي حقَّقَ كلَّ شيء تقريباً عن طريق رؤيته وإرادته ـ تلك السلسلةَ الواسعةَ من الحفريات انطلقتْ من مصر عبرَ فلسطين عبر سوريا والعراق باتجاه بلاد إيران». أنا سعيدة لأنّني حظيتُ بتلك النظرة الخاطفة له.

أذكـرُ قصَّةً له عن موسـم السّياحة فـي الأُقصُر، عندما كان مشـغولاً كرجل شـاب بنسـخ نقش على قاعدة جدار لأحد المعابد، كان أدنى من مسـتوى الأرض، وكان قد حفر خندقاً عميقاً أيضاً ليكشـفَ أكثرَ السُّـطور الهيروغليفية انخفاضاً، فكانت الطَّريقةُ الوحيدةُ التي اسـتطاع القيامَ بها هي أن يتَدلَّى برأسـه أسـفلَ حافة الخندق حتَّى لا يبقى منه غير حذائه ظاهراً في الأعلى.

سـمع مجموعةً من السـيّاح تعبر، يقودها مرشـد إنكليزي؛ وسـأل صوت إنكليزيّ يشبه صوتَ عجوز مهيب (وقدّم البروفسور برستِد تقليداً منصف للنوع): «ماذا يمكن أن يكـونَ هذا الرجلُ يفعل؟» سـمعَ المرشـدُ يشـرح أنـه كان عالمَ آثار ينسـخُ كتابات منقوشـة. بقي برسـتِد مختفياً باسـتثناء حذاءَيـه المتحركين ثم وبعد توقـف طويل: «يا للطَّريقة الجميلة لكسب معيشتك!».

وفي الصَّباح، وكان صباحاً عاصفاً ومغبرّاً، قادَ سـيارتَه بعيداً نحو المطار في بغداد؛ وبعد سـاعة أو أكثرَ سـمعنا أزيزَ طائـرة؛ كان قد طلب إلى طياره أن يحلّـقَ إلى الوراء؛ ليسـتطيع إلقاءَ آخر نظرة على إشـنونّا القديمة من الجوّ قبلَ أن يغادرَ إلى القاهرة. كان أبو المواقع هناك في الجوِّ الآن، أثار بعضاً من الدهشة في العمال، إذ لم يكن معظمُهم قـد شـاهدَ طائـرةً في حياته قـط، وببـطء دارت الطّائرةُ حولَ التـلّ، بينما هـو ينظرُ إلى الأسـفل عبرَ السَّـديم نحوَ القَصر العظيم، ومعبد آبو الصغير، وإلـى مجموعة المنازل الخاصَّة بشـوارعها وأزقتها وإلى القصْر الجَنوبيّ العظيم ومعبد غِملسـين Gimilsin.

استدارت الطّائرةُ أخيراً واتّجَهَتْ غرباً إلى القاهرة البعيدة، وأخفاها السديمُ ولبضع دقائقَ أطول نبَضَت المُحركاتُ بضعف فإذا به قد ذهب، لقد كانت نظرته الأخيرة للشَّرق الأوسَط.

***

بدأ المطر يهطلُ تلك الليلة، وهطلَ بغزارة طوالَ النَّهار التّالي في فترة ما بعد الظهر. قال جبرائيل إنَّه لن يكون قادراً الآن على تحريك شاحنة المياه الآن لعدَّة أيّام؛ لذا يجدر بنا أن نكونَ حريصينَ جداً في استعمال المياه التي عندنا.

قال محَدّقاً عبرَ النّافذة المُبَلَّلَة: «لا أعتقدُ أنَّه بإمكاني الوصول إلى بغدادَ الآن حتَّى في سيّارة خفيفة الوزن». وشاركَ الجميعُ لفترة قصيرة بالانتعاش في الهواء، وبمعرفة أنَّ الأرضَ باتتْ بحالة جيّدَة مشْبَعَة بمياه الأمطار تماماً، والتَصَقَ الغُبارُ على الأرض ولكن لمدة قليلة فقط قابلتُ في المساء ييتي قادمةً من غرفة الغُلام. وبدت عيناها الجميلتان قلقتين جداً.

وقالت بسرعة: «إنَّه محموم جداً، اعتقدتُ طيلةَ النَّهار أنَّه لمْ يكنْ في حالَته الطَّبيعيَّة، ثمَّ عندما كنْتُ أضعهُ في السَّرير بدأ يبكي، وقال إنَّه متألم؛ لذا قست درجةُ حرارته: تقريباً 104 درجات فهرنهايت».

اختلجَ قلبي بشدة، فقد تغيَّرَ صوتُ إيقاع المطر خلالَ ثانية من رسالة مبهجة من الانتعاش إلى شيء مشؤوم جداً. كنّا قد عُزلنا تماماً عن بغداد، كما قال جبرائيل، إنَّ هطولَ الأمطار الآن بشكل مستمر يجعل قيادةَ السَّيارة أمراً صعباً عبرَ أيّ من الطريقين. هناك أطباء جيدون في بغداد، ولكن من المحتمل أيضاً ألا يوجد أحد منهم ليقدموا لنا المساعدةَ التي نحتاجها الآن.

هطلت الأمطارُ طوالَ الليل، وفي الصَّباح لمْ يكن يون بحال أفضل، وقالت ييتي بأنَّها اعتقدَتْ أنَّه من الممكن أنْ يكونَ لديه زُحار، كتبتْ رسالةً إلى طبيب إنكليزيّ في المشفَى شارحةً له جميعَ الأعراض، وكانت تسأله بإلحاح عن نصيحة؛ وطُلب إلى

أحد الحرّاس أن يمتطي الفرس هِلّي Hillai ليذهبَ إلى بغداد ويعودَ في اليوم ذاته دونَ إخفاق. لقد كان أفضلَ جزء من مئات الأميال، وأغلبُ الطريق كان عبرَ صحراءَ فائضة ومليئة بالمستنقعات.

شاهدناه وهو ينطلقُ خلالَ الأمطار المُنسكبة تحت السَّماء المُظلمَة، ملتفاً في عباءته البنية. شقَّتْ هِلّي طريقَها في الماء مُحدثةً رشاشاً في الطين باتجاه الطريق، واختفت الآن بشكل كامل تحت المطر. بدت كخيط ضعيف يوصلنا إلى المساعدة التي كنّا بحاجة إليها على نحو مُلحّ، وأيضاً كانت مواساةً غريبةً أيضاً أن نشعرَ أنَّ ثمّة خطةً ما قيد التنفيذ مهما كانت ضعيفة.

انقضى اليومُ السيء ببطء؛ وبدا كلُّ شخص يتجنبُ الآخرَ بقبول متبادل، واختَفوا في أماكنَ عملهم المختلفة. بالطبع لم يكن هناك مجال لأيّ حَفر. بالنسبة لي أنجزْتُ مقداراً كبيراً من العمل في البداية، إلى أن جلسْتُ قربَ يون لبرهة، بينما استراحت ييتي، ثم عدْتُ إلى المكتب ولمْ أستطع العَمَلَ أبداً، فقد كنت مريضةً بعارض الخوف.

مع حلول الظَّلام لم يكن هناك وجود لأيّ إشارة للحارس، وأدركنا ببؤس أنه ما لم يكن أصبح قريباً بما يكفي ليرى الضوءَ على البرج، فمن المحتمل أنَّه لن يستطيعَ العثورَ على طريق العودة، حيث لا قمرَ ولا نجومَ لتساعده. بعد العشاء توسلت ييتي إلى راحيل وإلي بعد العشاء للقدوم والتَّحدث في غرفتهم. جلسنا جميعاً هناك نهمسُ معاً حولَ الطَّريقة التي يُشفى بها الأطفالُ بسرعة كبيرة من الحرارة المرتفعة ومن الألم في بطونهم، وفعلنا ما بوسعنا لتصديقها كلّها، بينما همهم صوت يون من الغرفة المجاورة بتعاسة دون انقطاع، ودخلنا على رؤوس أصابعنا دخولاً وخروجاً من غرفته لعمل ما بوسعنا له. قال هانز في تلك اللحظة: «لقد توقفَ المطرُ». سحبنا الستائرَ، ونظرْنا إلى الخارج، لقد توقفَ المطرُ حقيقةً، ولكن انتشرتْ طبقة من المياه دون انقطاع بعيداً عن المنزل، يمكن رؤيتُها فقط تحتَ الغيوم المُنخفضَة.

أعطى التوسّعُ المروّعُ للسماء الممطرة طريقاً لغيوم سوداءَ متدحرجة ومنخفضة جداً، تتحركُ ببطء شمالاً، وسطعَ للحظة هنا وهناك نجم باهت ثمَّ ما لبث أن تلاشَى.

كانَ الوقتُ متأخراً جداً عندما سمعتُ نقْرَةً لطيفةً على الباب الخارجيّ. فتحه هانز، وهناك كان جبرائيل، وجهُه مستدير شاحب وغيرُ محلوق، وعيونُه دامعة، فهو يحبُّ يون حباً شديداً.

قال بهمسة مبحوحة: «كنتُ أراقبُ على البرج، أعتقدُ أني رأيتُ محموداً».

ركضنا عبرَ الباب، وصعَدْنا الدَّرجات التي تقودُ إلى السّطح المستوي لغرفة المعيشَة، وحدَّقنا عبرَ الأرض المُتحولَّة باتجاه الطَّريق المَغمور بالمَياه، وقدْ انقَشَعَت الغيومُ السَّوداء، وبعدَ لحظة سطعَ العالمُ كلُّه بلون فضيّ، وظهرَ محيط متماوج فيه موجات سوداءُ طويلة وفيه جزر.

أشارَ جبرائيل: «هناك». قالَ فجأةً: «إنَّه مقابلُ السَّماء الآن». لم نستطَعْ في البداية رؤية شيء. ثم ـ نعم ـ شيء ما يشبه خرزةً صغيرةً ينسابُ على طول الأفق على واحدة من أقرب الجزر ـ كان رأس محمود، لقد كان قريباً إلى حدّ ما الآن. كانت الغيومُ تحومُ حولَ وجه القمر، وغرق العالـمَ كلَّه مُجدداً في ظلام كلّي. ولكنْ بعدَ دقيقة أو اثنتين استطعنا سماعَ صوت رشاش ضعيف، ثمَّ سطعَ القمرُ مرةً أخرى، كان محمود يتَقدَّمُ ببطء شديد لمسافة جيدة، وهاهي ذي هِلّي تحرّك رأسَها المتدلي باتجاهنا، وهو ملتفّ حول رقبتها.

نزلنا إلى الدرجات الأمامية صامتين، وانتظرنا إلى أن انزلقَ إلى الأرض، بطيئاً ومتصلباً، سلّم بسأم، ولكنَّه ابتسمَ ابتسامةً خفيفةً وهو يسحبُ حقيبةً من كتفه وسلّمها ليبتي. كان فيها زجاجة كبيرة من دواء وبعض الحُبوب ورسالة. جاء سائسٌ محدثاً رشاشاً حول زاوية المنزل ليأخذَ هِلّي إلى الإصطبل، ووعدنا بأنَّها ستحظى بتدليك جيد جداً، وعلف من أكبر ما عُلفت به بحياتها. كان جبرائيل قد أُخبر ليتأكدَّ من أنَّ محمود نال وجبةً ساخنةً؛ ونزلوا معاً أسفلَ البرج، ترنَّحَ محمود، وذراعُ جبرائيل حولَ عنقه.

قالت يبتي وهي تتلقفُ الرّسالةَ: «يقول إنَّه سيأتي إلى هنا عندما يتمكن، من الأفضل

إعطاءُ الصبيّ القليلَ من الدواء الآن». كان وجهها متعباً جداً، وأخذها هانز من مرفقها؛ وذهبا بعيداً، وذهبا مباشرةً إلى غرفة يون.

فـي اليَّـوم التّالـي كان الولد قد تحسّـنَ قليلاً، وسـطعتْ شـمس حارّة علـى العالَم المُتبخّـر، وتسـرّبَ الكثيـرُ من المياه بعيـداً فـي الأرض المتقبلة. في اليـوم التّالي قال جبرائيل إنَّه يعتقَدُ أنَّ منَ الممكن أنْ يحْصلَ على سـيّارة إلى بغداد، وبدأ رحلتَه مبكراً جداً، وسـيارتُه تنزلقُ وترشـرش. وصلَ بنجـاح عائداً في وقت الغـروب تقريباً، ومعه الطبيبُ الذي قال إنَّه لـم يسافرْ في حياته أبداً عددَ أميال كهذه في طريق جانبيّ من قبل. بقي الليلة وقال إنَّ يون كان بالفعل لديه قليل من زُحار، ولكنه كان يتحسّنُ بشكل جيد. قال وهو يغادرُ: «إذا كان بالإمكان عندما يصبحُ مسـتعداً للسـفر، أخرجوه حالاً من هنا قبل أن تبدأَ عاصفة ترابيَّة حقيقيَّة، أو قبلَ أنْ يكونَ هناك أمطار أخرى».

ولـم يهطلْ مطر كغزارة المطر السّابق هذا الشّتاء.

قـال هانز: «أعلـمُ، إنَّها المَطـرةُ الغَزيْرةُ الأولـى هنا ـ وقد كانـت الأرضُ قد جفَّتْ تقريباً مرَّةً أخرى في بعض الأماكن». ولاحقاً بعد أيام ليست كثيرةً ـ بضعةَ أسابيع فقط قبلَ النّهايَة الطبيعيَّة للفَصل.

انطلقَ ييتي ويون معاً برفقة جبرائيل إلى المَطار، حيثُ سيبدآن رحلةً (جويةً) طويلةً إلى لندن.

رتَّـب جبرائيـل الحقائبَ، ولفَّها ببطانيات، وظلَّ يبكي طـوالَ الوقت؛ لأنَّ يون كان مريضاً جداً، ولأنه الآن كانَ قد شُفي، ولأنَّ كليهما كانا ذاهبَين، ولأنَّهم خلَّفوا وراءهم هانز، ولأنَّ.. حسنٌ، لقَد كانَ البكاءُ ممتعاً على أيّ حال.

جلسَ يون بهدوء على ركبتي ييتي، ليسَ الهُدوءُ في مثل نفسـه المرحَة، ولكنَّه كانَ مسـتعيداً صحته بشـكل ممتاز، ومبتسـماً، وعادتْ خوذتُه[1] إلى مؤخرة رأسـه، وكانَ يرتدي معطفَ السَّفر الأنيق الخاصّ بالبالغين.

---

(1) قلنسوة: لباس رقيق للرأس. (لسان العرب 11، ص 279).

انطَلَقَت السَّـيارةُ، ووقَفْنا جميعاً على الدَّرجـات ملوّحينَ إلى أن اختَفَتْ وراءَ رابية قريبة. راقبنا لبضع دقائقَ أطول، إلى أن ظهرت السَّيارةُ من جديد على أرض أعلى على بُعـد أكبر؛ وتأرجحَ صندوقٌ أسـودُ صغير لدقيقة في الأفُق. ثـمَّ اخْتَفَتْ عن الرُّؤية إلى الأبد. لقد كانت لحظةً سيّئَةً، لحظةً بغيضةً بالنسبة لهانز.

قالـت ريغمـور: «انظروا إلـى بَطَلَة القَصَّـة». نظرْنا إلى حيث كانـتْ تنظُرُ. عبرَ باب الإصطبل المفتوح، مَثُلَ رأسَ حصان هزاز، هزيل وطويل، بعين محدّقَة ونظرة رضا.

خـفَّ توترُنا فـي الضحك، وقال هانز لسِـتون: «أنا ذاهب في الحـال إلى معبد آبو، ولكنْ قبلَ ذلك هل بإمكان أحد ما أن يجدَ لي بعضَ قطع من السُّكر؟».

* * *

الفصل السابع

أحضر جبرائيل في إحدى الأمسيات برقيةً من غوردون ـ برقيةَ تحذير نموذجيَّة. بدَتْ كأنها مُشفّرة؛ لأنها لم تحتو على شيء سوى إشارة إلى مجلد توضيحي كبير، والذي توجد نسخة منه في خزانة المكتبة، أُتبعت بعبارة: «انظر صفحة 152». لقد كانتْ كلُّها مثيرةً جداً. جُلبَ الكتابُ، ووقفنا متحلّقينَ بينما قلّب هانز صفحاته بسرعة إلى أن وصلَ إلى الصفحة 152. حدثٌ مثير، لقَدْ احتَوتْ على صورة صغيرة لدبابيس من البرونز غيرَ واضحة أبداً. فإما أن يكونَ غوردون شديدَ الذكاء والخبث بالنسبة لنا، أو أن يكونَ هناك خطأ ما. وفي اليوم التالي أرسل هانز برقيةً تقول: «اللَّعنةُ على صفحة 152، ماذا تعني؟»؛ بينما تسلى البقيةُ بالسخرية من اكتشاف غوردون المذهل. وأخيراً وصلْتنا برقيةً أخرى: «عفواً لا بدَّ أنَّ مكتبَ البريد قد أخطأ جرّب صفحة 251».

جرَّبنا صفحة 251 ـ وتوقفْنا عن السخرية، لقد كانت هذه المرة صفحةً توضيحيَّةً بشكل كامل؛ وتُظهر ثوراً مجنحاً رائعاً منحوتاً بنقوش عميقة، وُجد قبل سنوات عدّة في خُرساباد، في قصر سَرغون الثاني Sargon II، وهو واحد من اثنين، كلٌّ واحد بعلو ستةَ عشرَ قدماً، ويزن حوالي أربعينَ طناً، وقد أحاط بالمدخل لقاعة عرشه. كان من الجليّ أنَّ غوردون لا بدَّ أنَّه قد اكتشف مدخلاً جديداً في القصر مزيّناً بتماثيل للحيوانات الضخمة نفسها. لقد كان هذا بالفعل اكتشافاً مذهلاً، وقد احتفظَ به سراً بحكمةٍ قدرَ استطاعته حتى اللحظة. وصلَتْ بعد بضعة أيام دفعة من صور، تُظهرُ المراحلَ الأولى للاكتشاف، كانَ القسمُ الأعلى للرأس البشري الهائل للثور معمَّماً بجدائلَ شعر متجعدة ولحية، وكان فقط على بعد بضعة أقدام تحت مستوى الأرض الحديثة.

بعيـداً جـداً، كان غوردون قد كشـفَ الأرضَ التي كانت تخفيه لبضعة أقدام أسـفلَ ذلـك لكي يظهـرَ رأسُ ذلك الوحش وحـده خارجاً من الأرض مبتسـماً بكرم، كما لو أنـه كان سـعيداً؛ لأنـه تحرّر ولو بهـذه الطريقة من أسـره تحتَ الأرض. لقـد بدا غريباً جداً ورائعاً، ولاحظتُ في بعض الصور أنه كان قد نما هناك عشـب حقيقيّ على طول مسـتوى الأرض، وهـل من الممكـن أن يكـونَ حقيقياً؟ أزهـار بين العشـب. لم تكن خُرساباد تبعدُ أكثرَ من 200 ميلاً إلى الشمال منا ـ وقريباً سنكون هناك.

ولكن ما يزال أمامَنا ثلاثةُ أسابيع قبل أن نغادرَ تل أسمَر، وفي الصَّباح التّالي نسيتُ مـا كان بخصـوص الأزهار عندمـا عبَرت الفناءَ وقـتَ الإفطار. كانت الريـحُ في الليل تعصفُ بشـدة، وصمـدت الشـجرةُ الصغيرةُ خـارجَ نافذتي إلـى الفناء محدثـةً حفيفاً متواصلاً مشوّشاً، كانت السماءُ صافيةً، والشَّمسُ متوهّجَة، ولكن عبر الفناء تماماً فوق الغرف التي شـكّلت جانبه الجنوبيّ ارتفعَ هناك ضباب أصفرُ طويل بمشـهد لم أرَ مثلَه مـن قبل أبـداً. قبلَ الذهاب إلـى غرفة الطعام ذهبـتُ بدايةً وراءَ المنزل متشـوقةً لرؤية جمال الأشياء في الخارج ـ وأمعنتُ النظرَ فزعةً.

كانـت الأرضُ برمّتهـا قد اختفتْ بسـتارة صفراء؛ واسـتَطَعْتُ وأنا أراقبهـا رؤيةَ أنَّ التخـمَ(1) العلويَّ للسـديم كان يرتفعُ كلّ لحظة أعلى في السَّـماء الزرقـاء، ممتداً رقيقاً يتلمسُ طريقَه على شكل أصابع باتجاه الشمس.

ذهبتُ متوجسـةً إلى غرفة الطعام، التي لم تكنْ تحوي نوافذَ خارجيَّة، وشعرْتُ في الحـال بالتوتر الكئيب بين الآخرين. ولدى إفطارنا مرَّ ظُـلّ فوق الغرفة؛ وعندما نظرنا عبرَ النوافذ إلى الفناء رأينا الضوءَ السّـاطعَ وقد بهت، وأنَّ الغرفَ المقابلةَ الآن وقفت في ضوء مروّع لكسوف.

علَّقّـت راحيل مواسـيةً: «في الغالب تجلـبُ تلك العاصفةُ دائمـاً غيوماً ممطرةً في النهايـة»، وذهبـتْ إلى غرفة الآثار القديمـة. ذهبتُ إلى المكتب، وبعد مراقبة السَّـماء

(1) التّخْم: منتهى كل قرية أو أرض. (لسان العرب 2، ص 21).

الجنوبيَّة لبضع دقائق وهي تظلمُ وتتحولُ من أصفرَ إلى كهرمان قاتم، أشعلتُ الضوءَ وأدرْتُ ظهري للمشهد الكئيب، كان من الصعب العمل. كانت هناك جلبة رتيبة قوية، ضربت الريحُ المتصاعدة بغضب في كلّ زاوية وسطح وقف في ممرّها العملاق، وراحت تزمجر أحياناً بسخرية عند دخولها الممرّ الضيق خارجَ باب المكتب، ذهبْتُ مندفعةً جانباً إلى الفناء الأبعد، وعند مرورها به قذفت بقوة الرّمال المحمولة على الباب والنوافذ بقوة متزايدة، حيث تدفقَ من تحت الباب، وتسرَّبَ شيئاً فشيئاً حتى من تحت الأطر المعدنيَّة للشبابيك المغلقة بإحكام؛ وامتلأت الغرفةُ تدريجياً وأظلَمتْ، وحتى بعد أن مسحتُ الغبارَ عن المصباح المتوهّج على المكتب اخترقت ومضاته بصعوبة الضباب الخانق. نظرتُ إلى الخلف فكانت السَّماءُ بنيةً قاتمةً بشعةً الآن، واستطعتُ بصعوبة تمييزَ الغرف عبرَ الفناء.

بدأتُ أشعرُ بالخوف، اعتقدتُ أنه يمكنني أن آخذَ بعضَ العمل وأذهبَ إلى غرفة الآثار القديمة، محدّثةً نفسي أنني يمكن أن أكونَ بحماية أكثرَ هناك ـ فهي ذاتُ باب مزدوج، هذا شيء؛ ولعلمي حقاً، بأن ما كنتُ أريده كان الصحبة. ولحظة أن أدرت مقبض الباب انفجرَ الباب مفتوحاً قبالتي، وتدفق هدير[1] رهيب لغيمة من غبار لاذع عليّ وإلى داخلَ الغرفة. نجحتُ بالخروج وإغلاق الباب، ثمَّ كان عصف يدور داخلَ الفناء التالي، لقد كانتْ غرفةُ الآثار القديمة أهدأَ كثيراً، ولكنها مظلمة جداً. كانت راحيل هناك تعملُ وهي تبدو محمومةً ومتعبة. بعد برهة بدأتُ أتساءَلُ إنَّ كانت متوترةً، أو أنها كانتْ بالفعل تنالُ مشقةً بالتنفس الطبيعي.

قالت راحيل ببطء: «لا أعتقد أننا مررنا بمثل هذه الحالة السيئة من قبل. كانت تسبب لي في بعض الأحيان بعضَ الحمى. ربما نحاول ربطَ مناديلَ حولَ أفواهنا». قمنا بذلك، وجلسنا جنباً إلى جنب برهةً، كنّا ننظر إلى الأعلى نحو النافذة من وقت لآخر ونحن نعمل، وعند منتصف فترة الصباح لم يكن هناك سماء ولا بيت ولا أرض بل ظلام تام. عواء عاصف يضغط على النافذة بثبات.

(1) هدير: هدر: صوّت. (القاموس المحيط، ص 639).

فكَّـرْتُ بالمنـزل الذي كنّا نـراه في بعض الأحيان على بضعة أميـال بعيداً عندما كنّا نمتطـي الجيـاد، بدا كلعبـة بنّية صغيرة مقابلَ الغيـوم الهائلة. ضاعَـت الآن تلكَ البقعةُ التـي فـي كانت في الصحراء في سـواد هائج وقـعَ عليها بثقله من ارتفـاع عدد لا يعلمُ أحد أمياله إلى الأعلى، يضغطُ إلى الأسـفل داخلَ رئاتنا مع كلّ نفس سـطحي نأخذه، توقفْنـا عن العمل، وبعد برهـة فُتح الباب الخارجي بعنف وصُفـقَ ليغلق، ودخل هانز عبرَ الباب الداخلي، وقد ربط وشـاحاً رطباً حول أنفه وفمه وقد انزلق الآن إلى أسـفل ذقنه.

قال بقسوة وهو يسعلُ قليلاً: «هذا قبيح. إنَّ محاولةَ العمل الآن غيرُ مجدية. أخبرتُ الطاهـي أن يجلـبَ لنا بعضَ أنواع الوجبات في الحال، ويضعَها في غرفة المسـتودع ـ إنَّـه المكانُ الأكثر وقايةً ـ وبعد هذا سـيكونُ من الأفضـل لنا جميعاً الذهابُ إلى أرض غرفنا. علينا في العام المقبل إما أن نوقفَ الحفرَ في وقت أبكر، أو أن نُحضرَ أقنعةَ غاز، لا أحبُّ هذا أبداً».

تبعناه نحو الخارج رابطينَ مناديلنا على معظم وجوهنا، وقاومنا للوصول إلى الباب الخلفـي للمطبـخ، وتنفتـحُ غرفةُ المخـزن خارجةً منـه، كان الطاهي المسـنُّ والخادمُ الكـرديّ عبد الله قد سـدّا نافـذةَ المطبخ بقماش مبلل، وحصـلا بطريقة ما على طاولة وكراسـي في المخزن الصغيـر. دخلَ البقية، واحداً تلوَ الآخر، أشـبهَ بمقاتلين منكهين في حومة الوغى، وعيونُهم دامعة فوق مناديلَ مغبرّة. لم يتحَدَّثْ أحد كثيراً؛ ولا استطاع أحد أن يأكلَ الكثير. ولكن كان هناك ابتهاج لوجودنا معاً، نتمتمُ مع بعضنا في الظلام، وقد أقحمنا بين رفوف مملوءة بعلب فواكه ومربى ونقانق وجزر وزجاجات من قشدة السَّـلطة وعصير طماطم ومخلل؛ واشـتبكت أقدامُنا بسـلال ضخمة منسوجة مملوءة بالبيـض، وجـد هانز عدةَ زجاجـات من الخمر تُركـت منذ ليلة عيد الميـلاد على رفّ خلفه، وأمرَنا بالإتيان عليها، قائلاً بأنها تبدو لحظةً مناسـبة. استمرّت العاصفةُ السوداءُ بالهيجـان في الخارج، وجلسْـنا هناك نزيلُ الغبارَ، ونؤجلُ الرحلـةَ المروعةَ في العراء للعودة إلى غرفنا.

عندمـا انتهـت الحفلةُ أخيـراً التجأتُ إلـى غرفتي، جـزء مني يختنـقُ وثلاثة أجزاء مخمورة. وكانت قدماي تسحنان الرَّملَ الذي اندفعَ إلى الداخل من تحت الباب طوالَ النهار. انسللتُ تحتَ الأغطية العلوية على السرير، وسحبتها فوق رأسي، وحاولت ألا أهلعَ. شعرت بألم في صدري، وتسارَعَتْ ضرباتُ قلبي، كان هناك سلوان واحد فقط؛ رأيت لوهلة رؤيا صغيرة مشـرقة ليون Jon يلعبُ في مكان ما في الهواء النظيف النقيّ في هامستِد هيث Hampstead Heath. ثمَّ وبرحمة دخلت في ذهول كحولي محموم وبقيتُ بنصف وعي بقيةَ النهار.

كان هنـاك أحد ما ينقر على باب غرفتي أو أنها كانت النافذةُ؟ نهضتُ ببطء، أضأْتُ المصباحَ، وقلتُ بصوت أجش: «ادخل». لم يحدثْ شـيء؛ ولكن اسـتمرَّ النقر بشكل أسـرع وصوت أعلى. رفعت كمي ورأيتُ أنَّ الساعةَ كانت تجاوزت العاشرة. غريب. ثم نظرت حولي عبر النافذة الخلفية التي تواجه الصحراء. كان هناك آثار سـوداءُ رطبة تتبعُ بعضَها إلى أسفل الزجاج.

كنتُ خلالَ لحظة عند الباب، ودفعتُه على مداه؛ بابتهاج تام وثبتُ عبرَ الطريق الجاف المغطى إلى الفناء المفتوح، كانت تهطلُ بغـزارة ـ لكنها تمطر طيناً، كان المطر قد بدأ للتو، وبسـقوطه عبر الغطاء السـميك فقد كان يحملُ معه الرملَ، تراجعتُ إلى مدخل باب غرفتي، مرشرشـةً بالطين، وراقبت وأنا أتنفس في الهواء الذي أصبحَ نقياً بسرعة. بدأَتْ بقع صفراءُ عديمةُ الشـكل تلوحُ عبرَ السـديم والمطر؛ هي النوافذُ المضاءةُ عبر الفنـاء، فكانـت البرهانَ الوحيدَ لوجود تلك الغرف المخفيـة هناك، ثم فجأة تماماً كأنَّ أحدَهم قد ضبط بنجاح صورةً واضحةً عبرَ منظار الميدان، طافَ الفناءَ كلَّه في مشـهد ثابـت وواضـح، وعادت مـرةً أخرى النوافذُ مسـتطيلةً متألقة، وعـادتْ ظلالُ دعامات الطَّريق المغطى قبالتها سـوداءَ منخفضة. وبـدأت الأبوابُ تفتحُ، وتألقت أضواء أكثر، حين ظهر الآخرون أيضاً ليستنشقوا أوَّلَ مقدار مبارك من الهواء النقي.

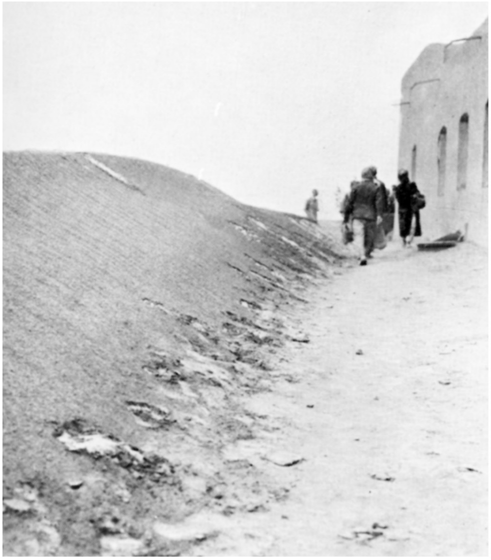
هدأ الغبار، ولكنَّه استمرَّ بالانصباب، فتحتُ النافذتين كليهما لتنقية هواء الغرفة؛ ثم ذهبتُ إلى السـرير غيرَ مكترثة بالفوضى من حولي، مهملةً بشـرةً جافةً صلبةً وحنجرة

متألمـة؛ كلُّ مـا عرفتـه هـو أنَّ الرّعبَ انتهـى، وأنَّ صـوتَ المطر كان أجملَ موسـيقى سمعتُها في حياتي.

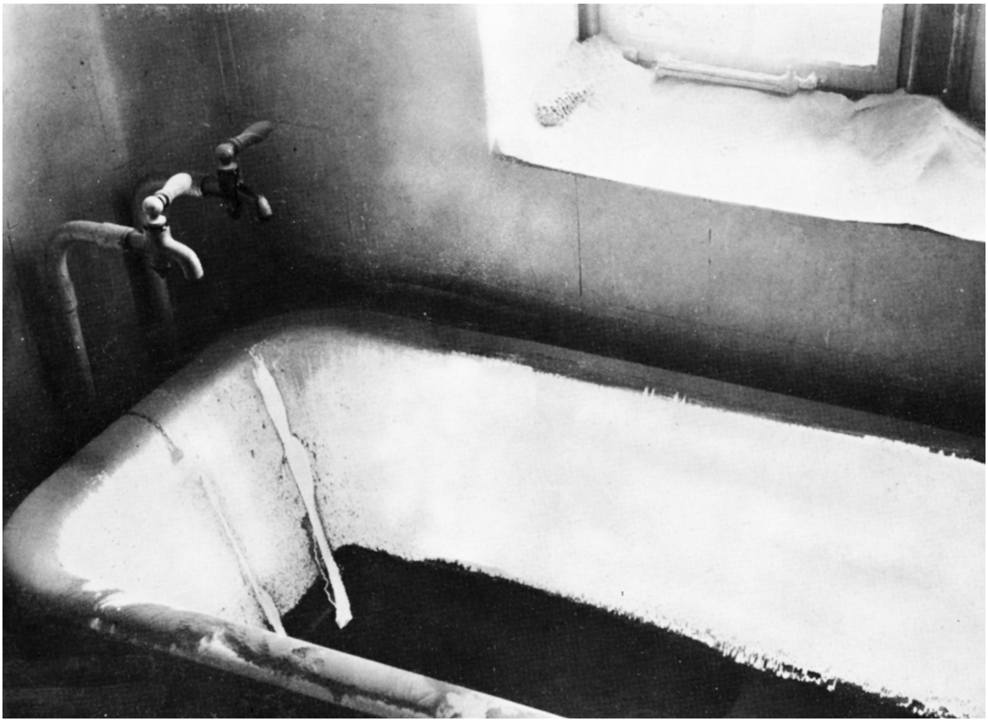
في اليوم التالي تحوّلنا بذاتنا إلى مشـروّع تنقيب، حيث حفرَ العمالُ لنا بمجارفهم، وهرولَ أولادُ السـلة بعيداً مع أطنان من الرمل الرطب، كثيباً ضخماً بما يقاربُ ارتفاعَ الغرف كان قد شُـكّل على طول الجدار الجنوبيّ لساحة المنزل الخارجيَّة حيث كانت الرمـال تضـربُ قبالته، ثمَّ ترتدّ إليه، وكانت الأفنيةُ قد مُلئـت برمال متراكمة. بالتدريج وجـد لنـا العمالُ سـطحَ أرضنا، تمامـاً كما لو كنا سـومريين قدمـاء. وكان على جميع الغـرف أن تتفرغَ من الأثاث بالكامل؛ أُخرجت جميـعُ الأدراج خارجاً وهُزّت. أخرج عبد الله كلَّ ثيابي، ووضعها على غطاء السرير على الأرض، مشيراً بتواضع أنه سحبَ خزانةَ الأدراج خارجاً إلى الفناء وأن مهمةَ هزها في الخارج كانت عليه.

اسـتغرق ذلك يومين ليسـتعيدَ البيتُ خطوطَه المنظمةَ النظيفـة؛ ومن بعد ذلك عاد العمـالُ إلـى منطقتهم، حيث كانـت لا تزالُ الأمطارُ تنهمرُ، كيف اسـتطاعوا اتقاءَ تلك العاصفة، متكدسـينَ في ملاجئهم، كان شيئاً يصعبُ فهمُه. وبغض النظر عن أنَّ الكثيرَ منهـم يعرضون أنفسَـهم عند خزانة الأدوية بعيون متقرحة وسـعال، فإنـه لم يبدُ عليهم غير ذلك.

* * *







الصباح التالي للعاصفة الرّمليّة

عندما توقفَ المطر، بدأَ سِتون وجايك وهال بترميم الضرر في الموقع، وكان من الواجب عليهم إعادةُ تفريغ كثير من الحفر ثانية. أثناء ذلك امتَدَّت الصَّحراءُ ساكنةً تحتَ سماء ربيعية صافية، ولبثت الأرضُ قاتمة ورطبة، مع برك قذرة في جميع التجاويف. استمرَّت البركُ بالتضاؤل تدريجياً يوماً بعد يوم مما يعني أنَّه على الرَّغم من أنَّ الهطلَ الأول كانَ قد غارَ بعيداً وبسرعة كبيرة فإنَّ السطح قد جفَّ سريعاً جداً، والأرضُ المغطاةُ بقيت رطبةً، والآن تحفظ المطرَ المنهمرَ على سطح الأرض عندما كانت منطقةُ المنزل في الموقع قد نُظِّفَتْ، قرَّر هانز أن يوقفَ الحفرَ هنا هذه السنة، لذا سيتسنى لهال أن يحظى بوقت كي يواكبَ المسحَ الذي قامَ به؛ عاد جايك إلى المنزل بسعادة كي يركِّزَ جهودَه على الألواح وطبعات الأختام التي وجدت خلال الموسم.

أصبحَ سِتون الآن بعيداً في الأسفل في بناء أقدمَ من معبد آبو، الذي صنّفه هانز في الجزء الأوسط من حقبة السّلالة الحاكمة الباكرة، محتكماً إلى نمط الأختام الأسطوانيَّة التي وُجدَت فيه، كان المعبدُ طويلاً وضيقاً، مع مذبح يغطي تقريباً الجدار الغربي. قبلَ المذبح كان هناك صفٌّ من ركائزَ من آجر طينيّ منخفض، التي كانت مناضدَ لحمل القرابين، وكانت هناك منابرُ (منصات) صغيرة مرتفعةً مقابلَ الجدار الجنوبي.

قال هانز: «يُفترضُ أنها من أجل التماثيل، فقد كانت عادةُ العبّاد أن يضعوا جميعَ تماثيلهم في معبد، وكأنهم يريدونَ أن يبقوا أنفسَهم في حضرة الإله باستمرار، ولكن في هذا المستوى لم تكنْ هناك أيّة إشارة لكسرة تمثال».

سأل سِتون إن كان مستعداً للتصوير الأخير؛ لأنه لم يكن ينوي أن يمضي إلى أيّة نقطة أعمقَ بالحفر في هذا الفصل أيضاً.

أجابَ سِتون: «تقريباً، وصلنا فقط إلى مستوى الأرض فقط عند المذبح. بإمكانهم البدءُ بالتنظيف الآن».

فطلبَ إلى العمال أن يبدأوا بتنظيف الأرض بكاملها، وأخذ واحد منهم فرشاةً كبيرةً، وبدأ في المشكاة الضيقة في الجهة اليمنى بين المذبح والجدار الشمالي. راقبه سِتون

لدقيقة؛ ثمَّ توقَّفَ ليلتقطَ رقاقةً من الرمل النّاعم الذي خرج من الزّاوية، كانت الرقاقةُ مثلثةَ الشكل، ملساءَ ماعدا قاعدتَها، فحصها لدقيقة. إنَّ أيّ شخص ما عدا عالمَ آثار جيد كان ليقذفُ الشيءَ الصغيرَ بعيداً دون أيّ تفكير ـ ولكنَّ الذي حدث أنَّ سِتون كان عالمَ آثار في الحقل جيداً جداً. وضعها بحذر في علبة كبريت، ووضعَ العلبةَ في جيبه.

وصلَتْ ريغمور وأمضَتْ ما تبقى من فترة بعد الظهيرة، وهي تأخذُ صوراً للمعبد الصَّغير النظيف، كنْتُ في الصباح التالي أطبعُ في المكتب، سمعتُ صوتَ أقدام سريعة تعدو بمحاذاة الباب، وشاهَدْتُ بعدها غلاماً من الموقع، هو حُسين الصّغير، كان يهرولُ عبرَ الفناء إلى باب مكتب هانز. بعد لحظة، ظهر هانز وأتى مسرعاً إلى المكتب.

«أعطِ هذا الغلامَ جميعَ الأدوات ليُخرج جميعَ الأشياء الهشة، ممكن؟ وبعدها تعالي أنت بنفسك. فلدى سِتون بعضُ التماثيل!».

اختفى؛ وأخذت حُسين الصّغير إلى الغرفة القديمَة وحمّلتهُ صندوقاً كبيراً مملوءاً بسكاكين وفراشٍ وقطن طبيّ وصناديقَ صغيرة ثم هرول خارجاً. رفعت راحيل نظرَها متسائلةً.

قلت: «تماثيل في المعبد؟».

صاحت وقد ألقت قلمها الرصاص: «أوه، رائع!». اندفعت إلى الخارج «سأتبعك فوراً».

كان سِتون وهانز وحدَهما في معبد آبو عندما وصلَتْ إليه. كانا جاثمين مقابلَ المشكاة جانبَ المذبح، وكومة جديدة من الرُّكام حولهما على الأرض النظيفة.

كانت المشكاةُ ضيقةً جداً إذ أنها سُدَّتْ تماماً بهما.

انتقلتُ حولَهما، وتسلقْتُ على القسم الأعلى من المذبح، وحدّقْتُ من فوق رأسَيهما.

قال هانز: «انظروا إلى هذه، وجد سِتون أنّ الأرضَ كانتْ رخوةً هنا».

كانَ في أسفل أرض المشكاة تجويفٌ مستطيل طويل، استطعتُ أن أرى فيه تماثيلَ وامضةً، حُزمتْ بإحكام بعدد كبير من تماثيلَ حجرية بيضاءَ وصفراءَ شاحبة ورمادية؛ هنا عين غريبة تفرّستْ، وهناك يدٌ وأصابع طويلة التفّت حولَ كوب، بدت وكأنَّها تنبضُ بالحياة عندما قام سِتون بتنظيفها بلطف بأصابعه.

قال هانز بهدوء: «مذهل، لنبدأ بإخراجها».

وتحرَّكَ عائداً ليدعَ سِتون يدخلُ الحفرةَ بحرية. فراح يحرّر التماثيلَ المبعثرةَ واحداً واحداً، ويناولَها لهانز، بينما رحتُ أنا وهانز نمدّدها على قطن طبيّ على الأرض القاسية، كان يبلغُ طولُ معظمها أكثرَ من قدم. وكان العديدُ منها مكسوراً، ومع ذلك فإنَّ جميعَ القطع المكسورة كانت في مكانها؛ قال هانز إنها بدتْ كما لو أنَّها كانتْ سليمةً عندما طُمرت، ولكنَّ وزنَ البناء المتعدد للمعبد فوقها كسرها وحطمها. ظهرت تماثيل أخرى، رجال ونساء، الرجالُ بمآزر مزينة بأطراف مشرشبة، والنساء بعباءات طويلة ملقاة على كتف واحد، في حين تُرك الآخر عارياً. وكان الجميعُ مشبوكي الأيدي أمامهم، وبعضُهم يحملُ أكواباً.

قال هانز: «إنهم عُبّاد، بالتأكيد».

التقط سِتون بعضَ الكسَر ووضعها في صندوق وراءه.

قال: «هناك اثنان أيضاً، ولكنهما أكبرُ بكثير ـ أعتقدُ أنَّ عليّ توسيعَ الحفرة بمقدار أكبر».

جاءت راحيل عبرَ بوابة المعبد، ووقفتْ فجأةً، تحولَّتْ بنظرها ثم ثبتتْهُ على المشهد في الأرض. صفّ طويل من اثني عشر شخصاً حجرياً بعيون كبيرة، وأيد متشابكة، حدَّقَتْ بها بصمت كصمت الصَّلاة.

قال هانز: «راحيل، انظري إلى هذه».

نظرتْ راحيل، وأطلقَتْ صرخَةً مفاجئةً وهي جفلة ومندهشة ومبتَهجة. حسناً ربما بسبب تحديق زوج من العيون المرعبة عبرَ الظلال، عينان كبيرتان بلون أسودَ ومقلتان

وامضتان[1] بلون أبيضَ وُضعَتْ في وجه رجل ملتح وامرأة، يحمل كلٌّ واحد منها كوباً. وقفت راحيل في الخلف وقد أبكمَتْها الإثارةُ، وبدأ سِتون مَهمَّةَ استخراجه التماثيل. وبالتَّدريج راح يحرّرُها من الأرض المحيطة؛ وأخيراً أنزلَ سكّيناً وفرشاةً وأدخلَ يديه كلتيهما في التجويف، كانت التَّماثيلُ محَطَّمةً في أماكنها، ولكنها كاملة تقريباً؛ أخيراً أُحضرت ووُضعت بجانبَ الأخريات. لقد كانت بالفعل أكبرَ وأثقلَ بكثير، كان الشَّكلُ الذكوريُّ أكثرَ من قدمين في الطول، كما وقفت البَقيَّةُ على قواعدَ حجريَّة ثقيلة.

لمْ يتفوّه أحد بشيء برهةً. لقدْ حدَّقْنا بها، وبالمقابل حدّقت بنا بأعين واسعة مرعبة لا ترى، عندما استطعْتُ سحبَ نفسي بعيداً ببطء رأيتُ أنَّ قاعدةَ تمثال المرأة فيها فجوة عند قدمها اليسرى؛ وفي تلكَ الفجوة وقف ابنُها ذاتَ مرة، فالأقدامُ الصَّغيرةُ لا تزال هناك.

قال هانز: «لا بدُّ أنَّها الإلهة الأمُّ مع ابنها». كان وجهُه أبيضَ إلى حدّ ما تحتَ حرق الشمس. أعتقد أنه بات منهكاً تحت ضغط ابتهاجه، وبسبب المحفّزات الهائلة الجديدة والتي لا بُدَّ أنها جعلتْ أفكارَه تتسابقُ عبرَ هذا الحَدَث الذي لا يُصدَّق.

كانَ الرجلُ ذا شعر كثيف كهرمانيّ أسودَ ولحية طويلة متموجة؛ كانَ الشَّعرُ قد لُوّنَ بالقار الأحمر والمقلتان البيضاءان قد قُدّتا من صَدَف؛ وكانت القزحيتان الضخْمَتان من حجر أسودَ وقد ثُبتتا في دوائرَ قُدّتْ من صدف.

دمدم هانز محركاً رأسَه قليلاً: «إنه مذهل تماماً، للأسف ينقصه نهاية أنفه؛ وإلا فهو كامل».

انحنى سِتون وفحَصَ الطَّرَف المكسور وفجأة: «يا هل تُرى...». وسَحبَ بسرعَة علبةَ كبريت ـ وأخْرجَ منها كسرةً من حجرة بيضاءَ مثلثة الشَّكل، ملساءَ باستثناء القاعدة... راقبناهُ ونحن حابسي الأنفاس بينما قرّبها من الوجه الغريب المقلوب، وبدقة وضَع الكسْرةَ في مكانها. متطابقَةً على نحو دقيق.

قالَ هانز بعد برهة: «أعتقدُ أنَّ هناك بعضَ النقش على قاعدته». كان الغبارُ ما

(1) وامضتان: ومض: لمع، وأومض فلان: أشار إشارة خفية. (القاموس المحيط، ص 847).

يـزال ملتصقاً على كلّ أصابعه؛ ونظَّفَ بسـرعة وبحَذر مقدمـةَ القاعدة العَميقَة للتّمثال الضَّخم، وبسقوط الغُبار ظَهَرَتْ لوحة جميلة لنحت منقوش لغزالين جثَما بسلام ظهراً لظهر كشكلين رعويين، بينما التفّتْ أغصان مورقة خلفهما؛ وبينهما رفرف النسرُ برأس الأسَد بأجنحة ممدودَة إنَّه إمْدُغود Imdugud.

قال هانز بهدوء شديد: «راعي القطعان إلهُ النبات، هذا هو إلهُ المعبد.. آبو بذاته».

كانـت لقيةً فريدة لا بسـبب عدد التماثيـل التي وُجدَتْ معاً في كنز واحد فحسـب، ولكنْ بسـبب التاريخ القديم للتمثال. لا شـيءَ أبداً يعادله بيـن كلّ ما عُثر عليه من قبلُ فـي التنقيـب في بلاد ما بيـن النهرين أو منذ بـدأ التنقيبَ فيها. قليل مـن نماذج النحت الحـرّ المجسّـم[1] تمّ صنعُه قبلَ هـذا التاريخ في هذه المنطقة، وتتألـفُ وقتَها بالدرجة الأولى من تماثيلَ صغيرة. ولكن هنا دون أية خلفية واضحة لتطور نحتي بطيء ظهَرت هذه الأشـكالُ ذواتُ الزوايا الغريبة منحوتةً ببراعة فائقة متوازنة بين تصوير للأشـكال البشـريَّة وشـكل مثالي مطلـق. ظهرت كما لـو أنَّ النحّاتين القدماءَ شـرعوا في تصوير رجال ونسـاء أثناءَ الصَّلاة في المعبد، كانوا مشُـغولينَ بفكرة العبادة ذاتها إلى حدّ أبعدَ كثيراً من الأشكال البشَريَّة الضعيفَة التي تقدّمُ العبادةَ للإله؛ أو على الأصح: كان الشكلُ موجوداً، ولكنه مبسط جداً، وجُعل تابعاً لما هو أكثرُ من فكرة بشرية.

كانت الأجسادُ حادَّةَ الجَوانب، وملامحُ الوجه بدائيَّة، والأرجلُ ثخينةً بشكل مذهل، من أجل أن تدعمَ الوزنَ الكبيرَ للحجر الذي في الأعلى وحتى الوضعيةَ المتوازنةَ تماماً، والأكتافَ الذليلةَ المرفوعَةَ قليلاً، والأيدي المتشابكةَ والوجوهَ المقلوبةَ الخاشعةَ التي عبَّـرتْ بقدرة مطلقة المشـاعر الجوهرية للعبادة. لقد كان عمـلاً قوياً للرجال في بداية زمن متمدّن مسـتقر ليسَ بعد سـنة 3000 ق. م بكثير، يَتّقدُ مع حافز جديد تماماً للعالم القديـم؛ ليترجموا للمرة الأولى مشـاعرَ عميقةً إلى مصطلحات من نحت مُجسّـم. إنَّه حافز لـم يمتْ منذئذ إلى الآن بين الحرفيين الذين ينحتونَ الخشَبَ والحَجَر.

---

(1) تستخدم تشَبْ التعبير الفني: carving in the round أي النحت المجسّم ثلاثي الأبعاد، الذي يوحي بشكل الشخص أو الحيوان المراد تمثيله بأبعاده الطبيعية من جميع اتجاهات النظر إليه.

اعتقد هانز أنه بخلاف كنز الأواني النحاسية والسكاكين التي تعودُ إلى بناء متأخر في معبد آبو Abu، لم تكن التماثيلُ قد طُمرتْ لحمايتها في الأوقات العَصيبَة. لم يكن هناك دليل على أيّ تغيير عنيف توحيه آثارُ نار أو تقنيةُ بناء جديد، فقد أعيدَ بناءُ المعْبد الصَّغير بسَلام فوقها. بدا كما لو أنَّها كانت عادة أنَّ تجددَ تماثيلَ العبّاد والآلهةَ عند تجديد بناء المعْبَد، فالتَّماثيلُ الحاليَّةُ كانتْ تجمعُ بحذر وتوضَعُ لتَستَقِرَّ في مكان مخصص قربَ المَذبح. وُجدَتْ شظايا من تماثيلَ أخرى في المستويات الأعلى والأحدث، وربما كانت هذه في الواقع كلُّ ما بقي من تماثيلَ كانت ما تزالُ تُستخْدمُ في زمن الفتح الأكّادي. لم تكنْ تماثيلُ الكنز قد طُمرَتْ لأنها بليَت، فجميعُ الزوايا ما زالتْ حادةً، ولم تتشوش الأسطحُ مع الزمن، كما كان لونُ الشعر واللحى متألقاً وغامقاً؛ وعلى الأغلب فإنَّ كلَّ انهيار وتحطُّم كانَ سببُهُ كما قلتُ، ثقلَ التجديد المتراكب على الأشكال المكتظة بشدة. لا بُدَّ أنْ يكونَ الثقلُ كبيراً، فعلى مئزر أحد العُبّاد كانتْ آثار واضحَة لحواف التنانير في المقدمة والظهر لتمثالين فوق وأسفل منه، ضُغطتْ تماماً في حجر الكلس الأصفر الذي قُدَّ منه.

اعتقدَتْ ريغمور أنه مع التَّصوير الأخير لمعبد آبو في الموقع وباللقى النحاسية في الداخل فإنَّ عملَ موسمها كما كان قد تمَّ إنجازُه بشكل جيد قد بدأ من جديد مرَّةً أخرى. فكلُّ تمثال سُجّلَ ونظّفَ ورمّمَ، بدأتْ تعملُ عليه وهانز يطلبُ متلهفاً مناظرَ أماميَّةً، ومناظرَ خلفية وصوراً جانبية وصوراً قريبةً للرؤوس والأيدي والأقدام والقواعد.

قال: «علينا أن نأخذَ كلَّ صورة ممكن أنْ تؤخذَ هنا. الإلهُ والإلهةُ سيُرسلان بكلّ تأكيد إلى بغداد عند إجراء عمليّة اقتسام اللُّقى، وربَّما معظمُ الأشياء الأخرى؛ لذا علينا أن نأخذَ صوراً لمنشوراتنا في الحال، ولا يمكن لأحد أن ينتجَ أشياءً أفضلَ منك ريغمور».

أطلقتْ ريغمور ضحكةً صاخبةً، وتصارعتْ مع الوقْت ودون الحاجة للقول بأنَّها حقَّقَتْ مجموعةً كبيرةً من الصُّور الجميلة عندَ نهايَة المَوسم.

* * *



«كانت تحدّق بنا بعيون واسعة مخيفة متوعّدة»

جـاءَ يومُ التقسـيم، جاءَ المديـرُ الجديدُ للآثار القديمَة، الذي نقّـبَ في أرك Erech (الوركاء) لعدَّة سـنوات، جاءَ ليقومَ بانتقاء الآثار لمتحف بغداد؛ هو رجل وسيم بشعر أبيضَ وعينين زرقاوين وصوت جميل صادح. كانَ عبقريّاً، فَقَدْ فسَّرَ قانونَ الآثار بجدارة مـن وجهة نظرنـا. هذا القانونُ وضعتهُ غُرترود بِل Gertrude Bell قبلَ ثماني سـنوات عندمـا أصبحـتْ المديرة الأولى للآثار القديمة في العراق. ينـصّ هذا القانون على أنَّ أيّ شـيء فريـد يعثر عليه المنقّبـون ينبغي إبقاؤه ضمن المجموعـة الوطنية في متحف بغداد، وبعد ذلك تُقَسَّـم اللقى المتبقيةُ بإنصاف بين مديريّة الآثار وبعثة التنقيب. وكما توقـع هانـز، تم أخذَ الإله والآلهة إلى المتحف، حيثُ يقفـان حتى هذا اليوم[1]، ولكن أرسـل المديرُ الكثيرَ من التماثيل الأخرى إلى شـيكاغو، كلٌّ واحد منها على الرغم من تشابهها من نواح عدَّة، كان متمايزاً من ناحية أو أخرى، وكان بالإمكان وبطريقة قانونية تماماً تخصيصُها لبغداد.

كان هانز راضياً بنتيجَة التَّقسيم؛ وفي وقت متأخر من المساء ذهبَ المديرُ ذو العينين الزرقاويـن اللامعتيـن إلى بغداد. لم نكنْ نعلمُ وقتَها أنَّه كانَ أحدُ أبناء هتلَر الأكثر زرقةً في العينين، وأنّه كان يستخدمُ وضعَه الوظيفي في بغدادَ بهمّة عالية كقناة لنقل الأفكار، وأكثـرُ مـن الأفكار كانت تأتي من برليـن عبرَه منقاةً، بينما كان الملـكُ فيصلُ الأولُ ما زالَ على قيد الحياة. كان الملكُ فطناً وحسّاسا يقبضُ بيد من حديد على الأمور، وكان كلُّ ذَلك يجري بالخفاء. ولكن في السَّنَة التي تلَتْ توفي فيصَل، ووجدَ هؤلاء الرجالُ الذينَ دعمُوهُ بإخلاص أنفسَهم فجأةً يواجهونَ وضعاً قميئاً مع رجال لئام في الحكومة والجيش يسعَون وراءَ السُّلطَة، وقد دُعمُوا من خلال تمويل وصَلَ إلى البلاد عبرَ وكالة

(1) لا أدري في الواقع ما وضع هذه اللّقى الفريدة اليوم، بعد الدّمار الهمجي المخزي الذي أصاب المتحف العراقي إبّان سقوط بغداد عام 2003. وكذلك فإن جميع المواقع الأثريّة السّومريّة في جنوب العراق أضحت مباحة للنهّابين اللصوص الذين دمّروا إلى الأبد معالم حضارية لم يعد بالإمكان استرجاع ذاكرتها بأي حال من الأحوال. ويُقدّر عدد القطع الأثريّة التي سُرقت من متحف بغداد بـ 170 ألف قطعة أثريّة.. إن البشريّة وبكل أسف تشهد في مطلع الألفيّة الثالثة جريمة ممنهجة في تدمير تاريخها!

عالم آثار مسنّ وعاديّ يتسكعُ حول خزائنه الزجاجيَّة في المتحَف، وهو يترنَّمُ بأغنية ألمانية.

ولكنَّ هذا كان ما يزالُ في المستقبل؛ كنتُ هنا في الضّاحيَة خارجَ غرفة الآثار القديمة أحزمُ اللقى التي تُركت لنا في حقائب، حينما كان جبرائيل يخُطُّ عنوانَ المعهد الشرقي وعبارةَ «In Bond to Chicago» بأحرف كبيرة سوداءَ على الأغطية. كان هناك شعورُ نهاية الدورة خاصَّةً بعدَ يوم الدفع الأخير، عندما كانت البقعُ السَّوداءُ الأخيرةُ قد غابتْ عن النظر متجهَةً نحوَ الشَّمال لتستقرَّ مرةً أخرى جانبَ الأكواخ الطينيَّة وحقول البَصَل، تحتَ ظلّ بساتين نخيل في الصَّيف الطويل الحّار؛ بينما تسلّل صمت مطّبَق خيَّمَ على التلّ الفارغ الجريح.

أخذتُ أنا وراحيل نحزمُ الآثارَ طوال النهار، ننظر إلى الكثير منها للمرَّة الأخيرة إلا إذا حملتنا عجلات يوماً ما إلى رحلة غير متوقعة إلى شيكاغو.

لقدْ كانَ عملاً طويلاً، سواءٌ كنّا نملأ صناديقَ صغيرةً بطبقات متعاقبَة من القُطن الطبيّ والأشياء الأصغر، أم كنّا نحلُّ مشكلةَ الطَّريقة الأسلم لجمع الأواني الكبيرة والتماثيل والأوعية النحاسية.

لا يمكنُ لأيّ من مشاكلنا أن تقارنَ مع واحدة من التي شغلت پيير قبل عدَّة سنوات في نهاية أحد المواسم؛ حيثُ أنَّه كانَ هو الذي حزَمَ ونقلَ الثورَ المجنّحَ – في الصفحة 251 ـ من خُرساباد إلى ضفَّة نهر دجْلَة، مقدارَ خمسةَ عشرَ ميلاً في الطَّريق إلى شيكاغو. كانَت المنحوتة الضَّخمة، مع خلفيتها الحَجَرية، يزنُ أربعين طناً، وكانت الشّاحنةُ الوحيدَةُ المُتاحةُ تزنُ حوالي خمسَةَ عشر. كان لديه التمثالُ بأكمله منشوراً إلى عدة قطع؛ ومع ذلك فإنَّ وزن القطعة الأكبر تسعةَ عشَرَ طناً. قاموا برحلات واحدة تلوَ الأخرى في الشّاحنة على طول طريق طينيّ ضيق كثير الصُّدوع يسير جنباً إلى جنب مع نهر خوسر باتجاه الضّفَّة المُنحدرة لدِجلة، حيث تقبعُ باخرةُ شحن صغيرة تنتظرُ حملَ الشَّظايا إلى سفينة كبيرة في البَصرة.

شُـدت الحبالُ الضَّخمةُ على السـلة الكبيرة التي تَزنُ تسعةَ عشرَ طناً وبدأتْ الرافعةُ بالتحرك وأُحكم شدَّ السَّلة ولمْ يحدثْ شيء آخر، بدا كما لو أنَّ الثور كان كارهاً مغادرةَ موطنه؛ مشمئزاً من تجربة مخاطرة من نوع جديد. أعيدَ تشغيلُ الرافعة مرَّةً أخرى بكلّ قوتهـا الممكنَـة، وبدأ شـدُّ الحبل مرَّةً أخـرى. انتصَرَ الثَّـورُ تقريباً ـ إذ بقـي الثَّورُ لفترة سـاكناً على الضفَّة وفجأةً شـوهدتْ باخرة صغيرة وهي تحاولُ أقصى جهدها لتَسـلّق جانبـيّ الضّفَّـة. وفـي النّهايَة رفعَ الوحْشُ المقـاومُ والمقطّعُ الأوصـال بطريقة ما على لـوح، وهـو اليوم يزيّن الطـرفَ من قاعة المتحف الضخمة في شـيكاغو. يقف سـاكناً ناسـياً الأذى والظلـم، فـي قطعة واحـدة لا أثرَ فيه لنُدبـة، يخرخرُ فـوقَ رؤوس جميع الزوار المشدوهين...

بعد شـرب شاي في وقت متأخر نفضْتُ أنا وراحيل بقايا الحلاقَةَ من شعرنا وذهبنا نتمشَّـى نحْوَ الجنوب، لأنَّنا شـاهدنا أعالي بعض الخيام السَّـوداء على مسـافة ليسـتْ بالبعيـدة عبرَ الطريق الذي ذهبنا فيه. وبين الرَّوابي، التي ما زالت رطبةً وهادئة؛ وحيث أن مسـتوى ضـوء الشـمس الـذي كانَ منخفضـاً الآنَ في الغـرب قد أصـاب الكثبان، شـاهدنا شيئاً جميلاً ـ سطعَ بلون أخضرَ باهت. انتشَر نمو خفيف لعشب طريّ كسديم فـوق الأرض كلّها؛ وحيث طفنا حـولَ حصن رملي وصلنا إلى منخفض طويل ضحل ركدتْ فيه بركة كبيرة لعدة أيام، وجدنا العشبَ في المنحدر سميكاً ولامعاً، يبدو ذهبي الأطـراف في ضوء الشـمس. كادت المياهُ أنْ تتبخَّرَ الآن، ولكـن ما زالتْ بعضُ البرك القليلة الصَّغيرة التي تعكسُ السماءَ الربيعيَّةَ تتبعثرُ هنا وهناك، وتبرعمتْ أوراقُ العشب بينهـا. ولكـن البركَ كانت تتألقُ بزرقة أخرى أقـوى أحاطت بها؛ حيث كانت مئات من أزهار سوسـن زرقاءَ صغيرة تزهرُ في العشـب. كانت تأتي كلَّ سـنة لفترة قصيرة جداً، لتتلاشـى مع العشـب في ليلة واحدة تقريباً؛ لأنَّ الشـمسَ امتصَّتْ بلا رحمةً القطرات الضئيلةَ المتبقيَّة من الرطوبة في الجذور الضعيفة، وفكرنا أنه لو أمكن لتلك الأرض أن تُروى مرةً أخرى، فكم سـتكون جميلة. كانت هناك طيـور صغيرة تدور فوق الأزهار. تابعنـا سـيرَنا عبـرَ الجَنَّة الصّغيرة من الألـوان: أزرقَ وأخضرَ وذهبيّ، إلـى أن أتينا إلى

معسكر صغير، كان بعضُ البدو الرّعاة قد استقروا قربَ بركة أخرى، وكانت الخيامُ ملاجئاً خشنةً صُنعتْ من وبر ماعز أسودَ، وقد رُفعت الأطرافُ في هذا الجَّوّ اللطيف؛ وكانت هناك امرأة تطبخُ على نار من بقايا الأشجار الجّافة.

كان الرُّعاةُ يتقيّلون قربَ الخيام، بينما انتَشَرت العنزاتُ السَّوداءُ الصَّغيرةُ على امتداد الكثبان، متلهفَةً لقضم العشب الغضّ، أقبلَ طفل صغير يحملُ جدياً حديثَ الولادة كانَ يمشي بخطىً قصيرة، يضحكُ ويتكلمُ، ويحاولُ إعطاءنا إياه، قمنا بملاطفة الأذنين السوداوين الحريريتين الطويلتين، واتَّجهنا بعدها نحوَ المنزل، بينما عادَ الجديُ مرَّةً أخرى إلى الخيام.

كان من الصَّعب في هذا المَساء المتوهّج الهادئ أن نتذكَّرَ أنَّ هذه الأرضَ قد أصابها غضب هائج خبرناهُ من فترة وجيزة، لقد رأيتُ الصَّحراءَ الآن في العديد من أحوالها، إما بردٌ وموت مثلَ القمر، أو محيطٌ فضيّ نثرت فيه جزر غيرُ مأهولة، أو جحيمٌ أسودُ خانقٌ، والآن هدوءٌ وجمال شاعري.

قطفنا بعضَ السوسن، ثم غابت الشمسُ، ولدى اقترابنا من المنزل بزغَ بَدرٌ تام فوقَ القمم الثلجيَّة للجبال البعيدة، بَدرٌ يلمعُ على الرغم من تباطؤ غروب ضياء الشمس[1].

لاحَظْتُ شيئاً غريباً لم يحدثْ معي من قبل: لقد كان لي ظلاّن، ممتدان في كلّ جانب على طول الأرض الخالية من الألوان الآن؛ كان أحدُهما بسبب وهج غروب الشَّمس؛ وآخر باهت، سببُه نورُ القمر السّاطع. وبرزت للتو أمامنا إلى الشمال نجمة كجوهرة هائلة واستَقَرَّتْ في الأفق مع أخريات معلقات على مسافة غير بعيدة فوقها. كانت كما أعلم دليلَ الدُّب الأكبر. فكثيراً ما كنتُ أراقبه يتدلى من مخبئه السّري، ليلةً بعد ليلة ـ وينحدرُ في خطّ العرض هذا، ولم يعدْ دباً قطبياً أبداً، كما في إنكلترا حيث

---

(1) هذا مستحيل.. لا يمكن أن يكون القمر يومها بدراً تاماً ابن 14، لأن البدر لا يُرى أبداً في السّماء مع الشمس، بل يشرق بعد غروبها بشكل تام. ولا بدّ أنّ تشب تصف ما رأته في اليوم الثالث عشر من الشهر القمري.

يتأرجحُ حراً بشكل أبديّ في الأفق الشّماليّ. كانَ من السَّهل فهمُ لماذا دُرست النجومُ في البداية كعلم في هذا الجانب من العالم، حيث تلمعُ على مستوى النظر بشكل عام في الأرجاء فورَ حلول الظَّلام.

لمْ يكنْ هناكَ وقت للتفكير حول الفلك أو أيّ شيء آخر في الأيام القليلة التي تلتْ، فقدْ غادَرَ كلّ من هانز وسِتون وجايك، نحوَ الشّمال؛ كانوا يخططونَ للتحقيق في فكرة جايك التي جالتْ في ذهنه منذ الزيارة الأخيرة لخُرساباد. كانَ منَ الممكن لي ولراحيل وهال أن نقومَ بالترتيبات الأخيرة لإنهاء البعثة ثمَّ نلحَقَ بهم في خلال ثلاثة أيام؛ ويلحقَ بنا سكانُ خفاجة فوراً بعد ذلك. أمضَيتُ تلكَ الأيّامَ وأنا أجمعُ حزماً كبيرةً لجميع مسودات الصُّور النفيسَة والمطبوعات وصفحات السّجلات ورسومات ومذكرات والمراسلة، متسائلة هل يمكنُ أنْ أجدَ كلَّ هذه المعلومة المهمَّة سليمة في الطرف الآخر من الرحلة الطويلة إلى المكتب الصَّغير في شارع صقلية Sicilian Avenue. وفوق ذلك كانت هناك قوائمُ الموجودات بحاجة للتدقيق، وأسطوانات غرامافون قيّمة ينبغي تخزينُها بأفضل عناية ممكنة؛ وضعناها في الغرفة المظلمة، والتي كانتْ أبردَ مكان لحمايتها من الفساد، وحتّى من التَّحَلُل (الذي حصَلَ ذاتَ مرَّة من قبل) في حرارة الصَّيف الشَّديدة، والتي قدْ تصلُ إلى 130 درجة أحياناً.

سار بنا جبرائيل في صباح أحد الأيّام الباكر نحوَ بغداد، وسرعان ما تلاشَتْ الهيئاتُ البيضاءُ لعبد الله الطويل والطّاهي المسنّ القصير والحرّاس الملثّمين الواقفين أسفلَ البرج مقابلَ الجدران المشبعة بأشعة الشَّمس للبيوت الصامتة. تمايلْنا حولَ كتف تلة رمليَّة، واختفى تل أسَمر. شَعرتُ بإحساس غريب، لم أكنْ أتوقعُه بالتأكيد، ولم أفكرْ بإمكانية حدوثه قبلَ بضعة أشهر.. هو إحساس موجع أشبه بإحساس الحنين للوطن. شيء ما في الأرض الجرداء بسماواتها الواسعة وهدوئها الفارغ كان قد استقرَّ داخلي، يخبرني أنني لن أعرفَ أبداً ـ بغض الطرف عن نوبات الغَضَب والعبوس العَرضي ـ هكذا صمت، وهكذا فضاء وهكذا سلام، في أيّ مكان آخر في العالم.

أحسست الآن فقط بأنَّني متعبةٌ من العمل لموسم طويل، متعبة من التوتر الحقيقيّ

للعاصفَة الرَّمليَة الأخيرة تلك، ومتلهفة للانتقال نحوَ الشمال؛ رغم علمي ـ بعد تطوافنا على طول الطريق، فوق وعلى ضفاف القَنوات القديمة ـ بأنَّني كنْتُ سعيدةً سراً؛ لأنَّني في الخريف، لو شاء الله، يمكن أن أعودَ إلى الصَّحراء.

***

خرجْتُ وقتَ الغذاء من عند الحلاق الوحيد في الشارع الجديد New Street، بشعور يشبه ثور آشوري مجعد الشعر. كان جميلاً جداً الحصولُ مجدداً على رأس بشعر مصفّف، رغم أنني عندما قابلتُ الآخرين وقتَ الغذاء وجدتهم يترنّحون بتأثير البخّاخات المُعَطَّرة التي وجدها الحلاقُ التركيُّ مناسبةً ليختم بها عملَه اليدوي. كانت في إحدى عينيه نظرةُ عنف قد يكون سبَبها التأثيرَ المتقلقل لانصرافي الجديد. سألت هال والشك يساورني إن كان يرى ذلك صحيحاً، وبعد التقصّي العميق في الأمر قال إنّ هذا يذكّره نوعاً ما بزقاق سبّب له إرباكاً بين بعض الدّور في موقع السّلالة الباكرة رقم 2.

بعد الغذاء سلكنا طريقَنا إلى البازار، كانت الأزقة المرصوفة تتلوّى في هذا الاتجاه وفي ذاك، ووصلَ ضوءُ الشمس إليها مارّا عبرَ الوديان الضيقَة وحواشي الأقمشة والحصر الممدودة للوقاية منه، وسقطَتْ أشعة مغبرّة مبعثرة من ضوء الشمس على الحشود المتزاحمة وعلى الظهور المحمَّلة للحمير الصّابرة وهي تشُقُّ طريقَها، وتتراجعُ قليلاً إلى الوراء، وتعلق داخلَ كهوف غامضة على الجانبين في المخازن حيث كان التجارُ يخزنون بضائعَهم ويبيعونها، واسترخت أخيلة قاتمة لأشخاص في الظلال خلفَ تلك الأكشاك، أو يجلسون القرفصاءَ قربَ موازينهم الضَّخمَة؛ وآخرون يراقبون الجموعَ المارَّةَ تحتَ أشعة الشَّمس بتكاسل أمامهم أو ينادون على سلعهم.

كانت هناك أكشاك تكَّدَّسَت عالياً بالأقمشة، أغلبُها مبهْرج، ولكنَّ بعضَها غني ولطيف؛ وأكشاك بجميع أنواع الفواكه والحلويات، فيها حلقات ضخمة لفطائرَ مكدسة مليئة بالذباب علَّقَت على قضبان طويلة، كما لو أنَّ أحدَهم قد ربحَ لتوّه لعبة هوپلا Hoopla جميلة. حوى بعضُها ستائرَ من أحذية متدلية تتمايلُ على الحبال بألوان

حمراءَ وزرقاءَ وخضراءَ بخيوط معقودة عندَ أصابع القدم، تحيط بأعالي الكهوف وجوانبها؛ أو تنبتُ من الأعمدة كشجيرات عيد الميلاد.

انجرفْنا مع الحشد، إلى أن وصلْنا إلى زاوية البازار حيث يعملُ النحّاسون. كانَ الضجيجُ في آذاننا غير المعتادة عليه يتلُفُ الأعصاب، حيث طفق رجال صغار يضربون على صوانٍ وأوانٍ وقدور وأباريق قهوة، وأباريق شاي، بينما سَطَعَ ضوءُ الشمس على المعدن المرتجّ عبرَ المكان المظلم الدافئ، وراحت المطارقُ الصَّغيرةُ تقرقع وتنقر وترنّ وتطرق بعنف، بينما تدافعت الحُشودُ أمامَها ضاحكةً أومتنازعةً أوهاتفةً. لمْ يكن من المعقول لعيني الآن أن أرى كلّ هذا الجمع من النّاس في آن واحد معاً....

ثم عُدْنا إلى الشارع الجديد. كادَتْ فترةُ المساء أن تنقضيَ؛ وعَبَقَتْ رائحة مركَّبَة من دخان البنزين وزيوت الطبخ والغبار والبهارات والخُضار الفاسدَة وطمي الأنهار وأشْبَعَت الشّارعَ الضيّقَ بها، والذي كان الآن في عتمة جزئية. ولكن علاوةً عن الرَّوائح والأنشطَة الصّاخبة كانتْ العربات الصغيرة المفتوحة تقعقعُ أمامَ الحشُود، والسَّيارات الصّائحَة، والمُتسَولونَ المشوّهونَ المرعبون. وبزغت قبَّة ذهبية عالياً في السَّماء مُلئتْ بأشعة الشَّمس القادمة من قبالة النَّهر. استقَرَّ سرب من الحَمام المُلون بألوان قوس قزح الأرجوانيَّة والزرقاء والخضراء، استقرَّ على كتفها السّاطع، وكأنَّهُ قدْ نثر عليها كلها أحجاراً كريمةً كثيرة.

اتَّجهْنا حولَ أحد الأزقة وعندَ باب جانبيّ، وعندَ دكان كاشي kashi إخوان؛ رحَّبَ بنا أحدُ الرّجال الصّغار بكآبَة وعيون مغشاة بسبب كثرة تعاطي الحَشيش، وأرسلَ صبياً ليُحضرَ أكواباً من القَهوة؛ جلسْنا في الضوء الخافت بهدوء ماتع تحتَ مصباح يتوهَّجُ في الظّلال كياقوتة هائلة، بينما جالَ في أعماق كنوز كهفه وأحضرَ سجّاداً جميلاً، وأقمشَةً فارسيّة مطرزةً جميلةً، وخُمُر، ووشاحات حريريَّةً متموّجةً بالأخضر والذهبيّ، ورديَّةً وبنفسجيةً، وزرقاءَ وفضية.

هَمْهَمَ قائلاً، وهو يرجعُ إلى الوراء ليحضرَ أشياءً أخرى: «لقدْ وصلتْ قافلة لتوّها من إيران».

هكذا ما زالت تصلُ القوافلُ محمَّلةً بكنوز الشَّرق عبرَ ممرات الجَبَل، وعبرَ سفوح التّلال إلى داخل السَّهل المنبسط. بدَتْ عيونُ كاشي الزائغة الرؤيا تراقبُ الجمالَ والحميرَ والسّائقين، وهم يعبرون جيئةً وذهاباً، جيئة وذهاباً على طول الطريق الذهبيّ إلى سَمَرْقند.

مرَّ الوقتُ. ثم قالت راحيل بلطف وهي ترفع شيئاً جميلاً وامضاً آخر من كومة ألوان لامعة على الأرض: «أعتقدُ أنَّ عليّ الحصولَ على تلك أيضاً».

قلتُ: «وعليَّ أن آخذَ تلك». لقد كان قماشاً مطرزاً بمربعات ذهبيَّة ساحرة ومرشوش بطيور صغيرة باللون الأزرق الداكن وبأزهار ملونة بألوان قوس قزح.

قال هال: «وأنا أعلم أن عليَّ أنْ آخذَ تلك»؛ وأصابعُه الدقيقة تتحسسُ دثاراً[1] حريرياً قرمزياً داكناً وعيناه المتعبتان تتألقان.

كانت بضائعُ كاشي من النّوع الذي تصعب مقاومته في جميع الأوقات، إلا نحن، فقد قدمْنا مؤخراً من أرض قاحلة عطشى للون ووفرة ناعمة، لقد كانوا مبتهجين. كان كاشي الصغيرُ في وضع يجعله يشتري قدراً أكبرَ من الحشيش ليأخذَه في حلم جميل إلى ما وراء هذه الأرض، في الوقت الذي غادرناه وقفَ على بابه يبتسُم بضعف، فقد كانَ قد انسَحب إلى عالمه الخاص.

كان جبرائيل قد اكتشَفَ بطريقة ما أين كنا ـ وكان ينتظرُ في الطريق ومعهُ السيارة. نظَّم مجموعاتنا الثمينة، وقال إنَّه من الأفضل الذهابُ إلى المَحَطَّة في الحال؛ لأنَّ القطارَ المتجهَ شمالاً يغادر في خلال ساعة.

وفي المحطة في الجانب الآخر من النهر، اشترى لنا بطاقات للدرجة الثانية ووضعَنا في حافلة الدرجة الأولى مع بعض قصص محرّفة حول «speshul conseshun (موافقة خاصة) للأشخاص الخبيرين بالآثار». كانت راحيل مترددةً، وكذلك كانَ رئيسُ المحطة أيضاً؛ لقد كان صديق جبرائيل الحميم دون الحاجة للقول إنَّه من

(1) الدّثار: ما فوق الشّعار من الثياب. (القاموس المحيط، ص 500).

الواجـب علينـا أنْ نكـونَ في حافلة الدَّرجـة الثانية، هكـذا قال، صفعـه جبرائيل رافعاً صوتَه بضحكة، وقاوم بمرادفة عربية: «حسناً، إذاً تريدُ أن تُخرجَهم».

غضبَ الرجلُ الصغيرُ وخمد.

أخذه جبرائيل من ياقته، وبدأ بخنقه.

صـرخ لاعباً ببطاقتـه المفضلة، وعينـاه المتورمتان قريبتان من وجـه ضحيته: «إنها جامعة شيكاغو».

لم تشأ راحيل أن تشهدَ جريمة، اتكأتْ على النافذة، وتوسلت ليسمحَ لها أن تلتحقَ بحافلة الدرجة الثانية. جلستُ أنا وهال متراصين نقهقه.

انطلق القطارُ مسرعاً.

كانت نظراتُنا الأخيرةُ على جبرائيل ذلك الموسم كانت له وهو واقف وإحدى يديه تطـوّقُ رقبةَ رئيس المحطة، يلّوحُ بقبعتَه ومحاطاً بالابتسـامات. وكانَ رئيسُ المحَطَّة، بربطته أسفل إحدى أذنيه، يبتسمُ ويلوّحُ أيضاً.

❋ ❋ ❋





د. برستِد وهانز وجايك في منطقة الدّار الخاصّة

منظر جوي لخفاجة، يُظهر منصّة المعبد والشكل البيضوي ذا الجدران

الفصل الثامن

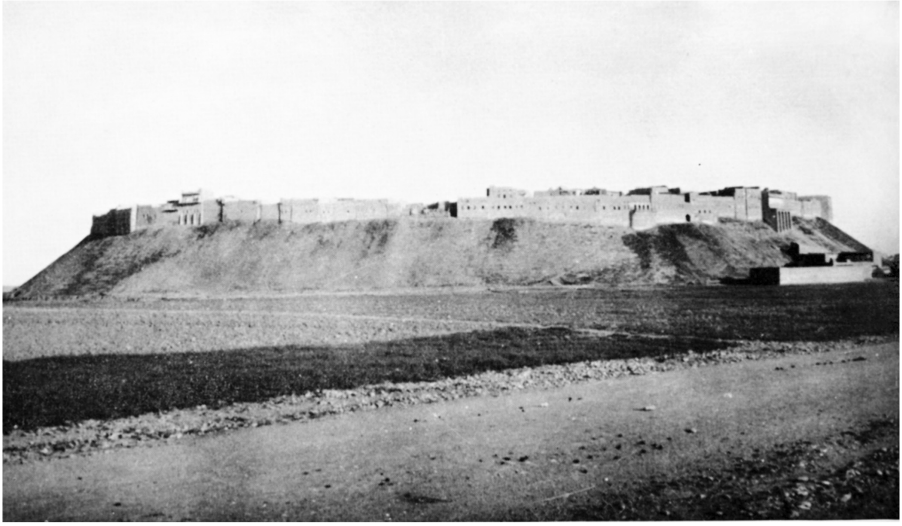
استغرقَ الطَّريقُ منّا أكثرَ من اثنتين وأربعينَ ساعةً للوصُول إلى الموصل. بدأ مشروع سكّة حديد برلين ـ بغداد قبلَ الحَرب العالميَّة الأولى وبالطبع كان قدْ أوقفَ بعدَ ذلك، وبَقي ناقصاً، بجزء منْهُ يبلغُ طوله مائة ميل أو أكثرَ على جانبَي الموصل. وفي السّاعات الباكرَة من الصَّباح كنّا ننتقلُ إلى الحُدود الجَنوبيّة، ليسَ بأكثرَ من مائة ميل شمالَ بغداد، انتقَلنا إلى سَهل مقفر، مليء بطبقات من الصَّخر تتَخَلَّلُ الأرضَ المكسُّوةَ بالحجارَة الملفوفة ببحر منْ عُشب متَموّج، تُحرّكُهُ النَّسَماتُ المُنعشَةُ للفجْر الرَّماديّ. ومعَ سطوع الضَّوء بشكل أقوى رأيتُ أنَّ الجبالَ الشرقيَّةَ كانتْ أقربَ الآن من الحدود الصَّخريَّة الشَّرقيَّة للعراق التي تَمتَدُّ إلى الشَّمال الغربيّ على طوال الطَّريق من الخليج العربي إلى الأعلى إلى آسيا الصُّغرى Asia Minor.

انحَدَرَتْ جداولُ الجبل من القمم إلى الأسفل تجري دائماً لمسافة أبعد غرباً في السَّهل المُمْتَدّ، وتصلُ قربَ نهر دِجلة تحملُ معها الخُضْرَةَ للأراضي الشَّماليَّة على ضفافها حيثُ تَمرُّ.

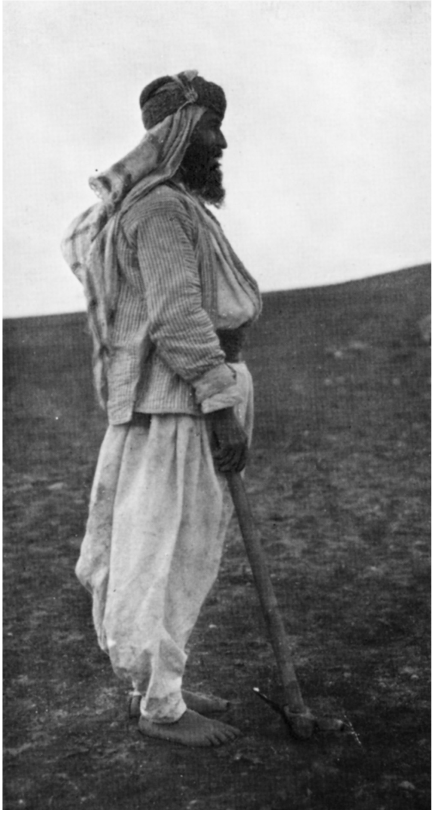
تابَعنا السَّفر بالسَّيارة، متَّجهيْنَ قليلاً نحْو الشَّمال الشرقيّ لنرى مدينَةً مسوّرةً قيلَ إنَّها أقدَمُ مدينة عُرفَتْ بأنَّها كانتْ مأهولةً بشكل متواصل. إنَّها أربيل؛ استَطعْنا رؤيتَها من بعيد في السَّهل عندما سطعتْ عليها شمسُ الصَّباح، لقد بُنيتْ على هضبة مرتفعَة مائلة بشكل حادّ. تشَكَّلَت الرَّوابي المُغطاةُ بالعُشب من المُدن التي أعيْدَ بناؤها منذُ آلاف السّنين، تماماً مثل تل أسمَر ومثل جميع المدن الأخرى للسَّهل التي ارتفعَتْ ببطء عن مستوى الأرْض. ولكنَّ أيّامَها قد انتهتْ منذُ زمن بعيد فقد تسَطَّحَت الرَّوابي

وأقْفَرَتْ، وانجَرفَ فوقَها الرَّملُ والحَصى وبقايا قطع الخَزَف المُكَسَّرة، وبقيَتْ أربيل عامرةً كمدينة مأهولة، جاثمة في الأعلى ودائماً تَرتفعُ نحوَ الأعلى كلَّما تابعَ السُّكانُ تخْريبَ بيوت قديْمة هنا، مَعمل مهجُور هناك، وشيّدوا أبنيةً جديدةً على أساسات مسْتوية تقريباً. تسَلّقْنا مُنحَدراً عالياً، وكنّا ندوسُ في طريقنا فوقَ بيوت مطْمورة لمدن قديمة إلى مدْخَل المَدينة الجَديدَة؛ وتجَوّلنا عبْرَ أزقة مظلمة إلى البازار. بدَا كما لو أنَّ بيوتَ تل أسمَر قد عادَتْ إلى الحَياة؛ وكأنَّ أزقةَ هال وساحاته قد عادَتْ بجدران عاليَة مرَّةً أخرى، وجدران البيوت الصَّغيرة وأسطحها، وهمهمَة مع كلام وضَحك، وبكلّ الضَّجيج للنّاس المزدحمينَ كانَ شكلُ النَّوافذ والمَداخل التي تنفتحُ إلى الشَّوارع الصَّغيرة يشبهُ تماماً تلكَ التي وجدَها هو وجايك في مدينة أقدمَ بأكثرَ من 4000 سنة. وعلى الأرجَح فقدْ احتفظتْ أربيل بالتَّصميم ذاته إلى حدّ بعيد في الشَّوارع والبُيوت عبْرَ تاريْخها الطَّويل كلّه.

خَرجْنا أخيراً من قفْر معتم محيّر إلى مَدخل المَدينة، ووقَفْنا مبْهورينَ على قمة المنحَدر المطلّ من فوق على السَّهل المُشمس السّاحر إلى الجنوب؛ كانَ الهدوءُ مخيماً الآن، إلا من صوت ضعيف لموسيقى الرّيح التي تَتحَّركُ فوقَ العُشب المائل. لا حَوافرَ شبحيَّةً ترعدُ بالقرب، ولا صوتَ ارتطام معدن؛ ولا صرخات انتصار إغريقيّ، ولا صرخات واهيةً ليأس هزيمة فارسيّة. فهناك في الأسفل تحتَ جُدران إربيل القديمة، عبّأ داريوش Darius مجابهتَهُ الأخيرةَ للإسكندر الشّاب، الذي أسكرَهُ حلْمُ إمبراطوريَّة بلا حدود، تلكَ المجابهةُ التي رفضَ فيها عرضَ الملك العظيم بإعطائه الأراضي التي تَمْتَدُّ على الضّفَّة الغَربيَّة حتَّى نهر الفُرات وجاءهُ بثورة كبيرة.



أربيل، مدينة حديثة أقيمت فوق عدد لا يحصى من المدن





عامل وفتى، من اليزيديّة أهل الشمال

وصلْنـا الموصل بعدَ حلول الظَّلام متعبينَ بسـبب القيادَة القاسـيَة أثنـاءَ عودتنا إلى النَّهـر، ثـم إلى نقطَة حيثُ نقلتْنا سـفينة إلى الضّفة الغَربيَّة حيثُ تقـعُ الموصل. علقَت السَّـفينة وسـطَ النَّهـر على ضفَّـة رمليَّة، وانتظَرنـا متوترينَ لمـدَّة طويلة إلـى أنْ غابتْ الشَّـمسُ، بينما كانَ رجل عرَبيّ مسن، قامَ وحدَهُ لمواجَهة مشكلته، ومعَه عمودُ ساريَة يتباعـدُ بـه ويناورُ لينقـذَ قاربَه من الغـرَق. وبالقُرب منّـا على الضّفة، جلَـسَ القُرفُصاءَ أربعة من سـكان الشَّـمال الأكراد، بنظرات وحشـيَّة وعقصات[1] شـعر سـوداءَ متدلية إلى أكتافهم، وسـكاكينَ فـي أحزمتهم المثنية الملوَّنَة، راقبونا باهتمـام، كانوا يُتَمْتمُونَ ويَتَجادَلُونَ كما لو أنهم ليسـوا على وفاق في توقعاتهم الممكنة للمدَّة التي يحتاجُونَها بعدَ الغُروب للإفلات من جناية ارتكبوها، أو ربما كانوا أشـخاصاً بريئين جداً ولكنَّهم ببسـاطة مهتمونَ بنا جداً وبعملنا هناك، ومنغمسـون بتشـكيلة كردية مؤلفة من عشرين سـؤالاً حول الموضوع، وعرَفنا أنَّه كانَ لديهـم في هذه المنْطقَة مؤخراً حوادث عديدة ـ من بينها واحدة أو اثنتان جريمةُ قتل – عندما احتجزَ أشـخاص خارجونَ عن القانون مسـافرينَ جهّـالاً، هذا ما زادَ من إحساسـنا بعـدم الارتياح؛ لذلك فإنَّ سـماعَنا صوت ارتطام السَّفينَة القديمَة المجنونة بالضّفة عندما كانت الومضةُ الأخيرةُ لشمس الغروب تتلاشـى كان صوتَ ترحيب حقيقيّ. وعندما أرخى اللَّيلُ سـدولَهُ وعلى طول الشّاطئ الغربـيّ لنهـر دِجلة Tigris الآن كنّا على الطَّريق ذاته الذي مشـى عليه أسـرى الحرب المرهقون الذينَ أُسـروا بعد سـقوط الكوت[2]، في سيرهم المرهق مئات الأميال نحوَ تركية.

طَـوّقَ الطَّريـقَ قاعدةُ هضبـة ضخمَة ترتفعُ في السَّـماء عن يميننا، هنـا كانتْ مدينة آشـور Assur القديمة التي كانتْ تطاولُ النُّجومَ علواً؛ عاصمة مملكة آشـور Assyria

(1) عقصات: جمع عقيصة: وهي خصلة الشعر المجدولة. (القاموس المحيط، ص 804).

(2) المقصود المعارك التي دارت رحاها بين الإنكليز والأتراك في جنوب العراق إبّان الحرب العالمية الأولى، وكان أهمّها معركة كوت الزّين التي جرت في 7 نوفمبر عام 1914 وأدّت إلى انسحاب الأتراك رغم أنهم كبّدوا الإنكليز خسائر فادحة جداً، وأعقبها احتلال الإنكليز للبصرة في 22 من الشهر ذاته. انظر كتاب: رحلات المغامر العربي وليَمسون، الفصل 29.

العظيمة، وحمَلَتْ اسـمَ إلهها القبليّ القديم. وتجَمَّعَتْ عندَ نهاية الهضْبَة بعضُ أكواخ منخفضة، يُرى ضَوء باهت فيها هنا وهناك؛ لقَدْ كانَ السَّـفَرُ غريبا وساراً، واندفعْنا أبعدَ في الظلام مرَّةً أخرى نفكرُ أنَّ عمالنا من الشّرقاطيّين كانوا في تلك الأكواخ بعد عودتهم من أعمالهم في تل أسمَر وخفاجة إلى أحضان عائلاتهم المحبَّة؛ عادوا متخمين بأجرة خمسة أشهر كاملة، إضافةً إلى علاوات سَفرهم.

كانـتْ رؤيـةُ أضواء الموصـل Mosul مطمئنةً جـداً، وهي تلمعُ أمامَنا على مسـافة ليستْ بالبعيدة.

بقينا ليلةً في دار الإقامة، وهي فندق سـكة حديْديَة دونَ سـكة حديدية، عالٍ وجاف بين طرفيها المتراميين، فلا أظنُّ في أيّ مكان آخر في العالم يمكنُ أن يقومَ أحد بالقيادَة مسافةَ مائة ميل عبرَ منطقة عسيرة للقدوم من محطَّة قطار إلى فندق محطَّة القطار. لقدْ كنـتُ متعبَـةً جـداً عندَ الوصول، ولـم يتبادرْ إلى ذهني أبـداً أنْ أجدَ مفاجـأةً ولو كانت بسيطةً تنتظرني، فقد كان ثمّة ديكان روميّان ضخمان يتجولان في الممرّ خارجَ غرفتي، ويقدمان التحيَةَ بلطف.

انطلقنا في الصَّباح التّالي بالسَّيارة خارجَ الموصل، عبرَ أيكتها[1] الذَّهبيَّة من المآذن الجميلة وعبرَ طرقها الضَّيقَة المغمورَة بالشَّـمس إلى أجواء الريف المتألقة مرَّةً أخرى باتجاه الجسـر القريب الذي يجتاز نهرَ دجلة Tigris إلى خُرسـاباد التي تقع إلى شـرق النهـر. قطعنا نهرَ دجلة فامتـدَّ أمامنا حاجز طويل منخفض مغطىً بالأعشـاب. وتَعرَّجَ الطَّريقُ الرمليّ في صدع عبرَ ضفافه الخضراءَ؛ وذهبنا بالاتّجاه الشـماليّ الشَّـرقيَ عبرَ منطقة زراعيَّة هادئَة. لمْ يكنْ هناك شـيء ليُظهرَ أنَّ تلكَ الأرض المحْروثَة الهادئَة التي يقطعها طريق ونهر صغير متلألئ فقطْ، كانتْ تَعُجُّ ذاتَ مرَّة بجموع محتشدَة ومراكبَ حـرب وجنـود، فتلك الضفـافُ الخضْراءُ التـي عبَرناها كانـتْ في الماضـي الجُدرانَ الغربيَّـَة لنينوى القديمة، ونحـنُ الآن نعبُر الموقعَ من المدينة نفسـها. جاء النبي يونس

(1) الأيك: الشجر الكثيف الملتف. (القاموس المحيط، ص 1203). وهنا تشبّه كثرة المآذن بأجمة ملتفّة من الشجر.

Jonah إلى هنا، يدعو بشجاعة إلى عبادة الله بعد خلاصه. وتحمل التّسميةُ القديمةُ لنينوى ارتباطاً واضحاً مع الكلمة السّاميّة القديمة «سمكة»، وهناك نظريَة تقول إنَّ الحوتَ الضخمَ الذي اختفى فيه مدَّةَ ثلاثة أيّام كانَ ببساطة خطأ في الترجمة لمتاهة كبيرة في المدينة ابتلعته عدَّةَ أيّام إلى أنْ ظَهَرَ كنبيّ وداعية إلى الله.

وعلى بعد ميل ونحن ما نزالُ نسيرُ مع النهر يداً بيد، عبَرْنا عبْرَ الجُدران الشَّرقيَّة. كان نهرُ الخُسر، قد أطلقَ اسمَه على قرية خُرساباد المحدثة؛ كانَ هذا النَّهرُ، أوسَعَ وأقوى وأعمقَ في ذلك الحين، وقد شقَّ منذُ عهد بعيد الجدارَ الشَّرقيّ لنينوى Nineveh، تلكَ الفجوةَ التي فيه والتي مشينا فيها لتوّنا بسلام نحن وهو، وكان قد غمر بفيضانه جزءاً كبيراً من المدينة الكبيرة؛ مما أضعفَ مقاومتَها الأخيرة ضدَّ أعدائها.

ظهرَ الآن جمالُ الأرض وبدأ يُشعرني بالدوار، فقد كانت تلك المدينةُ هنا لتبدو جميلةً في أيّ وقت ـ إلا الآن، عند رؤيتها للمَرَّة الأولى بعدَ أشهر أمضيْتها في الأرض القاحلة الجنوبيَّة، فقدْ حمَلَتْ رسائلَ كثيرةً لترسلَها العيونُ إلى الدماغ، دماغ في طور النقاهَة يحتاجُ أن يُشرحَ له معنى اللون والشكل من جديد، ربما كانوا بمجموعهم يشكّلونَ جرعةً كبيرةً إلا لتلكَ الأفكار المُسبقَة الضَّعيفَة ولومضات الجمال العابر في إحدى الأمسيات قربَ تل أسمَر.

كنّا نرتفع قليلاً الآن، وكلما اقتربنا أكثرَ من التّلال الخضراء العالية التي ما تزالُ على بعد عدة أميال أمامنا حوتُ الأرض المَحروثة في كلّ جانب من الطَّريق القاسي أشياءً حمراءَ غنيةً دافئةً تشبه ما يراه المرء في ديفون Devon، وصارَ العشبُ السَّميكُ متألقاً؛ وبرزتْ حقول هائلة من الخردل الأصفر مقابلَ السَّماء الربيعيَّة الصّافية، وارتفعتْ ذرىً ثلجيَّةً في الجَّو النَّقيّ خلفَ التّلال. كما سالت القنواتُ بمياه فوّارة في كل مكان، وكانت الأرضُ المعشَوشبَةُ مرشوشَةً بقطَرات النَّدى ومنثورةً بشقائقَ نعمانَ قرمزيَّة وزنبق برّيّ باهر.

انْدَفَعْنا مسرعينَ على طول الطَّريق الذي كانَ سَرغون والد سِنَّحْريب Sennacherib بَناهُ لنفسه حوالي نهاية القَرن الثامن قبلَ الميلاد، عندما أنشأ عاصمتَهُ الجَديدَة هنا، كنّا

قريبين جداً من سفوح التّلال، وإلى اليَسار منّا خلفَ النَّهر تماماً، قامتْ مجموعة منْ بيوت صغيرة مقَشَّشَة السَّقوف تحتَ أشجار طويلة. كانتْ تلكَ قرية خُرساباد. وفي الجانب الآخر قريباً منَ الطَّريق لاحَتْ رابيَةٌ ضخمة، كانتْ تلكَ هي التَّلَّة التي بناها سَرغون، وعلى قمتها بُنىَ قَصْرَهُ، بعيداً عن جدار المدينَة. استَمَرَّ الطَّريقُ إلى الأمام يلتَفُّ في قلب الهضاب بممرّات ضيّقَة منْخَفضَة. ولكنْ تَمَهَّلَ السّائقُ الآن وانْعَطَفَ خارجَ الطَّريق، وأنزلَ تُرس المحرّك إلى الأوَّل ثمَّ أعطى السَّيارَةَ شحنةً قويَّةً من الوقود كي تعلوَ في مرتفع طينيّ حادّ وقصير أوصَلَنا إلى منطقة كبيرة منْبَسطَة في القمَّة. لقد وصلنا إلى بوابات قصر سَرغون.

هنا وعلى هذا الارتفاع استطاعَ الملك متابعةَ مراقبة الجبال في الشَّرق والشّمال، على سهل يقعُ في الغرب، وفوق مدينته المسوَّرة الجَديدة التي امْتَدَّتْ كلُّها إلى الجنوب من القصر. جاءَ إلى هنا من نينوى معَ وريثه الشّاب سِنَّحْريب، على طول الطريق الذي شَقَّه بنفسه، الطريق ذاته هو الّذي اجْتَزناهُ نحن. أمضى هنا سِنَّحْريب صباه، بينما زحفَتْ جيوشُ أبيه إلى مناطقَ واسعة، وسبَبَّتْ رُعباً وخراباً لكلّ مَنْ وقفَ في طريق مملكة آشور Assyria الجبّارة. استمعْ إلى النبيّ ناحوم(1): «هو صانعٌ هلاكاً تاماً، قد جاء على وجهك، تهيج المركبات في الأزقّة، تتراكض في السّاحات، منظرها كمصابيح تجري كالبُروق». ومن ثم تكهنَ بسقوط آشور، صائحاً: «أينَ مأوى الأسود، ومرعى أشبال الأسود، حيث يمشي الأسد واللبوءة وشبل الأسد وليس من يُخوِّف؟ انظروا! ها أنا ذا عليك، يقول ربُّ الجنود».

كانت المنطقةُ أعلى الرابيَة الضَّخْمَة كبيرةً بشكل كاف لتَضُّمَ قصْراً وثلاثةَ معابد على الرغم من أنَّ المشروعَ كانَ ضخْماً فقَدْ بنَي المَبنى كلُّه من آجرّ متَنوع صغير مجفَّف تحتَ أشعة الشَّمس. وفَكَّرَ أحدُهم بأنْ يتمَّ تأمينَ الأيدي العاملة من جيش هزيل من أسرى الحَرْب ساروا إلى العمل الإجباري في أرض العدو، وهكذا كان العديدُ من العمّال موجودين.

---

(1) انظر سفر ناحوم النبي، 1–2.

في الزّاوية الجَنوبيَّة الغربيَّة من المنَصَّة برزتْ رابيَة معشوشبة، على بقايا مفتتة لبرج المعبد، أي زقّورات سَرغون ـ وفي الوسَط من المنصَّة كان دارُ البعثة الأثريّة. بدا منظرُه المتداعي مبهجاً وصغره مقارنة بالخطوط الأنيقة للدّار في تل أسَمر. وله جدار طويل مكسو بالطين البنيّ في ناحية الغرب مقابلَ الموصل؛ كان جزءً منه مسقوفاً بقش، وفي المركز له فتحة سماوية مربعة كبيرة، يَدخل ويخرجُ منها دجاج عادي وديكُ رومي أو اثنان والكل يتجولُ تحتَ أشعة الشَّمس.

جاء غوردون فجأةً عبرَ المدخل حيث سمع لتوّه هديرَ سيارتنا على المنحدر؛ كانَ خجلاً وضاحكاً ومرحّباً. أخبرنا أن كلاً من هانز وسِتون وجايك قد ذهبوا إلى التلال الخلفية، وكانت عودةُ هانز متوقعةً في ذاك المساء. قادنا عبرَ المدْخل، ورأيتُ أنَّ المنزلَ كانَ يتألفُ من فناء واحد كبير معشوشب محاط بغرف صغيرة. كانت غرفتي الخاصَّة في الجانب الشَّرقيّ تشْبهُ كوخاً صغيراً، بسبب سقفها المصنوع من القش، ولها مدخل سطعت عليه شمس النهار وحوى عنْد العَتَبة حجارةَ رصيف بيضاءَ، على جانبَيها نبتات ياقوت أزرقُ داكن كبير ونرجس شاحب تُعطّر الهَواءَ الدافئ. ظللتُ أشعرُ بالدوار. تضمّ الغُرفةُ الصَّغيرةُ نافذة صغيرة تطل غرباً، وعبرَها استطعت من خلالها رؤيةَ منصة خلفَ المنزل من عشب عرضُها تقريباً عشرةُ أمتار تنتهي على نحو مفاجئ كحافة جرف، حيث كان جزء من القَصْر المكتَشَف يقبَعُ هناك، وخلفَ شِعب عريض انحدَرتْ تلَّة بلطف على هذا الجانب نحوَ الحقول الخَضراء، لترتفعَ مجدداً قريباً جداً بعلوّ شاهق أعلى وأعلى إلى الأفُق الجميل للهضاب الخَضْراء الهائلة. نظَرْت نحْو اليَسار واسْتَطَعْتُ فقطْ رؤيةَ الطَّريق الأبيضَ ملتفاً عبرَ العشب باتجاه صدْع في الهضاب، وفي البعد تملأ خلفيةَ الممرّ القممُ السّاحرةُ المكلَّلَةُ بالثُّلوج التي أخذت تملأ خلفيَةَ الطريق، والتي علمتْ أنَّني لنْ أستطيعَ التحديقَ بها لفترة طويلة.

كانَ المنزلُ محلياً قديماً بُني فوقَ جزء صغير من قصر سَرغون؛ هو كلُّ ما تبقى من مستوطَنَة هنا في الأعلى بناها قرويّو خُرساباد. وعندما قامتْ بعثة تنقيب أوسع للقصر ألزمت القرويين الانتقالَ قبلَ عدَّة سنين، ولكنَّ القروينَ لم يتزحزحوا رغمَ

التعويضـات الجزيلـة التي قدمَّتْ لهم مقابلَ خروجهم. لقد كانوا هنا دائماً مسـتمتعين بصحة جيدة، كما قالوا بينما كانوا دوماً في الأسفل عبرَ الطريق يُصابون بحرارة رهيبة. لقد كانت مشـكلة، ذهب پيير إلى الأسـفل ليُلقي نظرةً على القرية المهجورة في سفح التلـة، واكتشـفَ بركةً كبيـرةً راكدةً تعُجُّ بالناموس؛ فحَفَرَ قناةً منها إلـى النَّهر القريب، فذهبـت البركة والناموس بعيداً؛ وبعد إقناع صغير آخَر رحلَ القرويون، ولـم يعانوا من هجمات المَلاريا مرَّة أخرى. كانت البيوتُ على التَّلة الآن قدْ هُدمتْ، كلُّها إلا واحداً، وتتابعت الحفرياتُ باتجاه جدران دار البعثة مباشرة.

أخذَنـا غـوردون بعـد الغـذاء أنا وهال فـي جولة حولَ قمـة التَّلة. وقَفنـا على حافة الشُّـرفة المعشَوشـبة خلفَ المنزل، ونظرْنا إلى أسـفل نحوَ غرفة مرصوفة طويلة جداً امتـدت شـمالاً وجنوباً. كان هناك في الطَّـرف الجَنوبيّ بقايا درجـات تقودُ إلى عرش حجريّ ضخم ارتفعَ من قلب كتلة متشابكة من أزهار وعشب.

قال غوردون: «هذه هي غرفةُ عرش سَرغون، ومدخلُها من الفناء الخارجي هناك». وأشـارَ إلى جانب طويل من الغرفة مقابلنا، حيث قطعت الجدارَ العميقَ فجوة واسعة. وفي الفجوة نفسها بعضُ الكسر من حجارة بيضاءَ تلتمعُ في العشب.

تابع: «هناك عثروا على الثيرانَ المجنّحة، والتي يوجد واحد منها في شيكاغو، وقد أحاطتْ بذلك المدخل الذي يقودُ من الفناء إلى داخل غرفة العَرْش».

التففنا مرةً أخرى حولَ المنزل إلى الجانب الغربيّ للتلة، ونظرْنا فوقَ سـهل واسع، امتـدَّ الطريـقُ والنهرُ منحنيَين متباعدَين سـويّاً باتجاه أبعدَ من الموصل؛ اسـتَطَعْنا فقطْ تمييـزَ حدّ ضعيف من الجدران الشـرقية لنينوى، ولكنَّ سـديمَ النَّهـر ارتفعَ فوقَ دجلة فـي الخلـف، مغطياً الأفـق بعيداً نحوَ الجنوب، اسـتطعت رؤيةَ هضبة هرمية الشَّـكل، انتصبتْ بنيّةً وراسخةً فوق السَّهل الأخضَر.

قـال غوردون: «لقدْ كانت نمرود Nimrud عاصمة مملكة آشـور بعد مدينة آشـور Assur وقبل نينوى. ومدينة آشـور في الاتجاه نفسـه، ولكن أبعد بكثير من هنا، خلف

النهر ـ أبعد من أن تُرى». أخبرناه أننا عبرناه في وقت متأخر ليلةَ البارحة.

على امتداد هذه الأرض التي ترجعُ صدى الماضي القديم يدركُ المرءُ لغةَ التكوين: بابـل، أرك، أكَّد، أشـور، نينوى، والآن نمرود؛ الذي ربما كان أسـمه على غرار أشـور يعكسُ ذكـرى غامضةً لإله بطل أسـطوريّ قديـم[1]: «وكوش ولدَ نمـرود، الذي ابتدأ يكـون جبّاراً فـي الأرض، الذي كان جبّار صيدٍ أمام الربّ. لذلـك يقال: كنمرود جبّار صيد أمام الرّب. وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكّد وكلنة، في أرض شِنعار. من تلك الأرض خرج أشور وبنى نينوى».

قريبـاً جداً منّا أسـفل في مسـتوى الأرض علـى الجانب الجنوبيّ من التلة شُـكّلتْ خطَّـةُ بناء ضخـم في الأرض المعشوشـبة محتشـدةً بعمـال وأولاد يحملون سـلالاً. اسـتطعت رؤيةَ خُمُـر بلون برتقالي بـرّاق، وقرمزي لامع ـ أحزمة هائلـة مربوطة بلون أزرق وأخضـر وأرجوانـي ـ وومضة عرضيـة لكتان أبيض. بدت كما لـو أنَّ رجالاً من هذه الجنة السّاحرة لن يستطيعوا الحصولَ على لون كاف، ولكنْ عليهم لفُّ وجوههم الداكنة وقاماتهم الرشيقة في تألق مماثل.

قال غوردون: «الثوران الجديدان هناك، تعالوا وألقوا نظرةً عليهما».

كانت الأرضُ المرصوفةُ للبناء تقريباً على بُعد عشـرين قدماً أسفلِ مستوى الأرض الجديـدة؛ مشـينا بين منحدرات عالية لتربـة حمراءَ مكللة بعشـب وأُقحوان أصفر، ثم اتجهنا نحو الزّاوية والتقينا فجأةً، كانَ المدخلُ السـاحرُ محاطاً بوحشـين هائلين. كانا مثيريـن. وكان غوردون قد نظَّفهما بشـكل كامـل، وعلـى الأرض كانَ رجالُه قد نقلوا أطنانـاً لا تُحصـى مـن التُّراب مـن اللحظة التـي صادفَ فيهـا للمرَّة الأولـى هامةَ أحد الرأسين على مسافة قليلة تحتَ مستوى الأرض.

تألـق الثوران بلون أبيضَ، وحدَّقا بهدوء بعيون لطيفة بعيداً فوق رؤوسـنا، وامتدَّت أجنحـة هائلـة عالياً فـوق ظهورهما الفخـورة. كانت هـذه الوحـوشُ الضخمةُ، وهي

---

(1) سفر التكوين، 10: 8-11.

«الكروبيم» الأصلية الواردة في العهد القديم، تضم شكلين يظهر عليهما بشكل ساحر التباين بين وجهَيهما المبتسمين الرقيقين الملتحيين، وجسديهما العدوانيين الضاريين. كانا إلهين جليلين حميا الملكَ الذي أجلسهما على مداخله، ولكنهما أيضاً مفترسان بالهجوم لقهر كلّ شر يمكن أن يدنوَ منه.

كان غوردون قلقاً عليهما بقدر ما كان سعيداً بهما. وقال: منذ أن انتشرت الأخبارُ باكتشافهما حصلَ على موجة كبيرة من الزوار جاؤوا من الموصل ليلقوا نظرةً عليهما، وعلى الرغم من وجود الحراسَ الذين تُركوا في المكان بين مواسم التنقيب فإنه لم يطمئنّ البتّة عندما فكر بالمخرّبين الذين يحبّون نحتَ الحرف الأول من أسمائهم على الآثار، أو حتى كسر قطعة منها للذكرى، وصل إلى نتيجة على الرغم من أنّها مكلفة في شروط أجور العمال كما اعتقد أنّ أفضلَ طريقة للتخلص من ذلك هي أن يقوم بإعادة دفنهما. وهذا ما فعله في نهاية الفصل؛ ولكن الكروبيم لم يعانيا أكثر من كسوف المؤقت هذه المرة، ذلك لأنهما اليوم يقفان بفخر في بغداد، يطوّقان بشكل مناسب جداً المدخل إلى المتحف هناك[1].

❋ ❋ ❋

(1) أيضاً لا أدري ماذا حلّ بهما بعد سقوط بغداد في أبريل 2003 ونهب المتحف العراقي. ومن مفارقات الدّهر أن كاتبة هذه السطور، ماري تشب، توفيت في يناير من السنة ذاتها 2003، ولم يؤلمها القدر بمعرفة ما حصل لآثارها السّومريّة والأكّادية الغالية على قلبها.





نوعان من الكائنات المجنّحة
في خُرساباد

عندما تسلقنا قمَةَ الرابية مرةً أخرى، أوصدت سيارةٌ المنحدر في الجانب البعيد، وقفز هانز إلى الخارج؛ كان هانز الأسمر جداً والمرح مبتهجاً وطلقاً، يحمل سترتَه على ذراعه.

نادانا: «إذاً أنتم هنا ـ جيد! هذه المدينة ـ *mon Dieu*! (يا إلهي) ـ بعيداً جدا عن الزهور عليكم برؤيتها في جِروان ـ ولكن عليّ أن أخبرَكم عنها ـ سيبقى الآخرون هناك لمدة شهر، وسيكون لديهم معدات سترسلَ إليهم غداً. غوردون، هل بالإمكان الحصول على شاي من فضلك؟ خارجاً في الفناء؟ لا أستطيع البقاءَ بعيداً عن العشب».

انتقلنا جميعاً عبر المدخل، وجلسنا في ضوء الشمس لتوّنا نستمع إليه، لقد كان يوسّع التنقيبَ من أجل تتبع مفتاح لغز كان جايك قد عثر عليه مصادفةً في السنة الفائتة، بينما تابع غوردون ليديرَ العملَ في خُرساباد. قد استخدمَ تعبيراً مجازاً بحرياً، فقد حمل هانز رايتَه في خُرساباد كأميرال استراتيجي، بينما ترك غوردون ليواصلَ نشاطَه كقبطان لا يناقش، وقد قام بعمله بفعالية ممتازة.

كانت مدينةُ سَرغون على أية حال ذات الاهتمامَ الثانويَ بالنسبة لهانز، على الرغم من أنه استطاع الإعجابَ بروعة مفهومها، ومهما كان التنظيمُ الذي بناه سَرغون، فقد كان هدفُه في الدرجة الأولى تنفيذَ مخططات واسعة من الفتح مرفقة بعمل وحشي عديم الرحمة. وكانت النقوشُ التي تحكي قصةَ بسالة سَرغون في الحرب والصيد والتي نفذتها أزاميل مختصة باردة قد تركت هانز بارداً كبرودها في مواضيع تلك النقوش وفي طريقة تنفيذها، فقد أخبرته تقنيتُها المصقولةُ المتقنةُ عن الانهيار والموت وعن نحّاتين يتّبعون عُرفاً مرهقاً متخلفاً في الزمان عن عام 700 قبل الميلاد. وعلى الرغم من كونها شاذة فهي تبدو متأخرةً في الزمان عن أولئك الذين يفكرون بمعاييرَ 2000 و3000 وحتى 4000 قبل الميلاد. لذا فإنّ سعادتُه تتفجّر في هذا المكان بشكل كامل من الجمال الذي يحيط به، وبالمقابل حيث كانت أرضُ الصحراء في الجنوب تُطبق بشدة على معنوياته، فإنّ العملَ نفسَه قد استحوذَ عليه مع ذلك. فهنالك في الجنوب

في تل أسمَر كان قربَ بداية التاريخ قربَ ظلال فجره، وكانَ رائداً انتقلَ إلى الأبعد في الأعماق المجهولة وإلى النور المتقطع لكلّ اكتشاف جديد، حيث كان رجال متلهّفون قـد خرجوا مؤخراً من صراع البقاء، يجربون فـي الصخور والمعدن لأول مرة بأيديهم المجرّدة لخلق نزعات في عقولهم المندفعة.

هنـا تمامـاً كان اهتمامُ هانـز العميق في التعبير عـن فكر الإنسـان القديم عن طريق دراسـة مخلفاته المادية عبرَ العصور في العالم، وأنا أعرف أنه قد انشـغل بالدراسة في مقارنـة التماثيـل المصرية القديمـة وتماثيل بلاد ما بين النهريـن، واختلاف مظهريهما على ضوء كنوز التماثيل التي وجدتْ في أبي سُـمبل. وبينما كان هنا في ضوء الشمس يـأكل كعكـة محلاة، ويخبرنا بمرح عـن سِـنَّحْريب Sennacherib كان لديه نقطةُ أرق لابـن سَـرغون هذا، الذي مـا كان ليختـارَ بينه وبيـن الأب والابن عندمـا نتحدثُ عن ممارستهما الوحشية، فالابنُ على الأقلّ كانت لديه رغبة في الزراعة غيرُ موجودة لدى أبيه. وكان هانز نفُسُه بستانياً متمرّساً ممتازاً.

عندمـا تولّى سِـنَّحْريب الحكم في عام 705 ق. م هجـرَ مدينةَ والده الجديدة، وعاد إلـى نينوى التي أصبحتْ أقوى عاصمة عرفتْها إمبراطوريةُ الآشـوريين على الإطلاق. كانت جيوشُـه قويـةً، وحملتُه العسـكريةُ مدمّـرةً، وعلى الرغم من ذلـك فهذا لـم يكن مجـالَ اهتمامـه الوحيد، إذ كان عقله مركـزاً على بناء نينوى التي هـي أجملُ مدينة في العالم، وكان ناقداً لإحجام أسلافه عن فعل ذلك. قال:

«لم يبذل أيّ واحد منهم اهتمامَه العميقَ للتفكير بالقصر في الداخل، أو حتى أن قلبَه آمـن فيـه، قصر المقر الملكي الذي أصبح منظرُه هزيـلاً. ولـم يعملْ تفكيرَه، ولا أعطى توجيهاته لمدّ طرقات المدينة وتوسيع السّاحات وحفر قناة، أو زرع الأشجار».

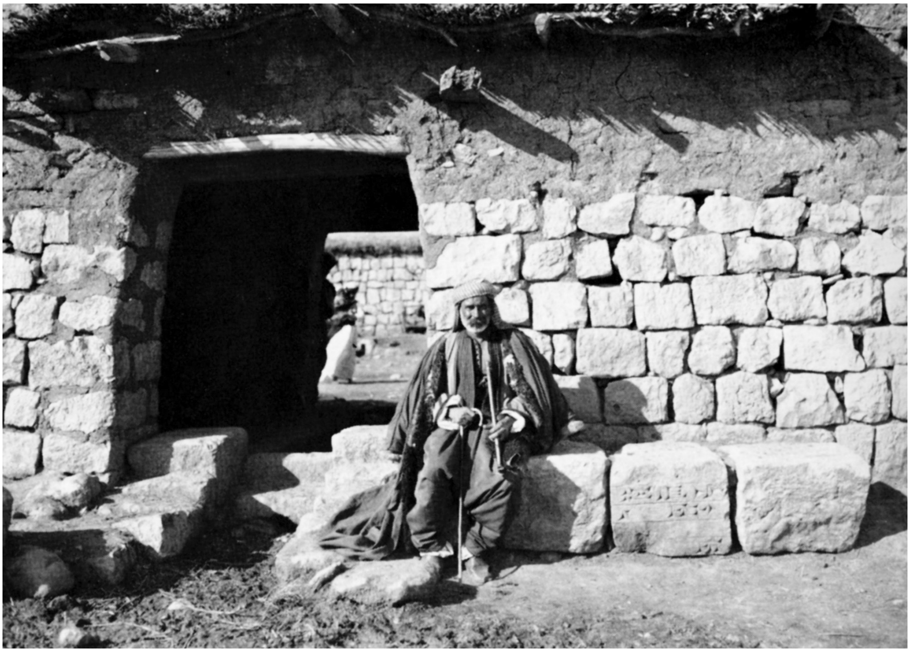
فقرّر أن نينوى يجب أن تتوسطَ في أحضان أراضي المتنزهات والحدائق والبساتين؛ ولـم يُضعْ وقتاً. وقالَ بعدَ سَنوات قليلة من ارتقائه العَرش:

«زَرعْتُ جزءًا كبيراً أينعتْ فيه جميعُ الأنواع من أعشـاب وفواكه بسـتان، وأشـجار

كالتي تنمو على الجبال وفي كلدان Chaldea، زرعتُها عندَ جانب القَصر. وممّا يمكن أن يُنبتَ بساتينَ، قسمتُ بعضَ الأراضي المشاعة فوق المدينة لقطع أعطيتُها لمواطنين من نينوى، من أجل عمَل بساتين غنّاء من حدود المَدينة في كسيري Kisiri إلى السَّهل قُربَ نينوى، عبرَ الجبَل والأرض المنخفضة. وبمعاولَ حديدية قطعتُ ووجّهتُ قناةً، جعلتُها تَفيضُ بمياه مستمرّة الجَريان من نهر خوسر Khosr إلى داخل تلكَ البَساتين في قَنوات للرَّي».

كانتْ مشكلتُه الأكْبَرُ التّزودَ بالمياه. فطافَ بنفسه طولاً وعرضاً في المُنْحَدرات والجبال، يستكشفُ كلَّ جدول ويحوّلُ مَسارَه إذا اسْتَطاعَ إلى نهر خوسر، حفرَتْ مَعاولُ رجاله طَريقاً للماء عبرَ الصُّخُور في مكان واحد، وفي آخر بنوا ضفافاً ترابيَّةً للسَّيطرَة على الفَيضان. قالَ إنَّهُ تسَلَقَ جبلَ موسري Musri أثناء بحثه ـ ولم يكنْ جبل موسري إلاَّ الصَّفَّ الأخْضَرَ، جبل بَعشيقة Jebel Bashiqah، الذي يَمتدُّ في الأعْلى هناكَ خلفَ المَنزل؛ قالَ إنَّهُ تَسَلَّقَهُ بصُعُوبَة شَديدَة، وذلك مفاجئ لمثله فالمَعروف عنه أنه نشيْط جداً، فمنحدَراتُ الجَبل الخَضراء شديدةُ الانحدار لم تكنْ أصعبَ بالسَّير من مرتفعات الآكام الجنوبيّة. وربما كان قد اعتادَ أيضاً على حركة رشيقة لمركبة حربيَّة، حمَلتْهُ على الأرض في مواجهة مدينة عبريّة منكودة الحظ. هناكَ ذهَب سِنَّحْريب، شخصٌ صَغير يَخطو خطىً واسعَةً على طول الأُفُق متْبوعاً على الأغلَب بقافلَة من الكُهّان وموظَّفي المَحكمَة ومهندسين، قد يتعرقون قليلاً، لكنَّهم يبذلونَ غاية جهدهم للاسْتمرار في الصُّعود؛ بينما راح هو يشتَمّ رائحَةَ ماء والمزيدَ من الماء لمدينته الخَضْراء المَحبُوبَة، غيرَ آبه ببناء أبيه العَظيم المُمْتَدّ أسفلَ منه تماماً، والذي كان قد آل إلى السُّقُوط. ولكنْ بَعْدَ زراعته المَزيْدَ من الأراضي حولَ نينوى، جعلها من شجيرات وأشجار نادرة وغلال، ووجد أنَّ عليه الذَّهابَ أعمقَ في الجبال نحْو الشَّرق، ليجرَّ المَزيدَ من المياه البَعيدَة لحاجاته.

***



مختار جِروان جالساً على كتل من الحجر
منقوشة بشذرات من كتابات تذكر أعمال سِنّحريب



سِتون وجايك يقفان على قناة الماء، وخلفهما قرية جروان

أخبر عامل في خُرساباد جايك في السَّنَة الماضيَّة أنَّه كانتْ هناك قريَة في الجَبال حيثُ بُني قسْم من المَنازل، فيها قطَع كَبيرَة من الحَجَر عليها كتابة. اسْتَمَعَ جايك بكسل، فقدْ اعتادَ علماءُ الآثار أن يُقادوا لأميال عبْرَ مناطق وعرة ليروا نقشاً مدهشاً، فيتبيّن بعد العناء أنه لا أكثر من سطح صَخْرَة قاسيَة مخْدُوشَة بشكْل طَبيعي. ولكنَّ هذا الرَّجُل كان لديه من الفطْنَة والإمكانيَّة أن عملّ رسُومات لبعض العَلامات؛ قال إنَّها كانت على حَجَر، وقد اعتادَ صاحبُ المَنزل اسْتخْدامَها كمقعد خارج الباب.

عندها أصْبَحَ جايك مهتمّا بالإشارات على الورقة والتي كانت بلا رَيب مسْماريَّةً، فقامَ بحَمْلَة على متن حمار مع حُسين العامل. ذهبا عبْرَ الممَرّ خلْفَ المنْزل، إلى الأمام عبْرَ سهْل كَبير إلى قريَة صَغيرَة تُدْعى عين سفني[1]، إلا أنَّ حُسيناً لمْ يتوقَّف هناك بل التفّ نحو اليمين في الجَنوب الشَّرقي، وذهبا بضعَ أميال يتبعان طريقاً صعباً جداً إلى أن دخَلا وادياً يعْرُجُ فيه نَهْر. في الجانب البعيد من النَّهر تقعُ قَريَة جروان، التي بُنيت مسْتَويَةً على طول ضفَّة معْشَوشبة، امتَدَّت على الجَوانب اليُمْنَى للنَّهْر، وتبْدُو كأنَّها جُزْء من جسْر منخفض مطمور.

كان القرويون من طائفَة اليزيديّة، وهي طائفة غريبَة من الشماليين يتكلمون لهجَةً محَليَّةً من اللُّغَة الكُرديَّة تخصُّهم وحدَهم؛ عندهم ضريْح بهيّ حُفظَ بعنايَة شديدَة في أعْلَى الجبال ما وراء عين سفني قليْلاً. اصطحب حسين جايك ليرى المُختارَ، أي زعيْمَ القَريَة، الذي اسْتَطاعَ لحسن الحظ أن يتكلَّمَ اللَّهْجَةَ اليزيديّة المحليَّة بشكل مقبول، وقام بدور المترجم. كان علي المُختارُ جالسا يُدَخّنُ بهدوء خارجَ منزله الذي كانَ مبنيّا مقابلَ الضّفَة المُعْشوشبة. كان يجْلسُ على مَقعَد طويْل حجَريّ مَصنوع منْ

(1) عين سفني: تقع في محافظة نينوى شمال مدينة الموصل على بعد 60 كيلومتراً، وهي مركز قضاء الشيخان، وهي من المدن المهمّة للدّيانة الإيزيديّة (اليزيديّة) لوجود أكبر معابدها هناك، وهو معبد لالش النّوراني. يدّعي البعض أن اسمها مشتق من قصّة سفينة نوح، حيث يوجد بقرب عين مائها تلّ يعرف بتلّ السّفينة. ويُلفظ اسم عين سفني بالكرديّة: ئيسفني. وإلى الشرق منها قرية (جروانا) التي تبدو فيها آثار أقنية الماء التي أمر بإنشائها الملك الآشوري سِنَّحريب ابن الملك سرجون الثاني.

أرْبَع كُتَل بَيضاءَ كبيرة. احتَوتْ مُقَدّمَةُ الكتَل نُقُوشاً حُفرَت فيها، تماماً كما قال حُسين؛ ولكنَّها كانتْ مُجَرّدَ شظايا مخيّبةً للرَّجاء. ولكنْ عندما نهضَ الرَّجُلُ المُسنُّ لإلقاء التَّحيّات، شاهَدَ جايك أنَّ هُناكَ نَقْشاً أكْثَرَ غنى، حُفرَ في كتلة في الجدار مقابلَ المكان حيْثُ كانَ المُخْتارُ يسْتند، وبعدَ تبادُل التَّحيات امتَدَّ جايك باتجاه الجدار، وقرأ على حجر بُني في هذا البَيت الصَّغير المقشش السَّقْف في القَريَة الهادئَة التي تبعد ما يقاربُ ثلاثيْنَ ميْلاً من نينوى، قرأ:

«هذا مِلكٌ لسِنَّحْريب

ملك العالم، ملك آشور».

سأل: «من أينَ أتتْ هذه؟».

«من السدّ في الخارج ـ استخدمنا حجارته عدَّةَ سنوات».

ذهب جايك ونظرَ إلى الضفَّة العُشْبيَّة الواسعة؛ والتي تصلُ إلى نهايَة في قاع النَّهر، وتُتابعُ بعْدَها بوضُوح على المكان البعيد حتَّى تختفيَ في الأرْض المُرتَفعَة إلى الغَرب. سالَ إن كان بوسعه تنظيفُ قسْم منَ الجانب العمُودي للضّفَّة من العُشب والتُراب؛ فأرسَل الرَّجُلَ العَجوزَ في طَلب بعض القُرَويينَ لقطْع المَرج. التمعَ على الفَور حجَرٌ أبيضُ عبْرَ التُّراب الرَّطْب، وامتَدَّت نقوشات واضحَة مَنْحُوتَة على طُول وجْه الجدار المَقْطُوع واضحَ المَعالم، ثم لتختفي خلفَ منزل المُختار التي قابَلها هنا في الزوايا اليمينيَّة. نَظَّفَ جايك آخرَ ما تَبَقَّى منَ الطَّبَقَة العُليا منَ التُّرْبَة وقرا النَّقْشَ قبلَ أنْ يَخْتَفي بالمنْزل:

«أمرتُ بحَفر...

فوقَ وهدة عميقة

مددتُ جسْراً من ...بيضاء

أمرتُ بالمُرُور فوقه...».

لقدْ علمَ الآنَ أنَّ الضَّفَّةَ المعشَوشبَةَ كانَتْ جسْرا منْ نوع ما، وليْسَ سَداً ـ ولكنْ ما هي الكلماتُ المفقودة؟ ماذا كان لدى سِنَّحْريب «ليُأمـرَ بالعُبُور فوقَه؟» هل كانت مركبتَه البَحريَّة؟ أم جيوشَـه؟ لقدْ كانَ هذا هاجساً لَه وأراد اكتشافَه بشدة. أخَذهُ المُختارُ عائداً إلـى بيته الصَّغيْر، الذي بُنيَ بشَـكْل كامل من حجارَة قُدّمَت لَهُ من الملوك الآشـوريين الأقوياء، وأعْطَى لهُ ولحسـين خبزاً ليأكلاه حُشي بقشدَة الحَليب اللّذيْذَة والعَسَل. قالَ مرَّةً أخرى: إنَّ الضّفَّةَ في الخارج كانت سداً؛ ولقد بناهُ ملك منْذُ زمن قديم جداً؛ لحفظ مياه الفَيَضان القادمَة من الجبال، لذا فإنَّ أرْضَ سـهل جروان يمكن أنْ تُجَفَّفَ وتُصبحَ مرعى، ولكن جايك انصرَف فكرُه إلى شَـيء مُخْتَلف، لقَد كان مشْـغولاً جداً بمحاولة التَّوازن بينَ القشْـدة والعَسل في رغيف الخُبْز، على أنْ يَقُومَ بالمَزيْد من النّقاش. وافق هانز بأنه كان يسْـتَحّقُ البَحْثَ بجَدارَة؛ والآن في هذه السـنة كان هو وريغمور وسِـتون قدْ عيَّنُوا في بَيْت صَغيْر مُقشَـش السَّقْف في عين سفني، للبَدْء بالعَمَل لكَشْف التَّرْكيب الغامض في الوادي البَعيد عنْدَ جروان.

فـي وقْـت مُتاخّر جدا منَ اللَّيْل أخْبرَ الحارسَ عن سـيّارَة آتيَة على طُول الطَّريْق من الموصـل ـ وتقدَّمَت فيما بعد ببـطء على المنحدر؛ وخرج منْها أنـاس خفاجيُّون. لقد كانـوا فـي رحلَة رهيْبَة أولاً عبرَ عاصفَة رمْليَّة شَـديدَة عندما كانوا فـي القطار، ولمْ تؤدِّ النَّوافذُ المُتَحَّرّكَةُ إلى صدّ أيّ منْها؛ ومنْ خلال المَطَر الغَزير وهمْ يسيرونَ إلى الأمام. (...عالم الكابوس هذا الذي كانوا يصفونه بدا بالنسبة لي غيرَ حقيقي). كان السّائقُ قد تنَقَّلَ في مُعظم مَناطق العراق الشَّـماليَّة، وظنُّوا أنَّهُ كانَ يبْحَثُ عن الطَّريق الأكْثَر جفافاً ليسْـلكه. قالت بِتـي ذاتُ الوجه الأبيض وهي تغوصُ في كُرْسـيّ قربَ النّـار، وقُبَّعَتُها مُنْسَدلَة على حواجبها: «وإذا أخبَرَني أحَد ما بأننا قدمنا إلى هُنا في طريقنا إلى شيكاغو فسـوف أصدّقُهـم». كان پيير يريدُ البَقاءَ في الموصل عندمـا وصلوا إليها أخيراً؛ ولكنَّ البَقيَّةَ ألَحُّوا على الاستمْرار لخَمسَةَ عَشرَ ميْلاً أخرى للوصول إلى هنا، ليموتُوا بشكل مريح بين أصدقائهم. اندَفَعْنا نحْوَهم لنُسـاندَهم ونُخَفّفَ عليهم، حتَّى أصْبَحُوا سريعاً بغاية السَّعادَة، وقد نَسُوا مَتاعبَهم.

حتَّى هذا اليوم لمْ أكنْ أعرفُ ماذا يُفترض بمعظمنا أنْ يعملَ في ذاك الرَّبيع المُبهج فـي خُرسـاباد. فهانـز كان يرغـبُ كثيـراً أن يقـومَ بالبحْث في تلَّـة عاليَّة تُدْعَى شِنشـي Shenshi تَبْعدُ قليلاً على امتداد الطَّريق، وقام پيير وماك وهال بواجبهما بشكل تام كلَّ يوم، ونقّبوا فيها، ولكن في إطار ذهني غير مسؤول وقتئذ لم أستطعْ ادراكَ ماذا يفترض بهما أن يهدفا إليه، وما إذا كانا يفعلان ما يهدفان إليه فعلاً. لقد بدأ ذلك بشكل محبط، علـى أعلـى قمة بمقبرَة قديمَة. أخبَرني هال بأنَّ كلَّ ما فعله كان تسـلق قمة شِنشـي كلَّ صباح، وكانَ يمشي حولَه مبتسماً بلطف للمشهد، ويقومَ برَحَلات بينَ الفَينَة والأُخْرَى فوقَ هيكل عَظْمّي.

كان هام يساعدُ غوردون في مسْح الأرْض، ولكنْ عندما كانَ يفاجئه أحدُ بشكل غير مُتَوَقَّـع يـراه مُمَدَّداً على ظَهره في المَرج ومعهُ لفافة تبغ، مبتسـماً بلطف للسـماء. ومن المُمْكـن أنْ يَقولَ إنَّهُ مثل هايمَـن كاپلان Hyman Kaplan، كانَ يقومُ ببعض «التَّفكيْر العَميق».

قامتْ راحيل بمساعدة غوردون دونَ تمييز بالتسجيل، وبالأعمال الرُّوتينيَّة الدّاخليَّة، وحاولَ هانز أنْ يُرْسلَ تقاريْر مُحكمَة إلى شيكاغو؛ بينما في حقيقة الأمر لْم أقمْ أنا بأيّ عمَـل، وطـوَّرْتُ تَقنيةً لـم تتركْني أبداً منذ ذلك اليوم، وهي الشَـغَف بأنْ أبدُو مَشـغُولةً إلـى أبعـد حدّ في الإنْجازات. أحياناً برشـوتي بلفافـة تبغ ألمانيَّـة (cheroot)، واقترَحَ هانز بأنَّني يمكنُ أنْ أطبَعَ شـيئاً له. لم ينزَعجْ أحد وحمل غوردون على راحَته بشَـكل سَـهل، فأنتَجَ وجبات أمريكيَّة لذيذَةً بشـكل لا يصدق؛ بينما انغمسـنا بالطَّواف بالطُّول والعَرْض حولَ الرّيف، ومَشـينا أحياناً في بعض الأوقات على طُول الأُفُق الواسـع في جبَل موسري Musri التّابع لسِنَّحْريب، على طول طريق موجُود منذ قبل التاريخ، كان هانز قد أرانا إياه.

هنا في الأعلى إلى اليمين اسـتطعنا رؤيةَ السَّـهل الكبير شـرْقاً إلى عين سفني؛ وهنا أيضـاً حصَلنا على مَشـهد كامـل لجَبل هائل مُغَطَّـى بالثَّلج يقفُ ممتَـدّاً إلى أبعد مدَى يمْكنُ أن تشـاهدَه العينُ شـمالاً وجنوباً، وبعيداً في المنطقة الخلفية البعيدة لكُردستان

وبلاد فارس. وبقينا في بعض الأوقات في السـهل، نكتشُـف قرىً سـاحرةً مختفيةً في ظلال الأرض المُنخَفضَة؛ قرىً صغيرَةً مُسْـتَظلَّةً بأشْـجار حَقيقيَّـة ـ لا يوجد هنا نخيل أبـداً ـ حيـث تفورُ المياهُ الصّافيَةُ فـي كلّ مكان على قنَوات حَجَريَّة بـارزَة. وقامَ الكُرد بالتَّرحيْـب بنا خجولين مبتسـمين ويمكـن التقاط نظـرة مفاجئة لحديقة صغيْـرَة مليئَة بالورود عبرَ مدخل في جدار حجري.

كان بإمكاننـا اجتيازُ برك مطريَّة كبيرة في الأرْض المعشوشـبة، حيث أتت اللقالق، وعشّشـت الآنَ في الأشْجار العاليَة في قرية خُرساباد، وضربت بأجنحتها جيئةً وذهاباً ما بين أعشاشـها والماء غيْرَ مسـرعة أو خائفة. انطَلَقَ الكَلْبُ الأسْـودُ المُسنُّ السپينلي spaniel التّابـعُ لمَوقـع الحَفْر في الميـاه الضَّحْلَة، نابحاً عليها؛ كانـت من الممكن أن تَطيـرَ ببسـاطة عالياً أبعَدَ مـن أن تُنالَ لبضع دقائق عندما جاءَ يقفزُ ويرشـرشُ في الماء، فسحبت أرجلَها المتدليةَ بكسَل بما يكفي لتَبْتَعدَ عن أذنيه المتأرجحتين؛ ثم أطلّ عليها وهو تحتها وبدا مندهشاً؛ لأنَّه أخْطا الهَدفَ وكأنه يقولُ: «يا للخَيبَة! أعلم أنه كان يوجد هنـا لقالـق!»، ثمَّ عادت اللَّقالقُ مـرَّةً أخرى إلى النَّهْر خلفه، وتابعت شـؤونها الخّاصَّةَ بهدوء، بينما هزّ الكَلْبُ جسَدَه كلَّه بالقُرْب منّا، مُتَوَقّعاً أن يُدعى كلباً ذكياً جداً جداً.

وصلت في أحد الأيام رسالة من عين سفني تقول إنَّ هانز كان قد طُلب بسُرْعَة فائقَة الذَّهابَ إلى هناك؛ وفي الصباح التّالي وبوقت مبكر جدّا جلسَ في سيّارَة المَوقع، ولم يحتـج للفافة تبغ هولنديّة Dutch cheroot ليقنعَني بالذَّهـاب أيضاً، كانت الطَّريقُ من عين سـفني إلى جروان وعرةً جداً بالنّسْبَة للسَّيارَة، فلذا انْحَدَرنا وجَريْنا على الصُّخُور وعبرَ قيعان عدَّة وديان جافَّة إلى حَدّ ما الآن، ثم وصَلْنا إلى القَريَة.

تمتـم هانز وقد دنَونا من القرية: «يا إلهي *Mon Dieu*! كم فعلوا من أشـياء منذ أتينا هنا».

كانوا هناك، بانتظارنا ـ بدا سِـتون، أكثر نحولاً من قبل مع ابتسـامته الملتوية المرحة أسـفل نظاراته السـوداء. وجايك بقميص ذي لون كاكي وبنطال قصير، وكان شَعره قد ابيضّ بالكامل تقريباً بفعل الشَّـمس، وبَدَتْ ريغمور سـمراءَ كحبَّة توت مشرقة، كانت

تعلوهـم نظْرَةُ انتصار مكبُوتة، وكان جميعُ العُمّال اليزيديين من حولهم ينقلون التُّرابَ من الحفرة، بينما كان بعضُ الشّرقاطيّين الذين أحضرهم سِتون معه ينقرونَ على جوانب الجُدران الحَجَريَّة. كان اليزيديّةُ غريبين بشـّدة، يضعـونَ أغطيةَ رأس قرمزيَّة ويرتدونَ قمصاناً بَيضاءَ وسـراويلَ فضْفاضَة. وتركوا شـعرَهم طويلاً، إما حراً غيرَ مربوط ليصلَ إلـى الكَتف، أو مجدولاً في عدة ضَفائرَ صغيرة مُحكمة مدهونة بالزَّيت. لمْ يكنْ هناك أيُّ لمسـة للَّون الأزرَق في أيّ مكان في ثيابهم؛ لأنَّ الشَّـيطان الذي يسترضونه يغضبُ من هذا اللون.

أزيلت الطبقةُ العليا من التُّربَة كلّها من القمة ومن جزء من جَوانب الجسر الذي امتَدَّ بلـون أبيضَ، وكان واضحاً على جانبَي النَّهر. علمنـا أنَّ طولَه بالمجمل كان يزيد على 900 قدم، مشـينا إلى الحفرة الكبيرة حيث لمعَ النَّهرُ الصَّغيرُ خلالها، وأرانا سِـتون قاع النَّهـر هناك، وقد رُصفَ في أحَد الأيّام ليتحَّمَّلَ ثقـَل القَناطر التي امتَدَّت فَوقه. ووُجد على أحد جانبي النهر اثنان من الأقواس المُسَّـنَّنَة سـليمةً تقريباً، وفي قاع النهر حاجزةُ أمـواج نصفُ دائريَّة ثقيلة منقوشـة، اسـتَقَرَّتْ عليها دعامةُ قوس مـن الأقواس. وعليه فإنَّ النَّهر لا بُدَّ أنَّهُ كان يجري عميقاً وواسـعاً وقوياً حتى احتاج إلى مثل تلك الحاجزة القويَّة المُؤثِّرَة. قامَ سِـتون بحسـاب المسـافة بين المنحنى من القَناطر الباقيَة والمسافة التي يجب أن تمْتَدَّ ليَكُونَ عددُها خمسَـةً في الأصْل، وبعدَ أخذ بعض القياسات انتقَلَ إلى مسْـتَوى سـطح التُّربَة في الجانـب الآخَر من قاع النَّهر، وأشـارَ لبعْـض العُمّال أن يَحفـروا نقْطَـة محدَدَّةً في الأسْـفَل عبـرَ التُّربَـة وأخبَرهم أنهم يمكـن أن يجدوا حجراً مدوّراً عليه كتابات مَنْقُوشَـة. ولابُدَّ أنَّهم نسبوا إليه قوةً سحريةً عندما ضُربَتْ معاولُهم بشكل مباشَر في الأسْفَل عندَ حاجز الأمْواج الخامس تماماً كما قال.

أمكـن رؤيةُ البقايـا من الحواجز هنا وهناك على طول الجَوانب من الجسْـر؛ وبينها كانَ السَّـْطحُ الذي صنع من حجارَة الرَّصْف قد وضعَ بعنايَة بالغَة فوقَ طبقَة عميقَة من الإسَـمنت. قـالَ كلّ من جايك وسِـتون إنَّهُم وجدوا العنايَـةَ الكبيرةَ التـي تَعامَلُوا فيها مع السَّـْطح غامضَةً ومُحَيِّرَةً حتَّى اليوم السـابق. ثم بالكشف عن الجانب الشمالي من

الجسر المقابل تماما لمنزل المختار علي، كان سِتون قد اكتشفَ عدَّةَ دعامات جميلَة، وعلى كلّ واحد منها، وفي كلّ تجويفة بينها، حُفر نقْشٌ مسْماري دقيق. قال جايك: «هانز تعال وانظرْ إليها».

انتقلنا جَميعاً إلى الجانب الشَّماليّ للجسر إلى أن توقف جايك عند فسحة كان النقشُ فيها واضحاً جداً.

قال: «تكرّر النقشُ ذاتُه على طول الجدار، والذي شاهدته في الجدار عند منزل علي السنة الماضيَة كان جزءاً منه».

قال هانز: «تابع».

قرأ جايك ببطء من كُتَل الحجر البَيضاء، مؤكداً عندما وصَلَ إليها، الكلمات التي يعرفها سابقاً من كسرة علي:

«سِنَّحْريب، ملكُ العالم، ملكُ آشور، يقول: لمسافة طويلة، بالإضافة إليها مياه ينابيع الجبال إلى اليمين والشّمال من جوانبها، أمرتُ بحَفر قناة إلى مروج نينوى. وفوقَ الوهاد العَميقَة مددتُ جسراً بكتل حجريَة بيْضاء. أمرت بالعبور فوقه على هذه المياه».

إنه عبارة نهر.. لا آلات حربية.. ولا جنود.

سادتْ فترةُ صمت قصيرة، ثم التفت هانز لينظرَ إلى الأسفَل على طول قطعة بيضاءَ ضخمَة امتَدَّت بعيْداً فوقَ العُشْب.

«أمرتُ بالعبور فوقه على هذه المياه»... كرّرَ محَرّكاً رأسَه قليلاً كما هي عادتُه أحياناً عندما تكونُ الكلماتُ غير ملائمة. «إذن فهذه قناة مياه.. أقدمُ قناة مياه تُعرف إلى اليوم على الإطلاق!».

* * *

مشينا خلال فتْرة استراحة وسط النَّهار في طَريق صغيْر بأعلى الوادي، وقمنا بنزهة على المَرْج قربَ النَّهر حيثُ امتَدَّ فوقَه جسْر محَدَّب. لمَعَتْ أكَوام زرقاءُ من نوع من

زهر الحَواشـي الكبير على طول حوافي النَّهر، واهتَزَّتْ سـراخسُ برية صغيرة وتألَقَت بينَ شلالات صغيرة. وفي العشب كانت هناك زهرات سحلب بلون بنفسجَي وزهريّ صغيرة، وزنبقٌ متمايل مخطَّط باللَّون الأحْمَر والأصْفَر، وتَمايَلَت في كلّ مَكان شقائقُ النُّعْمان في النَّسـيْم العَليل، بلون أبيَـض وأزرقَ وأرجوانيّ قاتم وقرمزي مُتَوهّج، عَلَّقَ اليَزيديّون شقائقَ نعمان قرمزيَّة فوقَ مَدْخل ضريحهم رمزاً لدم إلههم المتوفى أدونيس، وقد دخل دينَه بعمق داخلَ نسيج عبادتهم الغنيّ الغريْب.

قـال هانـز مهتمـاً وهو يَعـضُّ بقُوة علـى شـطيْرَة كبيرَة: «علينـا محاولـةُ تتبع طريق القَناة».

قـال سـتون: «أعتقد أنَّهُ في الطَّرَف الشَّـرقيّ لمَمَـرّ القَناة، بدايةُ تعـرّج القَناة الفعلي حولَ الهَضَبَة إلى الشَّمال ثُمَّ إلى الوادي التّالي، حيثُ يجْري نَهر غومِل Gomel أسفلَ ذاك الوادي».

ومن المُحتَمل أنَّه حوّلَ ذاكَ النَّهر إلى قناة في مكان ما أعلى الوادي ـ علينا أن نحقق في ذلك عندما تنتهي من هنا».

بدأ جايك يخبرنا حكايةً شعبيةً عرفها صدفةً عن طريق كلمة أظهرتها بين العمال في الأيّام القليلة الماضية.

لقدْ كانت قصَّةً قديمةً جداً، إذ أنَّ جميعَ اليزيديّين الأميين من جروان، وبعض القرويين من عين سفني يعرفونها.

اسـتلقينا بين الأزهـار، والماءُ يترقرق قريباً منا، بينما كان جايك يسـحب نفسـاً من غليونـه الدانمركـي المعقـوف، ثم بدأ يتحـدث بصوته الرقيـق الدانمركـي وكأنه هانز آندرسن المعاصر:

«كان في قديم الزمان زمان بعيد جداً جداً، كان هناك ملك عنده ابنة جميلة، واحتاجَ المَلكُ مياهاً أكثرَ لمدينته لتكونَ جميلةً وخضراء. وكان قد تَقدَّمَ لخطبة الفَتاة خاطبان، وقدْ أحَبَّتْ واحداً منهما. قال الملكُ إنَّه سـيعطي الأميرةَ لمنْ يسـتطيعُ أن يُحْضرَ الماء

لمدينته لتكونَ جميلةً وخضراء. ذهبَ أحدُ الخُطّاب في الحال وبَدأ العملُ في الهضاب والجبال بعيداً عن المدينة، وحفرَ قنوات، وأحضرَ الماءَ أقربَ وأقربَ إلى المدينة، ولكنَّ الخاطبَ الثاني الذي أحبّتْهُ الأميرةُ، جلس في المَقْهَى كسولاً. وعندما أحضرَ الخاطبُ الأوَّلُ الماءَ قريباً من المَدينة، ذهبَ الثاني وجَلَبَ أقمشَةً كتّانيَّةً كثيرَةً، ومدَّها في اللَّيل على الأرْض قربَ جدار المَدينَة. ولدى شروق الشَّمس أنارتْ الكتان، وبدا كأنَّهُ نهر؛ وشاهده الخاطبُ الأوَّل من بعيد واعْتَقَد أنَّ الآخَر قَدْ أنْجزَ المَهمَّةَ؛ فمات حزناً، وفازَ الخاطبُ الثاني بالأميْرة».

هناك في الأسفل، أدنى منّا امتَدَّتْ قناةُ سِنَّحْريب عبرَ العشب، كان العُمّالُ يستريحون بمجموعات صَغيرة، ويجثمون بالقُرب من حجارته، لمعتْ وشاحاتُ اليزيديّة ساطعةً مثلُها مثلُ شقائق النُّعْمان القُرمزيَّة. لمْ يكونوا يعلمون أبداً أنَّ تلك الضفة المعشوشبة التي يسمّونها سداً قد جلبت في قديم الزّمان ماءً عبرَ الوادي.. وما زالت، إنَّ مأثرةَ سِنَّحْريب الكبرى باقية في ذاكرتهم بشكل قصَّة خياليَّة وصلت إليهم شفوياً على امتداد أكثرَ من 2600 سنة[1].

***

غادر هانز بعدَ عدة أيام من هذا إلى أمستردام، حيث كانَ سيحاضرُ قبلَ ذهابه إلى إنكلترا، وهناك سيمضي صيفَه الغَنيَّ المعتادَ بالعمل ومعارض الفن والكتب والموسيقا وأعمال الزراعة والأصدقاء، ثَمَّ المزيد من العمل مجّدداً. كان يمكن أن يكون صيفاً شاقاً في المكتب لأنَّ كلَّ شيء كنا قد أنجزناه سلفاً وكلَّ شيء قد كشفناه في تل أسمَر، وخفاجة، وخُرساباد، والآن جِروان (حتى شِشني Shenshi، ربما هياكلُ

(1) يا للرّوعة.. إنّ أجمل ما يصادف عالم الآثار دون ريب أن يستمع من السكّان الرّيفيين لمنطقة أثريّة رواية أسطوريّة انتقلت بالتواتر الشفهي عبر آلاف السّنين، لتبقى منها دلائل في ذاكرة النّاس المتصلة بها دونما انقطاع منذ ذلك الحين! ومن ذلك ما سمعته بأذني في جبال السّاحل السّوري: أيلي (اسم الإله الوثني إيل والد البعل).. وما يُسمع في جميع قرى بلاد الشام: أرض بَعل.. وما سمعته في قرى ريف دمشق عن طاحون البنشكيّة، فاكتشفت طاحوناً بناها أمير مملوكي هو منجك (المنجكيّة).

عظميـة، وكلهـا يمكـن أن تكونَ تحـوي تعريفاً بيانيّاً صغيـراً انْزلَق في مـكان ما)، كانَ ينبغـي أنْ تكـونَ مُتَناسـقَةً مهيأةً للنَّشْـر. والآن وبما أنَّني اسـترحت، كان من المفيد أن أعلـمَ أنَّ الحياةَ في أيّ مكان يتواجد فيـه هانز كانت غنيَّةً ومثيرة، حيث تبعت هانز إلى هنا بعيداً عن العواصف الرَّمليَّة، كذلك يمكن قريْباً أن أتبعَه في صحوته إلى في لندن.

أصبحت مجاراتُه النَّمَطَ الاعتياديَّ لأيامي وشغلي الشاغل، بأكثرَ من طريقة واحدة، من الآن فصاعداً؛ سَـواء كنتُ أُقَطّبُ جبيني وأنا أقرأُ مواعيْدَ السَّفينة والسَكَّة الحَديديَّة وأنـا أذهـبُ وأعودُ باسـتمرار بينَ لندن وبغداد سـنةً بعدَ سـنة، متبعةً معلّمـي؛ أو أتتبّع مقالاتـه المَحْبوكَة اللافتة للنَّظر بعناوينه ومقالاته ومحاضراته وكتبه. كانتْ كتاباتُه من النَّـوع الـذي يصعُب فهْمُه لمَنْ ليسَ لديه معلومات أساسـية، ولكنَّها في النّهاية مجزية إلى حدّ بالغ لمن يبذل فيها جهده. كانَ دائماً مسـتعداً لأن يشـرح ويفسّر، وعلى اعتبار أنّ شـخصيّته كانـت مركبةً ومشـرقةً فقـد كان يتحمّل الجهلـة، لكنه لا يطيـق الأغبياء أبـداً.. ربما ليس برضـاه، ولكن على الأقل بلطف لطالما كانـوا متواضعين ويحاولون بشـدَّة فعْلاً استعمالَ عقولهم. غيرَ أنَّ الجاهلَ المَغرورَ كان يزعجه فيظنّه ذلك الجاهلُ متكبراً.

الآن خُرسـاباد وقريبـاً في لندن، كانـت الحياةُ جيدةً جداً ـ وبـدتْ أقربَ لأنْ تكونَ مثاليَّـةً عندما وصلتْ رسـالة من الزوجين پندلبُـري Pendleburys تقترح أنَّه يجدر بي وبسِـتون أيضاً إن كان يسـتطيعُ المجيءَ ـ أن نقضيَ بضعَةَ أسـابيع في كريت معهـم قبلَ الذَّهـاب إلى إنكلترا. سَـمعْتُ صَدَىً ضعيفاً من سـنة خَلَتْ ـ جـون ينادي من رصيف الميناء في بلاد فارس: «إلى كريت السَّـنَة القادمَة» ـ كانت الدائرَةُ السّحْريَّةُ قد اكْتَمَلَتْ تقريباً.

ولكن قبلَ مغادرتنا خُرساباد، كان عملُنا في العراق في ذاكَ الموسَمَ قدْ تُوّجَ بازدهار غيـر متوقَّع. فقد اسـتلم غوردون برقيةً من بغـدادَ تقولُ: إنَّ الملكَ فيصل قادم شـمالاً فـي إجازة، ويريدُ مشـاهدَةَ المَوقع ـ وبشـكل خـاص الكروبيم الجديـدن ـ ويمكنُ أن يصـلَ في منتصَف النَّهار خلال يومين. سـيكون معه وليُ العهـد، ويمكن أنْ يبلغَ عدد

المرافقين ما يقاربُ الاثني عشر. اعتقدنا أنَّ ذلك جيد حتى لاحظنا وجه غوردون. لقد كانت دراسةً مذهلةً مشتركةً للجنون والهلع والتَسليَة ـ وفي الأغلب جنون.

قال: «الثوران اللعينان، لقد انتهى الرجالُ اليوم من دفنهما مرةً أخرى.. لقد تكلّفا تقريباً مصروفَ أسبوع».

ترنَّحَ ليضَعَ جميعَ الرجال الذين استطاع حملَهم إلى العمل في إعادة إظهار الثورين بأقْصَى سرعة، ثم تنظيفهما حتى اللمعان؛ وعندما علا رأساهما الضَّخْمان السَّطْحَ مرَّةً أخرى بَدَتْ الابتسامةُ أكبرَ من ذي قبل. وبدا أنَّها تقول: «أتينا إلى هنا مرَّةً أخرى، عندما تنتهونَ من مجارفكم ومعاولكم ومكانسكم أيها الرّجالُ الصَّغارُ اتركونا الآن نلمعُ في نور الشَّمس إلى الأبد بينما نحمي ملكَنا؛ لأننا نحن وحشا الملك».

اندفع بقيتنا هنا وهناك للتحضير يتناقشون حولَ الإجراءات. قال ماك: «يمكننا بما يخصُّ الملك جميعاً أن ننحنيَ ونبجلَه إلى أن نشعرَ بالدوار، ولكنه لم يُجلبْ إلى هنا بسبب إيمانه بالملوك، ومن حيث المبدأ كان سيلحقه الشنار إن كان هو الذي سينحني».

جاء صباحُ يوم الزيارة، وقرب الظهيرة انطلقَتْ صيحة من الحارس الذي كان غوردون قد أوقفه مراقباً على قمة هيكل سَرغون. ركضنا جميعاً إلى الحافَّة الغربيَّة من الرّابيَّة، وبعيداً جداً بوضوح الجدران الخَضْراء لنينوى كان خطّ طويلٌ من سيارات تسير على امتداد طريق سَرغون، وباقترابها استطعنا رؤيةَ ثلَّة[1] من فرسان عرب يمتطون جيادَهم بعظمَة على جانبَي السيارة الأولى. سَطَعَتْ أثْواب ووشاحات بيضاء، وتمايلت شرابيش عدة الفرسان بلون ذهبيّ وأخضرَ وقرمُزيَ، ولَمعَتْ مواسير البنادق ومقابضُ السُّيوف. لم يركب الفُرسانُ في الحرس الرسمي، ولكنهم أخذوا يمشون ويدورون في الحُقُول على جانب الطَّريق أشْبَهَ بنوارسَ[2] بيضاءَ كبيرة بريَّة وجميلة تدورُ حولَ قافلَة من سفن صغيرة تأرجحتْ وتمايلتْ قليلاً في بحر متلاطم الأمواج.

(1) ثُلَّة: جماعة من الناس. (لسان العرب 2، ص 123).

(2) نوارس: جمع نورس: طير الماء الأبيض. (حياة الحيوان للدميري 2، ص 843).

ثم أبطأت السَّـيارات وانعطَفَتْ، وارتقَت المُنحَدَرَ واحـدةً تلوَ الأخرى. ترجَّلَ المَلكُ فيصـل ووريثُه الأمير غازي من السـيارة الأولى. إنَّها المَـرَّة الثانية التي يأتي بها الملكُ مع وريثه الشّاب من نينوى.

ولكـن هـا هنا كان أمامنا رجلُ سـلام تـاركاً خلفَه أيامَـه الحربيَّة. مضَـت الآن عدةُ سـنوات منذ حمى مـع الكولونيل لورنس جناحَ جيش آلِنبـي Allenby الأيمن، وأبعدَ الجيشَ التركيَّ بعيداً إلى دمشقَ، بل وأبعَدَ منها.

كان طويلاً ونحيلاً، له رأس صغير، وشـعر أشـيبُ نمى إلى الخلف عن جبهة مهيبة فـوق عينين متعبتين حادتين جداً بلون عسـلي. لقد كان من السّـهل معرفَـةُ لماذا أدرَكَ لورنـسُ من اللقـاء الأوَّل أنَّه هو الرَّجُلُ الذي بحَثَ عنْه قائـداً للعَرَب المقاتلين. يقول لورنس:

«شعرْتُ من النَّظْرَة الأولى أنَّه هو الرَّجُلُ الذي قدمتُ الجَزيرَة العَرَبيَّة لأبحثَ عنه، القائـدُ الـذي يمكنه الارتقـاءَ بالثُّوار العرب إلـى مجْدٍ تام. بدا فيصلُ طويلاً جداً أشـبهَ بعمـود، نحيـلاً جداً، في ثيابه البَيضـاء الطويلة الحريريَّة وغطاء رأسـه البُنّيّ الذي حُزمَ بعقال ذَهبي وقرمزي لامع، كانت أجفانُه مسـدلةً، ولحيتُه السَّـوداءُ ووجهُه الشّـاحبُ كانا أشْـبَهَ بقناع يقابل غرابَة يقظةَ جسـده المُسْـتَمرَّة، وكانتْ يداه متصالبتين أمامه فوقَ خنجره».

صافَحَنا جميعاً باليد، وانحنى ماك بوقار شـديد على تلك اليد أكثرَ من أيّ شـخص آخَر. قال فيما بعد: «لقد كان بالفعل ما كنتُ أتخيلُه عن ملك».

تناولنا طعامَ الغَذاء في الهَواء الطلق على حَيْد[1] واسع معشوشب يُشرف على غرفة عرش سَـرغون. جلَسَـتْ راحيل على يمين فيصل، وأنا عن يسـاره؛ ومقابلنا بِتي ووليُ العهد، شابٌ نحيل، خجول، مبتسم، كان يرتدي بزّةً أنيقةً، وصل لتَوّه من المدرَسَة في هارو Harrow. وهكذا جلسَ المَلكُ فيصلُ وتحدَّث معنا، تدور عيناه الآن على الحُجرة

(1) حَيْد: كل نتوء في قرن أو جبل. (القاموس المحيط، ص 356).

الطَّويلة حيث جلَسَ المَلكُ سَرغون ذاتَ مرَّة أمامَ الجمهور، وينهض الآن وينظرُ نظرَةً فضوليَّـةً متشَـوقَّةً إلـى الهضاب خلفه تماماً، تلك التي تسـلَّقَها المَلكُ سِـنَّحْريب ذاتَ مـرة. بعد الغداء طلبَ أن يسـتعرضَ الموقعَ كلَّه، ثُمَّ تحَـوَّلَ الرَّجُلُ الهادئُ الهَزيلُ إلى نَوع من طاقة كهربائيَّة. ذهَبَ في كلّ مَكان، بخُطُوات سريعَة واسعة، يفحصُ بعناية كلَّ شـيء، وأخذَ يسـألُ أسئلةً لا تُعَدُّ ولا تُحصى. كانَ الأميرُ الشّابُّ غازي أقصَرَ من والده بمسـافة رأس، كان معظـم وقته على عجلة من أمره؛ وتبعهمـا الوكلاء وموظفو القصر متعرّقين قليلاً، لكنَّهم كانوا يبذلون جهدهم لمتابعتهما....

عندمـا انتهى كلُّ شـيء بعد الظهر، ذهبت أنا وهام وهال للسـير نحو التلال. وعدنا عندَ حلول الظَّلام عبرَ قريَة صغيرة، كان أمامنا فلاح كرديّ يمشـي عائداً إلى بيته، وقد تدلت حلقاتُ شعره الداكنة على كتفيه من تحت عمامَة وُضعت بشَكل أنيق، كان يمشي مـع معـزاة كبيرة تتبعه متلهفَةً عنـد عقبيه، مرة على جانب، ثم علـى الآخر. في كلّ مرَّة كانـت تثغو[1] فيهـا كانَ هذا الرَّجُلُ القَويُّ يجيبها بنوع من دنْدَنَـة[2] تُعيدُ لها الطمأنينة. وعندما أدركناه رأينا أنه كان يحملُ بلطف شديد مولوداً جديداً بأذنين حريريتين، حيّانا الرَّجلُ بابتسامة لدى وصوله إلى منزله، واستدارَ ليدلفَ[3] عبرَ المَدخل. تصاعدَ دخان أزرقُ مـن مجموعة المَنـازل الصغيرة، ولاحَتْ مقابلَ الغروب المُتَوَهّج كتلةٌ قاتمة من قلعة سَـرغون فوقنا كتهديد شـرّير كان يريد أنْ يقسمَ العالمَ المعروف ذات مرَّة. ولكنَّ ناحومَ انتَقَمَ منذ زمن بعيد، فولَّى الأسَـد القديم، وولَّى شـبْلُ الأسَد القديم سِنَّحْريب، وتعرَّضَت نينوى للخراب. وباتَت البلادُ بسلام، وأصبحَ الرَّجُلُ الصّالحُ ملكاً.

❊ ❊ ❊

(1) الثغاء: صوت الغنم والظباء وغيرها عند الولادة. (القاموس المحيط، ص 1635).
(2) دندنة: أن تسمع من الرجل نغمة ولا تفهم ما يقول. (لسان العرب 4، ص 419).
(3) دلَفَ: مشى مشي المقيد. (القاموس المحيط، ص 1046).

الفصل التاسع

نُظمَتْ خمسُ ياقوتات في خيط شَفّاف وامْتَدَّتْ عبر عالم أسودَ، فلمعتْ في اللَّيل أمامنا إلى الأعلى بينَ حين وآخر، وقد تختفيَ منها واحدة أو اثنتان؛ وفي بعض الأحيان يمكن أن تتضاءَل كلُّها إلى أنْ تصبحَ بحجم رأس الإبرة بعيداً، بعيداً جداً.

كنت أنا وراحيل في السَّيارة الأخيرة من الموكب نجاهدُ في طريقنا باتجاه الغرب من الموصل إلى نهاية الخطّ الحَديدّي الشَّماليَ في نصيبين شمالَ شرق سُوريا.

كانت عائلةُ ماك في إحدى السَّيارات في الطليعة، كانتْ المدينةُ هنا في الجُزء الشَّماليَ الأقصَى من العراق أقربَ إلى الحدود التركيَّة، كثيرةَ التلال، مقفرةً جداً ـ سهل يمتدّ دونَ شجَر لا يحوي إلا طرقاً محفّرةً مليئةً بأخاديدَ التفّت فوقَ تلة وأسفل وادٍ تتصالب معه بلا نهاية. ومع كلّ ما تبدو عليه من فراغ كان السَهْلُ موطنَ اليزيديّين حيثُ يتجَّول الكثيرُ منهم بثقَة هنا وهناك في شؤونهم الشرعيَّة بسلام، ولكنَّ شهرتَهم التي اكتسبوها في قطع الطرق كانت السَّبَبَ في منع السُّلُطات النّاس السَّفَرَ منفردين على هذا الطريق، وكان مرورُهم بتلك المَناطق على مسؤوليتهم الشَّخصيَّة. كان الطَّريقُ الطبيعيُّ بالمرافَقَة ـ التي بَدَتْ بالنسْبة لي فكرة من الدَّرجة الأولى فيما لو صادفَ أن كنت في أيّة سيّارة من الصفّ إلا الأخيرة. لم أستطعْ إلا التساؤل عمّا سيحصل فيما لو تعَطَّلَت السَّيارة الأخيرة بين نوبات الهزّات وأنا أمسكُ برأسي وهو يَصطُدمُ بسقف السَّيارَةَ أو إطار نافذتها مرَّةً تلوَ أخرى، كنت أتَساءَلُ ماذا سيحدثُ لو تعطَّلت السَّيارةُ وكانت هذه السيارةُ تحملُ كلَّ الدلائل على حدوث ذلك في ظلمة اللَّيل الشَديدة، ولن يعلمَ أحد ممَّنْ في المقدمة بتعطلها أبداً.

تغيَّر الطقسُ، وكانت السَّماءُ ملبدةً بالغيوم، وغرق الطَّريقُ بالوحل الرطب. اندفعنا بسرعة كنّا، نهبطُ وننزلق؛ وسرْنا ببطء في بعض الأوقات إلى درجَة التَّوقف التّام، مع عجَلات تدور وسائق يهدر؛ ومنْ ثُمَّ يمكنُ للأضْواء الخمسة الصغيرة للسَّيارات التي تتقدمنا أنْ تنسَحبَ إلى مسافة أبعدَ وأبعد، ربما لتختفي كلُّها في منحدر بعيد أو حولَ تلة من التلال. ثم استطعنا أن نقلعَ إلى الحياة مرَّةً أخرى، وترنحنا إلى أسفل الطَّريق، وبعدَ ميل أو ميلين من التوتر المزعج لمحنا بسعادة لمحةً من آخر ضوء أحمر، ومن ثم الأخرى والأخرى. وفكَّرت متجهمةً[1] وأنا أراقبُ الأضْواءَ في الظَّلام بأنَّه لا ينبغي لأحد أن يلوم أحد منّا عندما يكونُ على البطات العرجاء أن تتلكأَ وتتلكأَ طوالَ الطريق، وكلُّ ما في الأمر هو البقاءُ مع الركب، ويجب ألا تنتهيَ الأوقاتُ السَّعيدةُ وألا تأتيَ متفرقةً أبداً.

قادنا جبرائيل بسيارته إلى الموصل فوصَلْنا عندَ الغروب؛ وكانت القافلةُ قد غادرتْ دار الاستراحة عند منتصفَ اللَّيل. كان المطر قد هطل على خُرساباد طوالَ النَّهار؛ ولكنَّ الشَّمس سطعتْ من جديد منخفضَةً أفقيَّة، تحتَ غيمة طويلة سوداء، تماماً عندما تحركت السَّيارةُ أسفلَ المنحدر تحَّولَ المنزلُ البنيُّ القديمُ فجأةً إلى اللَّون الذهبي، ومقابلَ الهضاب المغطاة بغيوم أرجوانية، وتحوَّل بياضُ اللقلق إلى اللَّون الورديّ الداكن عندما لامستْ ريشاتُه أصابعَ الشَّمس الذهبيَّة وهو يضربُ جناحَيْه ببطء فوق البيت باتجاه البُحيرات.

وقف هام وهال وحدَهما على قمَّة المُنحَدَر عندما كنّا نغادر.

قلتُ، ضاحكة وبطريقة سهلة: «أراكم في لندن».

أجاب أصدقائي الأعزاء: «نراك في لندن».

فعرفْتُ معنى المَوت الصَّغير عند مغادرة قطعة من الحياة في فراق إلى الأبد مهما كانت احتمالاتُ المستقبل واعدة.

❋ ❋ ❋

(1) متجهّمة: تجهَّمه: استقبله بوجه كريه. (القاموس المحيط، ص 1409).

استـمَرَّ المشوار بالسّيارة إحدى عشرةَ سـاعة، وامْتَدَّ الضَوءُ الباردُ من الفَجر وراءنا أخيـراً، وفـي كلّ وقت فتحنـا فيه أعينَنا النعسـةَ بين فترات نوم خفيـف مضطرب، كان العالمُ يزدادَ ضياءً، والسهل يزداد خُضرةً.

همهمت[1] راحيل يائسـةً من زاويتها: «لا أعتقد أنه يمكن لي أن أشـعرَ بالدفء مرةً أخرى أبداً».

عندمـا بزغـت الشَّـمسُ كان الحـالُ أفضـلَ قليـلاً، ولكننا كنـا متعبين ومرتعشـين بشـكل بائس، وعند منتصف النَّهار تتالت السَّـياراتُ في المقدمَة على منحدر بسـيط، واختفـت واحـدةً تلوَ الأخرى عبرَ فجوة في الأُفُـق المنخفض، وبَدَت أنها فعلت ذلك مئات المرات من قبل. تبعناها وعندما انتهينا من الفجوة، نظرْنا إلى الأسـفل إلى منظر غريب مذهل. المشهدُ الطبيعيُّ الأخضرُ المنتظم لا يزال ممتداً أمامنا ـ ولكنه أخيراً لـم يعد فارغاً تماماً. كانت السَّـياراتُ تنحدرُ نحو الأسـفل، وتتجهُ نحو شـيء صغير مربع أسـود يقف منفرداً بشـكل كامل في السهل، ويمتَدُّ على الجانب البعيد له خيط مزدوج منحـن وامـض متجه نحو الأفق البعيد، كنّا ننظرُ إلـى الحواجز التي تعلّم نهايةَ جدول، كان متواصلاً لولا الموثب المائي في إسـطنبول ـ والذي كان مبدؤه على بعد أكثرَ من 2000 ميـلاً، حيث تقع محطّة سـيمپلون Simplon-Orient-Express الكبرى بعيداً عن الأمواج الرماديَّة المالحة، التي ترتطمُ بجدارَ الميناء القديم في كاليه Calais.

بـدا القطارُ غيرَ حقيقي، كمـا لو أنَّ طفلاً مارداً قد نصب لعبتَـه من قضبان وحواجزَ علـى أرض بيت حضانة غيرَ متناه. والآن أقبل من بعيد قطار حديث أخذ يدرجُ متباطئاً حتـى بـات يزحـف عندما وصلَ إلـى نهايـة رحلته، وارتطـمَ بصوت «بونـك» bonk! بالمصَدّات القليلة المنعزلة في وسطَ اللامكان.

عندمـا زحفَـتْ جَمـوعُ المسـافرين القليلـةُ المتبعثرةُ خـارجَ السَّـيارات وانتظروا، متراخين تحتَ أشعة الشمس، بينما كانت أمتعتهم تنزلُ وتكدَّس إلى جانبهم، تجَّسدت

(1) همهمت: الهمهمة: الكلام الخفي. (القاموس المحيط، ص 1512).

اللَّمسَـةُ الأخيرةُ المتنافرةُ في شـكل خادم عربة النوم الذي يتحدث الفرنسـيةَ وهو قزم كان يرتـدي بزَّةً أنيقةً بنيّـة، وقبعةً بارزةً وأزراراً لامعة، قفز ذلـك الخادمُ من الدرجات العالية لعربة النوم، ورحَّبَ بنا على متن القطار.

ابتسـمتُ أنـا وراحيل بشـحوب بوجـه ماك وزوجتـه، وتوارينـا[1] فـي المأوى من عربـة نومنـا، وخلال ثانية عبرْنا من عالم لآخر، بُهرنا وسـطَ الراحـة الحقيقيَّة للمَقاعد الموسّـدَة المُحاطة بخشـب قاتـم لامع وزجاج ونحـاس وامض، والمناشـف النظيفة والمياه الجارية. طلبنا إلى الرجل الصَّغير أن يهيئَ الأسرّةَ في الحال، ونجحنا بصعوبة في البقاء يقظين إلى أن ذهبَ ولم نتحركْ ولم نعلم أن العجلات المدمدمة والمقعقعة كانت قد بدأتْ بالتحرك أسـفلَ منا، وتقدم القطار بعيداً في وقت متأخر من بعد الظهر في رحلة طويلة إلى إسطنبول.

اسـتغرقت رحلتنـا ليلتين ويومين لننحـدرَ عبرَ الشَّـمال الغَربيّ من التخم الشـرقي لسـوريا إلى إسـطنبول، وفـي صباح اليَّـوم التّالي الباكر كنّـا نتجولُ حـولَ زاوية البَحر المتَوسّـط، حيثُ تواجـه سـوريا تركية[2]. ثـم ولجنا متقدميـن باتجاه السلسـة الهائلة لجبال طوروس، وبدأنا بالتَّرنُّح ببطء شـديد في هذا الطريق وذاك على طول منحدراته الجنوبيَّة الصَّخْريَّة، وعلى طول منحدراته الشاهقة.

عنـد المسـاء كنا بعيديـن في أعلى الجبـال نزحفُ إلـى الأمام في الجانب الواسـع نحـوَ الطَّريـق الذي قَدمْنا منه، كان ثمّة حاجز صخري ضخم في الأسـفل عبرَ السَّـهل السّـاحليَ الكبير، يقسـم الجبالَ بحدة من الأرض المُنخفضَة في الخلف، ولكن كانت هنـاك فجـوة مربعة واضحةُ المعالم فيه شـقّ واسـع في السلسـلة الطَّويلة حفـره النهرُ المتدفـقُ خلالَها عبرَ العصـور، ويتَّجه بعيداً إلى النقْطَة الزرقاء، كانتْ تلكَ الفَجوةُ هي

(1) توارينا: استترنا. (القاموس المحيط، ص 1730).

(2) أقوم بإثبات اسم سوريا بألف ممدودة على اعتباره صيغة يونانيّة لاسم (آشور) الغربيّة. أما تركية فبتاء مربوطة على اعتبار أن لفظها الأصلي: Türkiye بتخفيف الياء دون شدّة، وإمالة التاء المربوطة.

البوّابات الكيليكيّة Cilician Gates، التي من خلالها عبرَ الإسكندر مع جيشه العظيم متَّجها إلى أنطاكية وأربيل وإلى الشرق. فيما وراءَ السَّهل إلى اليمين بعدَ الزّاويَة اليُمنى للبَحْر مباشَرةً في المكان الذي انعطفنا فيه منذُ ساعات مضَتْ وخلفَ المياه، استطعنا رؤيةَ الجبال السُّورية البعيدة مكَلَّلَةً بالثُّلوج، تَتَوَهَّجُ في الشَّمس السّاطعَة.

ثم انعطفَ القطارُ بعيداً عن السَّهل للمَرَّة الأخيرة، واختفى في قلب الجبال، وبدأَ يزيدُ من سرعته؛ لأننا وصلنا إلى قمة الجبل، ثم انطلقنا داخلَ وخارجَ أنفاق قصيرة جعلت ومضات الغَسَق[1] تَدْخُلُ وتَخْرُجُ، كنّا نلمحُ لمعانَ القمم الرماديَّة المُذْهلَة ترتفعُ فوقَنا حيناً وحيناً نرى وديانا عميقةً ونحْنُ نترنَّحُ على الحافَّة الضيّقَة، أو نختبئ مرة أخرى في عتمة قلب الجبل في سواد هادر[2].

هبطنا طوالَ تلك الليلة نحو الأسفل ـ وفي اليوم التالي تركتْ مناظرُ الوادي الجميلة في نفوسنا ذكرى لطيفة، فطوال الطريق كنّا نمرُّ به وقد مُلِئ زهراً كالزبد بلون أبيضَ وزهري، ومررْنا بجداولَ تتدفَّقُ على مجرى نقيّ من الصُّخُور، إلى أن انزَلقْنا بهدوء مرَّةً أخرى عندما تلاشى ضوءُ النَّهار، إلى التَّوقُف التّام على شواطئ البوسفور Bosphorus عند ضاية أُسكُدار Scutari.

قادنا توماس كوك Thomas Cook الملاّحُ بمعطف مطري خارجَ المحَطَّة بعدَ برهة إلى زوارقَ بخاريَّة صغيرة متفرقة لنعبرَ المياهَ، وكان الظلامُ الدامسُ قد خيَّمَ علينا، وما كان بإمكاننا في البدايَة رؤيةُ أيّ شيء من إسطنبول باستثناء بضعَة أضواء ساطعة، وتشابكت بعضُ المرتفَعات بالنُّجُوم، والتمع ضوءُ مصباح كهربائيّ واضح فوق رأس T. Cook وسَطَعَ في وجوهنا وأضاءَ المياهَ المتمايلة، سأل عندما رآنا نحَدّقُ إلى الأمام دون جَدوى: «هل تريدون رؤيةَ إسطنبول القديمة؟» ثم رفع ذراعاً طويلة وأطفأ المصْباحَ الكهربائي، فأصبحنا فجأةً في الظَّلام. ولكن استطعنا رؤيةَ الأرض، هناك هضبتان طويلتان ومرتفعتان التقتا أمامنا مباشرةً بصفّ من الأضْواء على مستوى الماء.

---

(1) الغسق: ظلمة أول الليل. (القاموس المحيط، ص 1181).
(2) الهادر: الساقط. (القاموس المحيط، ص 638).

قال توماس Thomas مشيراً إلى التلَّة على اليسار من الجسر: «إسطنبول القديمة». يظلل قمتَه سواد مقابلُ الزرقة الداكنة، والسماءُ منثورة بالنُّجوم المتلألئة، وامتَدَّتْ أرضُ الأحلام والخيال بما فيها من قباب محتشدَة ومآذنَ ومنارات شاهقة.

تابع مشيراً إلى الجسر: «القرنُ الذهبي، تجري المياهُ في أرضه هناك لمسافة طويلة بين المدينتين، القديمة والحديثة».

ارتطَمْنا بلطف مقابلَ منصة هبوط خشبيَّة، وبعدَ لحظة كنا نقف مرةً أخرى على قطعة من أوروبا. تجولنا لمدة يومين قربَ المساجد والسُّوق وقصر إسطنبول القديمة؛ ثم غادرت راحيل بقطار إلى كاليه Calais؛ تكررت العبارة التي قالتْها مجموعةُ التنقيب في الموقع «أراكم في لندن».

ركبتُ في ذاكَ المساء سفينةً إلى أثينا، و: «نراكم في سوريا» صاح ماك وزوجته، وهم يضحكان بين الحشد على رصيف الميناء، فهم سينقّبان قربَ حَلَب في الموسم القادم.

لَوَّحْتُ إلى أن غابا عن ناظري، ثم اتَّكأْتُ على الحاجز مسافرةً وحيدةً مرةً أخْرى، عندما أقلعَت السَّفينَةُ ببطء بمحاذاة المدينة القديمة السّاحرة. هناك في الأعلى، في قصر السلاطين شاهدتُ ثروتَهم الخرافيَّة وسجادَهم المزينَ باللآلئ والأحجار الكريمة من جميع الألوان، وتدلَّتْ أكبرُ زمردة في العالم بسلسلة رقيقة فوق تاج ملبّس بالجواهر، وغرفة بعد غرفة حيث كانت الجدرانُ والأعمدةُ مغطاةً بمجموعات من الخَزَف الصّينيّ التي لا تقدّرُ بثمن، وهناك مكتبُ قراءة ذهبيّ صغير لابن الحاكم المُبَجَّل الصَّغير، حيث كانت حتَّى سكّين فتح الرسائل من الذَّهَب الخالص انتهتْ في نهايتها بماسة متألقة.

تَجَوَّلْت هناك في الأعلى عبرَ الأفنية المرْصُوفَة وداخلَ مقاصير صغيرة مظللة بالأشجار، ومن هنا من السفينة استطعتُ الآن رؤيةَ الغرفة المضلَّعة الصَّغيرة، وهي في مكان مرتفع فوقَ الزاوية الشرقيَّة من الجدران القديمة، مكسوة في الداخل بقرميد

أزرق، وهـي تُسـمّى مقْصـورةُ بغداد، كان السُّـلطانُ يجلسُ فيهـا محدّقاً عبْـرَ نَوافذها الملتفـة قبالـةَ المياه نحوَ أراضيـه البعيدة. ووقفتُ هناك بنفسـي أنظرُ مـن فوق مضيق البوسفور باتجاه الجزء الآسيوي من تركية. عُدْتُ بذاكرتي إلى الوراء إلى تلك الرّحلة التـي مازالت ذكراها متوهجَةً وواضحةً فـي عقلي، وعدْتُ إلى بغدادَ البعيدة بذكريات محتشـدة لمشـاهدَ جمال جديدة وأماكنَ غريبة ولأسفار شاقَّة وتعب لا يُصدّق ولطاقَة تعودُ بسرعة بعد انقضاء اللحظات الصعبة.

اقترنْـت بذكريـات بغـدادَ ذكرياتُ رحلة أخرى كنت قد سـافرتُها في تلك الأشـهر السّـتَّة الأخيـرة، واحدة فيها معرفة أوسـعُ وخبرة أعمـق، ويحفز في الفضـول لمعرفَة المَزيـد أكثـرَ وأكثر؛ واعتقدت أنَّ ما أحمله معي من ثـراء المكان الذي كنْتُ فيه يعادل كلَّ الزمردات المتأرجحَة والسّجاد المرَّصع بالجواهر في العالم.

بداتْ مقدمةُ السَّفينة تشُقُّ طريقَها في المياه المظلمة بسرعة أكثرَ الآن. وبدأتْ حبالُ الأشرعة تدندنُ بفعل سرعة النسيم المُتصاعدَة، كنّا نخرجُ من وسط المَجْرى متجهين نحو بحر مرمَرَة، وتلاشَـت في الحال الجدرانُ الحالمةُ والقبابُ والمناراتُ بعيداً، لقد غرقـتْ في غيمة الضباب وراءَ التّلال المظلمة، التفـتُّ إلى الجَنوب الغَربيّ لأنظرَ إلى الإمام، سَـنعبرُ في خلال سـاعات إلـى مكان بعيد، إلى مضائق بحـر إيجة في الجنوب حيث تقع جزيرة كريت.

وصلـتُ أثينـا في الصبـاح التالي، ووجـدْتُ روزاليـن Roslaeen تنتظرني في أحد الفنـادق، كانت ذاهبةً إلى كريت أيضاً. وقد كانت في العَمارنة السَّـنةَ الماضيَة تسـاعدُ في العَمل، وكانت مساعدتُها تتّخذ أشكالاً متعددة، فكانت تنظفُ الآثارَ القديمةَ لفترة هنا، أو كانت ترمّمُ وعاءً فخارياً هناك.

* * *


Kurdistan
Nisibin
Ain Sifni
Jerwan
Khorsabad
Khosr R.
Mosul
Nineveh
Nimrud
Greater Zab R.
Arbil
Shergat
Assur
Lesser Zab R.
Kirkuk
SYRIA
IRAN
ELAM
Tigris R.
Dyala R.
Euphrates R.
Tell Asmar
Eshnunna
Baghdad
Khafaje
AKKAD
Jemdet Nasr
Babylon
Kish
Kut
IRAQ
SUMER
Uruk
Ur
Al'Ubaid
Basra
Persian Gulf
Stamboul
Black Sea
Caspian Sea
Ankara
highland country
Taurus Mts.
Mediterranean Sea
CYPRUS
Aleppo
Mosul
Euphrates R.
Tigris R.
Damascus
Baghdad
desert
Jerusalem
Cairo
Tell el Amarna
Red Sea
The NEAR EAST the shaded part being the Fertile Crescent between mountain & desert.
Scale in Miles :
100 0 100 200 300
Persian Gulf
N
1956
Ancient names in Italics e.g.: SUMER Assur
Scale in Miles :
20 10 0 20 40 60 80 100

الفصل العاشر

تقـع كنوسـوس Knossos، قصرُ الملك مينـوس Minos، على مسـافة ثلاثة أميال داخـلَ كانديـا Candia، عاصمة جزيرة كريت. على أحد جانبـي الطريق العام الجديد الذي يقطع الجزيرةَ شمالاً وجنوباً عبرَ الجزيرة، ويلي طريقَ التجارة القديم نحو الميناء الأقرب إلى السـاحل المصري، انتشـرت بقايا القصر على قمة هضبة منخفضة بشكل واسـع، وتشـكلتْ الهضبةُ من قصور قديمـة منهارة توجد تحتها مسـتوطناتُ العصور المينويّة البكرة والعصر الحجري الحديث، التي تعودُ لأكثرَ من 1000 سنة قبل التاريخ الذي حكمُ فيه الملكُ الغريب المعروف باسم مينوس Minos، بحوالي 1400 ق. م.

بدت الهضبةُ أصغرَ بسـبب الجبال الهائلة التي تُشـرف علـى الوادي الجميل حيث يقعُ قصر كنوسوس Knossos. وامتدت ڤيلاّ آرياندا Villa Arianda، المنزل الكريتي للسّير آرثر إيڤنز Sir Arthur Evans، على جانب الهضبة في الطرف الآخر من الطريق، مخبأة بين الأشـجار؛ وفي ذلك اليوم الربيعي من شهر أبريل، عندما جئْتُ مع روزالين مـن البحـر كان الجـوُّ يعبق برذاذ معطر دافـئ عظيم وأجمات بأزهـار غنية برحيق زهر العسـل التي تتناثر علـى المنصَّة والدرجات والطـرق، وبدا الطريـقُ الملتوي الأبيضُ المغبـرُ الآتـي من الميناء كما لو أنه جُهّز لموكب ملكيَ، فالضفافُ المزهرةُ احتشـدتْ بكثافة على حافات الحدائق وعلى حجارة الجدران المنخفضة وراءها، مرغريتا صفراءُ ساحرة، ومنثور بريّ قرمزيَ، وأضاليا برية، وشقائق النعمان، وورود صخرية.

كان السيد آرثر إيڤَنز[1] Arthur Evans في إنكلترا في ذلكَ الوقت وجون حالياً المسؤول

---

(1) السّير آرثر جون إيڤَنز (1851-1941) عالم آثار بريطاني اشتهر بكشف قصر كنوسوس في كريت، وبدراسة الحضارة المينويّة فيها. وذكرنا آنفاً أنه كان عيّن جون پِندِلبُري محافظاً لموقع

الوحيد بصفته أمين متحف فقد أنهى لتوّه التنقيبَ في ضريح ملكيّ قرب القصر.

عندما استقرّينا في الأسفل وسردنا مغامراتنا سأل قائلاً: «متى سيكون سِتون هنا؟» كانت الأرضُ ما تزال تهتزُّ قليلاً تحت الأقدام.

قلت: «كان يأملُ أن يلحَقَ بنا خلالَ أسبوع، ولكن عندما أخبرنا مؤخراً كان متجهاً نحو بلاد فارس. يعتمد ذلك كلُّه على كمية الماء التي وجدها سِنَّحْريب Sennacherib في نهر غومِل Gomel ـ فإنَّ لم يجد ما يكفي فربما لن نرى سِتون مرَّة أخرى، إذ أنه سيواصلُ البحثَ فحسب، ويواصلُ ويواصلُ في الجبال».

اقترح جون بلطف بأن أفسّرَ الذي كنتُ أتحدثُ عنه؛ لذا أخبرتُهم عن القناة.

قال: «إذاً سيعطيك هذا أسبوعاً لتتعرفي على القصر قليلاً، سننتظره قبل أن نبدأَ السير. أريد أن أسيرَ شرقاً، سيراً لطيفاً جداً»، أضافَ لفائدة روزالين، التي لم تكن واثقةً بمقدرتها على السير، ولكنها كانت تريد محاولةَ أيّ شيء ولو لمرة».

كنا قد حظَينا بلمحات على هضبة القصر الآن، فهو يمْتَدُّ قليلاً وراء ڤيلاّ آرياندا Villa Arianda، أسفلَ الطريق قليلاً، صُوّن بأيكة من الأشجار. وبقيت معتقدةً أنَّ مدَّةَ أسبوع زمن طويل لمعرفة القصر قليلاً. ذلك عندما انحدرْنا إلى الأسفل خارج الطَّريق في الصَّباح التّالي، ومن ثم درنا حولَ أشجار لها عطر كعطر التوابل، تحملها الرّيحُ الجنوبيَّةُ الدافئة إلى المنطقة الواسعة الفارغة المفتوحة لأشعة الشَّمس على قمة الرابيَّة. ولكنْ رغمَ أنَّ قصرَ كنوسوس Knosso كان أجزاءً متناثرةً فهو ما زال يخفي آلافَ الأسرار، ولاحظتُ في الحال أنَّه في خلال أسبوع يمكنُ لشخص أن يبدأَ باستيعاب الخطة الواسعة المعقدة لبنائه الأخير، بعيداً عن التراكيب القديمة، أو يميّزَ التفاصيلَ العديدةَ التي زودت آرثر إيڤنز بالدليل لكلّ الترميمات التي نفذها.

إنَّ أوَّل شيء جعلنا جون نراه في البداية كانت العلاماتُ للطخ الدخان الصاعد على أول جدار غربي طويل قدمنا إليه، والعلامات حيث وجدت دعامة محترقة من

القصر الأثري في عام 1929، أي قبل فترة صغيرة من هذه الوقائع التي ترويها ماري تشَب.

المفترض أنَّها وقعت على الأرض من السقف واستقرت متوهجةً عند الجدار.

قال: «لقد تدمَّر القصرُ في النّهاية بشكل كامل بسبب الحريق، حوالي 1400 ق. م. وعلى الأرجح أواخرُ أبريل».

سألتْ روزالين باندهاش: «ولكن كيف بإمكانك إخبارُ الوقت من السنَة التي حدثَ فيها هذا».

قال: «أو ربما في بداية شهر مايو، استشعري الريحَ الآن، كانتْ تعصفُ بشدة إلى أعلى الوادي من الجنوب في هذا الوقت تماماً من السنة من ذاك الاتجاه فقط، انظري إلى هذا الجدار إنَّه أبيضُ ونظيف تماماً إلى الجنوب من العارضة؛ وقد امتدت عليه جميعُ علامات الحريق من جهة الشمال».

سألْنا عن دمار القصر، فشرحَ كيف وبالتدريج أصبحَ ملوكُ البحر العظماء في كريت، في زمن ما قد يكون بعد 200 ق. م، أقوياء جداً، وحكَموا الجزءَ الرئيسَ من بلاد الإغريق. كانت تجارتُهم التي تتمّ بشكل خاص مع مصر، قد أوصلتْهم للسّيادَة في شرق البحر المتوسط، والحقيقةُ في كون القصر قد تُرك دونَ أيّ نظام للتحصين يظهرُ كَمْ كانَ سكّان كريت يشعرون بأمان في قوتهم البحرية. ومع تسارع السنوات من حضارتهم الرفيعة والجميلة لاح لهم خطر من جهات أشخاص جدد، إنَّه خطر لم يكنْ معروفاً لهم في البداية، جاءَ من الشمال والشرق، من مغامرين ومستطلعين كانوا ينحدرونَ نحو الأسفل إلى البرّ الرئيس من اليونان وآسية الصغرى من الأراضي الممتدة في الخلف، إلى أن وصلوا إلى السَّواحل وأعجبهم البحرُ الهائلُ في الجنوب. لقد تسلل الدّوريّون Dorians إلى الجزر الإيجيّة، وعندما نَمتْ قوتُهم ووجدوا الإمكانيةَ لتنظيم تلك القوة وتعلموا ركوبَ الأمواج، وقتها بدأ العدُّ التنازلي لمجد كريت، ففي وقت يقارب عام 1400 ق. م في الربيع الأخير (الذي هو تاريخُ السنة الذي وردَ في الأسطورة أن ثيسيوس Theseus ـ بدأ رحلةً من – أثينا ـ لذبح وحش المينوطور Minotaur) كانت النهايةُ ناراً وطوفاناً، ليس فقط لكنوسوس Knossos الفخورة، ولكن أيضاً لكثير من المدن السّاحرة على امتداد الجزيرة.

قال جون: إنَّه يعتقد أنك استطعتَ أن تجدَ الأصلَ لصدق قصة ثيسيوس الذي جاء لينقذَ الشبابَ النبلاء والعذراوات الذين يُرسلون عبرَ البحر كلَّ سنة من أثينا كجزية مروّعة للوحش المينوطور Minotaur المفترس، ثور جزيرة مينوس.

وهي رواية معروفة حتى أنَّ كلَّ طفل يعرف كيف حطّمَ البطلُ الشابُ وحشَ المينوطور Minotaur بمساعدة صديقته آريانده Ariadne؛ فهي أعطتْهُ خيطاً قرمزياً أخرجه بأمان من المتاهة المظلمة للملجأ.

قال: «أنت تعلمينَ عن رياضة مواثبة الثور الكريتية، أليس كذلك؟ كان الشبابُ ذكوراً وإناثاً يقفونَ في الميدان بينما الثورُ يقدم عليهم؛ وعندما يُخفض قرونَه لينطحهم يمسكون بها ويتعلقون بها بشدة، وإذا ارتفع رأسُه يهبطون بسرعة بشقلبة ارتجاعيَّة على أطراف أقدامهم فوقَ ظهره؛ ثم يقفزون إلى الأرض، إنَّها مشقَّة وخطر رهيب، ولا بُدَّ أنَّه قد حدث من جرّاء هذه الرياضة كوارثُ كثيرة. خطرتْ لي فكرة وهي أنَّ الشبابَ والعذراوات جاؤوا طوعاً للتنافس في ألعاب سنوية؛ والحقيقة هي أنَّ الكثيرَ من الرّجال الشباب نخبة شباب الأرض الرئيسة، لم يكنْ بإمكانهم أبداً أن ينجوا من الألعاب ليصبحوا جنوداً أو قادة، وإلا لكانوا ساسوا كريت بشكل ممتاز. أعتقد أنه من الطبيعي جداً، في تناقل القصة القديمة عن النَّصر الكبير على كريت من جيل إلى جيل أن تُجمعَ معها حكاياتٌ شعبية مزوقة أينما ذهبت؛ لأنَّ الفكرةَ الخرافيةَ عن ملك الأرض القويّ تندمجُ مع الذكرى الضَّعيفة للثَّور الضاري الذي أهلكَ شبابَهم، وسيظل البطلُ الأسطوريُّ ثيسيوس Theseus يرمزُ لهم عن مواجهة أسلافهم العظيمة في نهوضهم جميعاً ضدَّ كريت وتركهم إياها تلتهبُّ تحتَ النيران.

كان موضوعُ الثَّور في كلِّ مكان، فعندما درنا حولَ زاوية الجدار وبدأنا صعودَ مجموعة من درجات مسطحة إلى داخل رواق جميل، رأينا الحواجزَ قد زُيّنتْ بقرون ثور نُقشَتْ على الحجر، وعلى الجدار الداخلي للرواق كان هناك إفريز ملون ـ سلسلة من رجال شباب بالحجم الطبيعي بتنانير اسكتلندية، يحملون مزهريات بأشكال مختلفة. أكتافُهم عريضة وخصورُهم نحيلة وعلى رؤوسهم شعر متموج أطلق إلى

الخلف وقد أُدخلَت فيه سلاسل. وعلى ذلك فأنا اعتقد أن هام سيكون كريتياً ممتازاً.

تابع جون: «يمكن أن يكونَ الملكُ مينوس Minos قد تقلّد تاجاً عليه قرونُ ثور، وفي حال حصل هذا فسيكون سبباً إضافياً لأسطورة وحش متوّج مروّع.. فكروا بمحارب يوناني شاب ينتضي سيفاً مسلولاً يندفع عبرَ ممرات مملوءة بالدخان كي يجدَه في فسحة شكلاً ضخماً له قرون جاثماً في قاعة العرش المظلمة».

سألت: «هل تعلم أينَ كانت قاعةُ العرش؟».

أجابَ قائلاً: «تعالي»، تقدَّمنا نهرولُ تقريباً، وكما علمنا من خبرتنا في مصرَ أنَّها كانت الطريقةَ الطبيعيةَ لاستيعاب علم الآثار بصحبة جون.

اندفعنا شمالَ الرواق المعمّد في متاهة من دهاليزَ مظلمة وأفنية وغرف، وأصبحنا متحيّرين تماماً كلما شقَّ جون هذا الطريق أو ذاك عبرَ بوابات قديمة وفوق كتل حجرية وعند فسحات ضوئية بعضُها كان تحتَ الأرض.

قال: «سأعطيك المخطَّطَ كي تحضريه معك في المرَّة القادمة عندما يكون لديك خطة واضحة فسيكون هذا أسهلَ بكثير لتتبعها، هذا فضلاً عن الشرح».

عبَرْنا من فناء كبير مفتوح إلى غرفة صغيرة ظليلة مفتوحة بمدخل على الجانب البعيد على غرفَة كانت أكثرَ ظلمةً منها.

قال جون: «هذه حجرةُ الانتظار لقاعة العرش»؛ وعلى الرغم من أنَّه تكلَّمَ بشكل مستو فإنّ صوتَه كان يحملُ بعضَ الحماس، كما لو أنه كان كلما دخل إلى هذا المكان يسمعُ جلبةً بعيدةً ضعيفةً لصوت صليل سيف مع نصل خنجر أو صوت فرقعة لهب.

اجتزنا الغرفةَ ومررْنا بالمَدخل الضيّق خلفها، لم يكنْ به حاجة ليقولَ أيَّ شيء، فقد انتصبَ مقعدٌ حجري مقابلَ الجدار اليميني بمسند عال مقوّس، إنَّه عرشُ الملك مينوس Minos.

قال جون بهدوء: «ينتصبُ هنا تماماً كما وُضع بالأصل، وكان هناك أوانٍ ملقاة

بقربه على الأرض وجرَّةُ زيت مقلوبة».

بدا المشهد وكأنه يتضح خارجاً من الظلال عندما وقفنا هناك، هنا في هذا المدخل الضيق في يوم كهذا من شمس وريح قبلَ أكثرَ من 3000 سنة مضت، ربما وقفَ زعيم إغريقيّ شاب حذر يلهث قليلاً مستعداً بسيفه القصير القرمزيّ، فقدَ توازنَه للحظة بحذر قبل انتقاله إلى قتل الشخص المغرور اليائس الذي يلوح فوق العرش.

ومرَّةً أخرى في الشمس، قادَنا جون إلى غرفة في الأعلى، حيث وُجدت نسُخ من لوحات جصيَّة في أماكنَ مختلفة منَ القصر علّقت هناك خلف زجاج. وقد حُفظتْ النُّسُخ الأصليَّةُ بأمان في متحف بمدينة كانديا Candia. كانت هناك صورة جصيَّة ساحرة لثور واثب، هجمَ الحيوانُ الهائلُ بقفزة كاملة وتشبَّثَ لاعب رياضيّ بقرونه، ومازالَ على مايُرامُ ينهضُ من الأرض في اندفاعه الأوَّل إلى الأعلى، وآخر تَتَدَلَّى خُصْلاتُ شعره وهي تلتَّفُ على ظهر الثَّور، وثالث انتصبَ ويداه ممدودتان للإمساك بيَدي زميله وهو ينزل على الأرض.

هنا أيضاً كانتْ صور لجماهيرَ تشاهدُ الألعاب إنَّها كتل من وجوه صغيرة وأشخاص رُسموا بخطّ أسودَ على طبقة بألوان مختلفة، أسودَ وأحمرَ لفريق رجال ورقع بيضاءَ للنّساء، اللاتي جلسْنَ يُثَرْثرنَ بتلهّف بأثواب فضفاضة جميلة وعقصات شعر متموجة على نمط العَصر الفيكتوريّ الأوَّل.

اجتزنا المكانَ إلى أن وقفنا على الحّافَّة الشَّرقيَّة للرّابيَّة، وهُنا تنحدرُ الآرضُ بشدة في شريط طويل أخضرَ مستوٍ، وعلى الجانب الآخر البعيد تلألأُ نهر صغير مارّ بين الأشجار، ووراء ذلك ارتفعت الأرضُ بشكل حادّ فوقنا في مجال صخْريّ رماديّ مخْضَرّ.

قال جون: «نعتقدُ أنَّ أحداثَ الثور الواثب وقعَتْ هناك في الأسفَل تماما، إنَّه مكان مثاليّ للحَلَبَة، فهي القطعةُ المستَويَّةُ الوحيدةُ من الأرْض في المَنطقَة».

أسفل منا تماماً ربما على مقاعدَ تستندُ إلى الجدار الشَّرقيّ للقصر، وهناك بالمقابل،

علـى طـول حافة النهـر ربَّما في يوم مـن الأيام جلَـسَ الكريتيون السُّـمْرُ النحيلون مع نسـائهم الحَسْـناوات بشَـعرهنَّ المَعقـوص وتنانيرهنَّ المُزيَّنَـة يملأْنَ الجَّـو بثرثرتهنَّ وأصـوات ضحكاتهنَّ، ثمَّ ينقلـب الصَّخَبُ فجأةً إلى صَمت متوتّـر عندما رَكضَ أحدُ اللاعبيْنَ خارجا ليأخُذَ مكانَهُ في الحَلَبَة، هناك شـخص وحيد، هناك على العشـب في الأسفل، وفي الحال كسَرَ الصمتَ صوتُ حوافرَ سريعة، جاءَ ثور أحمرُ بسُمرة مصفرَّة مقابلَ العشـب، رأسُه إلى الأسفل، قَدمَ مباشرةً نحو شـاب رشيق القوام، ينحني الفتى إلى الأمام الآن، ويداه مسـتعدتان، ثبَّتْهما استعداداً للصدمة؛ فالمَوتُ محتَّم لو انزلقَت القـرونُ الهائلـةُ أبعدَ من يديـه، ثم تنفَجرُ في الهَـواء صرخَة مدَويَّة من الحَشْـد، إنَّه في الأعلـى، رجع إلى الخَلف بسَـبب الهجْمَة المجْنُونَة، ولكنَّهُ أطبـقَ على القرون بيديه، وتأرْجَحَ برشاقَة للحظة بينهما؛ وتَحَرَّكَ الرأسُ الهائلُ إلى الأعلى ليتخلَّصَ من العبْء الشَّـيطانيّ بهيـاج وفمُهُ يخور. طارَت السّـاقان النحيلتان إلى الأعلى، ثـم توازن الفتَى للحْظـة على يديه؛ ثمَّ غاصَتْ قدماه فوق رأسـه، وطـرحَ القُرونَ بعيداً بـازدراء وراءَه، لينهَضَ منتَصباً للَحظَة على الظَّهر الواسع ثمَّ ليتَخَطَّى الذَّيلَ إلى الأرض. امتزجَ صُراخُ الجُمهور المُهتاج مع الرُّعْب ثمَّ رقَّ إلى اسْتحْسان دافئ وضحك وتصفيق باليَد.

مضى الأسـبوعُ بسُرعَة، وعُدْنا مرَّةً إثرَ مرَّة إلى القَصْر، يجْذبنا إليه غموضُه المعقد؛ وبـدا كمـا لو أنه يزدادُ كبراً كلَّ مرة نـراه عمّا كان عليه من قبل، إلى أن بدأنا أخيراً نُدْركُ الزَّوايا والمُنعَطَفات للممرّات المُظَلَّلَة، ونعلمُ أنَّ تلكَ الرَّدْهَةُ المعمّدةَ في الخارج تقودُ إلى رَدْهَة أخْرى مُزخرفَة بنسْخَة مُطابقَة لتُرُوس ضَخمة مصْنوعة منَ جلد الثَّور عُلِّقَتْ ذاتَ مـرَّة فـي الماضي هنا؛ وهنـاك، يوجَدُ باب يمكنُ أنْ يَنفَتحَ إلـى دهليْز ضَيّق يؤدي إلى غرَف الملكة، وفي الغرفَة المفتوحَة للهَواء الطَّلْق هنا، حيثُ جَلَسَـت المَلكةُ ذاتَ مرَّة مع وصيفاتها كانت الجُدرانُ فيها مزيَّنَةً بدلافينَ مرحَة وأسماك وقناديلَ بحر.

فـي قصر كنوسـوس Knossos لا يمكنك أن تنسـى لمدة طويلة أنـك قربَ البحر، فليسَ بعيداً عن تلك الغرفة توجدُ أجمَلُ مزيَّة في القَصْر كله، إذْ ترتفعُ درجات ضخمة ضحلـة حـولَ جوانبَ ردهـة ضَوء عميقة في سـاحة القَصْـر المَركزيَّـة المَفتُوحَة. إنَّها

ليسَـتْ سـاحرة فقط بسـبب شيء سـاحر تمَّ بناؤهُ بجمال شـديد في تاريخ مُبكر كهذا، ولكنْ للمَهارَة السّـاحرة التي صانَها بها السّير آرثر إيڤَنز Sir Arthur Evans، فقَدْ حُفرَ في الأسْفَل عبْرَ الأنقاض المُنهارَة؛ لأنَّه كانَ من الواجب عليه تقويَةُ كلّ درجة أو إعادةُ بنائها بالإسمنت قبل أنْ يستطيعَ تفريغَ الأرض الدّاعمَة تحتها.

وجدْنـا في بعـض الأوقات طريقَنا حـولَ القَصر في ضَوء القَمر، لقـد كان غريباً أن نتنقلَ وحدَنا في دهاليزَ مخيفة عَبْرَ نَهر فضيّ مخطط بظلال مائلة لأعمدة مفتوحَة نحو قاعة غامضَة، ربَّما فيها لمحات لتلة مقمرة تقعُ خلفَ مدخل باب أسودَ بدا وكأنَّه إطار لهـا. كانَ مـن الممكن أنْ يروّعَني أيُّ صوت لوقـع أقدام قريب أو لأصوات منخفضة. وعندمـا أتلمسُ طريقي حولَ زاوية لأدخلَ إلى مقصورة الملكة فأجد هيلدا وروزالين تتمتمان في أشعة ضوء القَمَر المائلَة، لم أجد السيدات بتنانير من قماش مقوّى اللواتي كنـتُ أتوقـعُ رؤيتَهـن في الخَلف يصعـدنَ الدرجَ الرئيـسَ بصمت داخـلَ وخارجَ نور القمر، ولم أرَ شـبحَ ضابط كريتي شـاب مـن الحرس في جولاته الليليَّـة، ولكنَّ الذي رأيتُـه كان جون النحيل في ثيابه المَصنوعة من قماش الفانيلا البيضاء يتسَـلَّلُ برفق في حنايا قصره الحبيب الذي باتَتْ حراستُه تحتَ رعايَته التامَّة الآن، وأثناءَ ذلك كلّه كانتْ العَنادلُ تمْلأ الجَّو الدافئَ بعذوبَة لا تنتهي.

نظّمنا حملات قصيرةً بالسَّيارة عَبْرَ الجَزيرَة وعلى طول السّاحل نحْوَ الغَرب، نسبحُ ونتنزهُ ونسترخي ونتأملُ المَواقعَ الأخرى الجميلةَ التي تبعَثُ الحيْرة والتي تنتشر تحت الأشْـجار المُعَطَّرَة برائحَـة الصَّنَوبَر. واحدة منها كانت تيليسّـوس Tylissos تقعُ على السّاحل الشَّماليّ؛ ولكن كلُّ ما أذكره عنها هو أنه وُلد في القرية المجاورَة رجل يُسمّى دومينيكـو ثيوتوكوپولي Domenico Theotokopuli الذي لم يُدْعَ أبَداً بأيّ اسـم آخر بسوى كنيته التي هي: إلغريكو[1] El Greco (الإغريقي).

---

(1) اسمه باليونانيّة: دومينيكوس ثيوتوكوپولوس (1541-1614) Δομήνικος Θεοτοκόπουλος رسّام ونحّات ومعماري شهير في عصر النهضة الإسپانية. ولد في جزيرة كريت التي كانت في ذلك الحين تابعة لجمهورية البندقيّة (ڤينيسيا)، التي رحل إليها في سن 26 كغيره من الفنانين اليونان، ثم توجه عام 1570 إلى روما وبعدها في 1577 إلى طليطلة بإسپانيا، حيث عاش وعمل

كنا نَلعَبُ في بعض الأحيان مع داڤيد، وكانَ اللعبُ معه يَتَضمَّنُ بشكل كبير أنْ يربطَ شخصاً ويجُرّه داڤيد بسرعة كبيرة حولَ الحَديقة أكثرَ فأكثرَ في الحَقل. فينهض اثنان على أن يكونا نشيطين جداً. ومن يعرف ماذا؟ كان داڤيد دائماً هو الذي يسحبُ بقوة من الطرف الأماميّ اللّجام الذي ربَطَ الشَّخصَ الآخَر في نهايته، وهو شكل مهمّ من أشكال التَّحكُم عن بُعد، وكان قد اكتَشَفَ داڤيد مؤخراً كما اكتشفَ أبوه من قبل أنك تستطيعُ رؤيةَ الكثير من الحياة إذا تابعتَ المسيرَ إلى الأمام.

بعدَ عشرة أيّام وقت الإفطار قال جون: «من الواضح أن سِنَّحْريب Sennacherib لمْ يجدْ ماءً كافياً في نهر غومِل Gomel. دعونا نبدأ».

لذا ذهبتْ هيلدا لتنظمَ مؤنَ الطَّعام، وجون ليُرَتِّبَ مجيءَ رجل وبغل معنا؛ وداڤيد، يشدُّ الرَّسَنَ، فشَدَّني أنا وروزالين Roslaeen تدريْباً على ذلك.

قالت: «أتمنى لو أستطيعُ ركوبَ البغْل، فأنا أعافُ المشي حقيقةً، وكل ما أستطيعُ عمله هو أن أحاولَ مجاراةَ هذا الطفل، لماذا لا نستطيعُ الرُّكوبَ؟».

قلت من الممكن أنْ يكونَ جون خائفاً. كانتْ متعةُ السَّفر كلّها بالنسبَة له في اليونان هي أن يقطعَ الأميالَ على قدمَيه. وأضفتُ: «ونهايةُ كلّ يوم تصلحُ كلَّ شيء». ظنّتْ روزالين أنَّها ليست طريقةً سعيدةً للتعبير عن ذلك، فقال جون: عندما اجتمَعْنا عنْدَ بوابَة الحديقَة في الصَّباح التّالي: «لا يعتقدُ داڤيد أنه سوف يأتي، أخبرته أننا كنا سنسيرُ بتمهل فقط، وهو في الواقع في تدريب صارم حتى الآن».

قالت هيلدا وهي تنظر بعاطفَة جيّاشَة إلى ابنها الذي استخدمَتْه في أعمال اليوم الجّادَة: «أتمنى لو كان ابني يستطيعُ القدوم» ـ لعلَّنا سنكون بعيدين عنه مدَّة عشْرة أيّام.

لوّحنا له ولممرضته، فنظر إلينا للحظة بكآبة من تحت قبعَة قش مستديرة؛ ثم ابتسمَ

حتى وفاته. كان إل غريكو لقباً له بالإسپانية دلالة على موطنه الأصلي، لكنه كان يوقّع أعماله باسمه الأصلي وبحروف يونانيّة.

ابتسامَةً مشْرقَةً مفاجِئَةً لفكرة جيدة خطرت له، وهي أن يسيرَ مجدداً، فلوَّحَ بشدة مجيباً على تلويحنا له، ثم استدارَ، وذهب بعيداً عَبْرَ الحديقَة والمُمَرّضَةُ تقفزُ وراءَه.

قال جون: «لم أرَ منظراً خلفياً حيوياً كهذا قط». وانطلقنا ضاحكين إلى الطَّريق الذي يمرُّ أمامَ القَصر يتقدمُنا البغلُ بحمولته من العلب وأكياس النوم والمعاطف، يقودُهُ رجُل أخرقُ من كريت برونزي اللون يُدعَى آليكو Aleko، وتركْنا الطَّريقَ العّام بعد القصر بقليل وقطَعنا الوادي على جسر قديم، وشَقَقْنا طريقَنا مدةَ عشرة أيّام تالية شرقاً على طريق البغال عبرَ قلب الجزيرَة الخالي من الطرق.

لقد بدت الجزيرة أكثرَ فراغاً ووحشةً من البرّ الرئيس، فلم نرَ شخصا خارجَ القرى الصغيرة المنعزلة، وعلى الرَّغْم من أنَّ الوديانَ قدْ سُوّيَت بالكامل فإنه ما زال هناك حقول صخْرّيَة تعْلو إلى أقصى حدّ يمكنُ أن تبقى الصُّخورُ فيه معلقةً على جوانب الجبل المنْحَدرَة بشّدة.

عاودني الإيقاعُ الجميلُ الذي أذكره عن السنة الماضية والتمدداتُ الحلوةُ المنعشةُ على طول الجداول أسفلَ شجرات الزيتون والصفصاف والبتولا؛ ثم الجرّ المؤلم على طريق حجَريّ جانبَ تلَّة ضخمة مغطاة بأغصان منخفضة، حيث تشتدّ رائحةُ الجولق والزعتر البري في حرارة الشَّمس؛ ونرى بينَ حين وآخر لمحات للبحر السديمي امتدَّت عَبْرَ منحَدَر في التلال؛ ثم تَعودُ لتهبطَ في الوادي مرَّةً أخرى، وربما مع مشهد واسع بعيد في الأُفُق البَعيد مقابله لقرية صغيرة نسيرُ باتجاهها.

أخبرتني روزالين بعد ذلك أنَّ اليومَ الأوَّلَ كادَ أن يقتلها، وبعد اجتياز المَيل الأوَّل أو الثّاني أصْبَحَت مشْبَعَةً بالحزن من احتمال وقوعها على الحجارة الحادَّة وقتَ وصُولنا النّهاية الشرقية لكريت. كُنتُ عندَ المَساء متعَبَةً جداً لدى صعودنا المنحدر الأخير باتجاه قرية تقع على كتف تلة ضَخمَة، حيثُ اعتقَدَ كلّ من هيلدا وجون أنَّنا يُمكنُ أنْ نُخيّمَ في الليل، وكنْت قد تدرَّبْتُ جيداً بعد السير الطَّويل في خُرساباد. بدأتُ أشعرُ بقلق عليها.

سأل جون رئيس العمال في قرية سكوتينو Skotino إن كان بإمكاننا النومُ على

أرض بيـدر يمتلكهـا، وهـي عبارة عـن دوائرَ كبيرة مـن أرض مُسَـطَّحَة محاطة بجدار صخريّ منخفض تنتشـرُ في كريت واليونان. وقد واكَبنا رئيسُ العمّال إلى مسـافة أبعدَ من القرية متبوعاً بجميع السُّكان. لمْ تكن هذه البيادر مغرية كغرفة نوم ولكنْ في البلاد حيثُ تلتَّفُ الأفاعي خلالَ الشُّـجيرات والعُشـب الطَّريّ وأشْـياءَ أسـوأ من ذلك بكثير تظْهَرُ في مُعظم البُيوت فتكوّن بيادر.

البيادر هي المكانُ المطلوب.

تمدّدنـا لنرتـاح، ووضعنا المعاطفَ تحت رؤوسـنا، كنّا نتفحَّصُ التّـلالَ التي تمتَدُّ حتَّى البَحر الحَريريّ البَعيد، والتي أصبحتْ ذهبيَّةً تحتَ أشعة شمس الغروب.

قالت روزالين: «لا أكاد أصَّدّقُ أنّي توقفتُ عن السَّـير، لا أعتَقدُ أنَّي سـأكونُ قادرةً على الانطلاق مرَّةً أخرى».

بدأنا بتحضير وجبة المَسـاء، فأحضَرَ القرويون خبـزاً وزيتوناً وجبناً وبرتقالاً جيداً، وقمنا بتسـخين حسـاء فوقَ موقد صغيـر وفتَحنا معلّبات، ثم جـاء الزعيمُ يحملُ بفخر قارورةً جميلة من خمر محليّ..

تحلَّـقَ القرويون حولَ الجـدار المُنخفض للبيدَر في صفوف ثلاثـة، يقفُ الأطفالُ فـي الصَّفّ الأوَّل منها، لم يتكلمُوا ولكنْ حدّقوا فقط، فقدْ كان ذلك أكثرَ شـيء جلب لهـم المتعةَ منذُ سـنوات، وربَّما فـي حياتهم كلّها. تناولنا الطَّعام وشـربنا الخَمر ببطء، حتى خيَّمَ الظَّلامُ؛ وهم لا يزالونَ واقفين هناك، بدأت النُّجومُ تَخرقُ السَّماءَ الأرجوانيَّةَ العاليَةَ، وتَسـلَّقَ القمرُ المُتضاءلُ فوقَ التّلال الشَّـرقيَّة، وفجأةً حصل شيء ما لروزالين فقد فعلَ السّـحرُ فعلَه من الخمـر الكريتي، فتبدَّد عنها الشَّـكُ والتَعبُ لإدراكها المتعةَ المُطلقَةَ في الوصول إلى مكان جميل بعدَ مجهود يوم شاق.

قالتْ ضاحكةً بسعادة: «هذا أكثرُ مكان مثالي، وأكثرُ مساء مثالي، وأكثر بيدَر مثالي، عرفتُهـا في حياتـي» وضحكوا كلُّهم كما ضحكَ القرويون أيضاً، ثم تركونا وانسـحبوا بعيداً إلى منازلهم.

لا أستطيعُ القولَ أنَّها أفضلُ ليلة أمضيتُها في حياتي، كانت الأرضُ قاسيةً بشكل قاتل، وفي منتصَف الليل تذكرتُ الأيامَ عندما كنت أرْقُبُ الكشافةَ الصبيانَ، فوجدت سكيناً في حقيبتي، فقمت لتوّي بحفر حفرَة في الأرض كما يفعلُ الكشّافةُ الماهرون فيجهزون الأرضَ لتناسَب أوراكَهم في المخيمات، وقد أحسَسْتُ بفرق كبير فملأتْ شرقَ كريت بسلسلة منَ الحُفر في الأجران، وتأملْتُ ألا أكونَ قدْ خرَّبْتُ للقرويين المحتارين بأمر تلكَ الحُفَر موسمَ الحصاد لتلكَ السَّنَة.

ثم تابَعْنا السَّيرَ عبْرَ الأرض المسحورة؛ كانت روزالين تضعفُ كلَّ يوم قربَ فترة الظهيرة، ولكنها تنتعشُ في الحال بعد كأس من خمر كريتي مع تناول طعام الغداء لتذهبَ إلى البحر في فترة بعد الظهيرة والمساء على أطراف أصابعها، وتقولُ في أوقات الرّاحة بأنَّ المشيَ كانَ مدهشاً حقاً، لماذا لم يخبرْها أحد عنه من قبل؟

بعدَ واحدة من استراحات الظَّهيرة تلك ذهبَ جون مع قروي قال إنَّه باستطاعته أن يريَه القليلَ من أحجار قديمة جداً ليست بعيداً جداً في حقل ما ـ وذلك لأَّن كلَّ السَّير الذي قام به جون كانَ لهُ فيه هدف ضمنيّ؛ فهو يجمَعُ مادةً لكتاب شامل عن جميع المواقع الأثَريَّة في الجَزيرة، استفدْتُ وهيلدا وروزالين من الوقت بشكل مريح جداً بالنَّوم سريعاً في قطعة أرض معشوشبة صغيرة تحتَ شجرة ظليلة خارجَ قرية كالاخوريو Kalachorio غيرَ مبالين بقهقهات وهمسات مجموعة أولاد خبثاء عنيدين لحقوا بنا، وعندما استيقظنا وجدْتُ أنَّ قبعتي اختفت، كانت قبعةَ شمس لها حواف عريضة قديمة باهتة، إنَّها أسوأُ جداً من أن تُلبس، وذلك لأنَّني ثقَبْتُها عدةَ ثقوب في القُمَّة كطريقة لتهوية إضافيَّة، وفي الحَقيقة لمْ أهتَّم قطَّ، ظللت ألحُّ على جون بأنَّي لم أهتمّ أبداً عندما سمعَ عنها، ولكنَّه أخذَ وجهةَ نظر مختلفة تماماً. وقفَ بلا حراك، ثمَّ عادَ بنا إلى القريَة، وجمعَ النّاسَ، قامتْ هيلدا بترجمة الخطاب العاطفيّ الذي كانَ لمصْلَحتنا؛ هل هذه حسنُ وفادة أهل كريت؟ ألا يستطيعُ مسافر أن يغلقَ عينَه للحظة واحدة في قرية العار هذه دونَ أن يخافَ من اللُّصوص؟ كيف يمكنُ لقرويي كالاخوريو أن يرفعوا بأيّ شكل رؤوسَهم مرَّةً أخرى إذا علموا أنَّ قرويي لندن سيحكون قصتَهم:

«هل سمعتم؟ هؤلاء الرجالُ من قرية كالاخوريو، في تلك الجزيرة حيث كان حسُن الضيافة في يوم من الأيّام مسؤوليةً مقدَّسةً، لم يكونوا أخلاقيين». وما لم يتم إعادةُ قبعة السَّيدة في اليَّوم ذاته، فإنَّ قرويي لندن سيسمعونَ بكلّ تأكيد عن ذلكَ الشيء المُخجل.

نكّس أهل كالاخوريو رؤوسَهم، وانسحبوا دون أن يتفوَّهُوا بكلمة. بعد توقف، استدار جون على عقبه، وسارَ بنا في طريق مرصوف بكلّ امتعاض وأسف، وعندما غابت القَريةُ ابتسم وقال: «أعتقد أنك ستسترجعين قبعتك ـ باركيهم». لم يكنْ جون قد بلغَ الثلاثينَ من العمر بعد، ولكن وقتها بدا الكريتيّون بما فيهم الشباب والكهول بدوا وكأنهم أولاده.

وصلْنا في ذلك المساء إلى كراسي Krasi وهو مكان صغير على جبل عال برزتْ فيه البيوتُ الصَّغيرة البيضاءُ على الدَّرجات في كلّ جانب في خطّ منْحدر ضَيّق، وجدنا بيتاً للمبيت فيه شرفة مفتوحَة على طوله، ثم تابَعْنا سيْرَنا للأعلى إلى قمَّة القَريَة لنشاهدَ المَنظرَ، كنّا مرتفعينَ جداً إذ أنَّ البحرَ كانَ بعيداً عن التّلال، وامْتَدَّ ذهبيّاً من الشَّرق إلى الغَرب، وامتَدَّتْ رؤوس بحريَّة طويلة أرجوانيَّة في داخلة مقابلَ شمس المغيب، كانتْ شجرةُ دلب ضخمة هناك في الأعلى تظللُ حفرةً مقنطَرةً قديمَةً جميلةً قُطعتْ في قلب سفح الجَبَل خارجَ البركة الصَّخريَّة تدفَقَتْ أبْرَدَ وأنقى مياه ذقتُها في حياتي.

عندما نزلْنا الطَّريق المُنحدرَة مرَّةً أخرى بحثاً عن العَشاء شاهدنا شيئاً غير كريتي يصعَدُ السَّفحَ ببطء، إنَّه شيئ طويل جداً ونحيل بفانيلات رماديَّة وقميص بلون أصفرَ باهت ـ إنه سِتون.

سأل جون: «كيف وجَدتَنا بحقّ السَّماء؟».

قال سِتون إنَّهُ وصَلَ إلى الڤيلا في اليوم الفائت، واكتشفَ اتجاهَنا العام حسبَ المسافة المُحتملة التي قطعناها، فاستأجرَ سيّارةً لتقله عبرَ الطَّريق السّاحليّ إلى القريب من تلك النقطَة؛ ثم انطلقَ في الداخل على قدمَيه، يسألُ عن أخبارنا في طريقه.

قـال: «وحالت التّلال دون دخولي، كانَ كلُّ شـخص أقابله يعرفُ تماماً أينَ كنتم». كان الشَّيءُ الغريبُ هو أنَّه لمْ يقطَعْ طريقاً سلكناه باستثناء الميل الأخير أو ما يقاربه.

تناولنا العشاءَ على الشرفة فوقَ الطريق الصَّغير ـ وقام سِتون برسم صور ورسومات بيانيَّـة ليريَنـا كيفَ بـدا رأسُ القناة فـي وادي غومِـل Gomel يؤكده وجودُ سـدّ وبوابة للتَّحَكُـم بميـاه النَّهـر الدّاخلة إليـه والخارجة من القنـاة، وهناك كتـل ضخمة منحوتة كعلامـات لمدخلـه، وكان جايـك قد تدلّى بحبل مـن قمة جرف مرعب؛ لأنَّـه أرادَ أن ينسـخَ نقوشـاً نُحتتْ في منتصف المسـافة في الأسـفل على صفحته، بينما أمسكَ ستةُ أشـخاص يزيديّون بالحبل في القمة؛ وفي أثناء ذلك كانت ريغمور المسـكينةُ مستمرةً بكل مثابرة بالتقاط صور لسيدها ومعلّمها المتدلّي بينَ السَّماء والأرض، متسائلةً طوالَ الوقت أيّة دعابة قد يكون أطلقها اليزيديّة البسطاء لدى مرآهم هذا المشهد...

توسَّـل إلينا صاحبُ المنزل أنْ نسـتخدمَ غـرفَ نومه الجميلة تلك الليلة، فتمسَّـكَ جـون وهيلدا بالشُّـرفة في الهَواء الطَّلق، بينما ترددتُ وروزاليـن، ولكنَّ المنظرَ الناعمَ للأريكتيـن المغبرتيـن في غرفة الواجهة فـي الطابق الأوَّل ـ التي تُفضـي إليها من باب الشارع مباشرةً مجموعةُ درجات – كان إغراؤها لا يقاوَمُ، أما سِتون فبعدَ سير يوم شاقّ ما يقاربُ العشـرين ميلاً، استسـلمَ لغرفة نـوم حقيقية في الخلف، ولكـنْ لفترة وجيزة تنبهتُ وروزالين لشـبح طويل يجرُّ بسـطاً، فتعثَّرَ جانبَ غرفتنا، وسـمعناه يهمْهمُ وهو يهربُ عبرَ الباب إلى الشرفة: «هل هناك أيُّ جنديّ منهم قادم إليَّ من فوق الجدار».

اسـتيقظْنا بعـد مضي وقت طويل مـرة أخرى على صدى قعقعة حوافـرَ بينَ جدران الطَّريق، ثم سـمعتُ قرعةً عنيفةً على الباب أسـفلَ الدرج، نظرتُ إلى سـاعتي، كانت تقـاربُ منتصـفَ الليل، اسـتيقظتْ روزالين ونظرتْ عبـرَ النّافذة الصَّغيـرة، ثمَّ عادَت القَرعـاتُ مـرةً أخـرى بصـوت أعلى، قالـت: «إنه بغـل، أعتقـدُ أنه سـيكونُ في أعلى الدرجات في غضون دقيقة».

نهضـت وتدلينـا خـارجَ النافذة، وظهـرتْ عن يسـارنا ثلاثةُ رؤوس تنظـرُ من فوق حاجز الشُّـرفة، انعكسَ نورُ القمر على الجدران البيضاء المقابلة وعلى الحصى وعلى

المجموعة الجميلة في الأسفل كان رجل كريتيّ أسمرُ يرتدي عباءةً كبيرةً، جلسَ هناك علـى بغل فضيّ، يحملُ عصـا طويلةً موجهةً إلى الأعلى وكأنَّهـا رمح، ووضعتْ على مقدمتها المدببة ـ مثل الترس عند المبارزة ـ قبَّعتي الرَّثةُ القديمة.

وعندما شـاهدَنا جميعاً، ألقى خطبةً شـارحاً أنه عند الغروب قامَ ثلاثةُ صغار أشرار من أهل القريَة لم يتعاملوا بما يجبُ من سمعة حسنة وأخلاق جيدة، انهاروا واعترفوا، وعندهـا أرسـله القرويـون في الحـال ليركبَ في الَّليـل ويبحثَ عنّا حتـى يجدَنا، ولن يستطيعَ العودةَ إلى قومه الذين ينتظرونَه بقلق، دونَ أن يأخذَ معه كلمةً تؤكد أنَّنا سنخبرُ قرويـي لندنَ بأنَّ أهلَ قرية كالاخوريـو Kalachorio (ماعدا ثلاثةَ صغار مؤذين) كانوا رجالاً شرفاء.

ألقى جون بالمقابل خطاباً لطيفاً، لكنَّ النَّعاسَ كان يغالبه، ثم وُجّهت العصا نحوي فنزعـتُ زينتَها المهلهلةَ، انعطفَ الراكبُ محيياً ومبتسـماً ومقعقعاً في الممرّ المنحدر وهو سعيد، واستقرَّينا مرةً أخرى نحملُ لحظةَ مرح أخرى في الذاكرة.

وجدْنا أنفسَنا في الَّليلة على السّاحل نخيّمُ على شاطئ فارغ بعدَ قصر ماليا Mallia الـذي تبعثرَ بين الأزهار والعشـب قريبـاً من البحر، كانت الحقولُ على طول الشـاطئ مرَّصعَـةً بطواحيـنَ كدمـىً صغيرة على قضبـان معدنيَّـة هزيلة ثبتت نهايات الأشـرعة البيضـاء فـي الطَّواحين على إطار مسـتدير من سـلك نحيـل؛ عددُتُها كانـت ما يقاربُ خمسةَ عشرةَ على الأقل، وعندما هبّتْ نسمة بحريَّة مسرعَة نحو الداخل وقتَ الغروب بدأوا جميعاً يصلصلونَ بمرح ويدورون، ويبدون كرقة طواحين الهواء الورقيَّة في أحد المعارض، التقطْتُ من الشـاطئ رأسَ مطرقة صغيرة مصنوعة بشـكل جميل من حجر بلـون أخضر، وهي ما زالتْ بحوزتي حتـى هذا اليوم، قال جون: إنَّها كانتْ من العصر الحجري الحديث Neolithic، ربما صنعتْ في مكان ما حوالي 3500 ق. م.

أحضـرَ لنا بعضُ الصَّيادينَ الذينَ كانوا يصطـادون قربَنا بعضاً من صيدهم من أجل العشـاء، كان يتضمّن أخطبوطاً صغيراً جداً، وعند حلول المَسـاء اختفى النسيمُ بشكل كامل، وقمنا بطهي طعامَ العشـاء على نار خشـب طاف مالح، راح يطلق فرقعات ناريةً

صغيـرةً متألقةً زرقاءَ وخضراءَ عبرَ اللهب، بعدئذ، دُعمـت برمل ناعم حولَ الجمرات المُتَّقدَة بشـكل ضعيف، كنّا سـعداءَ ونحنُ نتحدّث وندخّنُ في الهواء السّاكن الدافئ، فقالَ سِتون: «يذكرني رأسُ المطرقة تلك بيوم كنتُ أبحثُ فيه عن وعل في الجبال قبلَ أن نغادرَها، وعندما كنتُ أسيرُ في طريق ضيق جداً وعال – حافة هاوية حقيقية – على جانب واحد من مَمَرّ ضيّق شـاهدتُ فجأةً وعلاً يتنقلُ عبرَ المَمَّرّ الضَّيّق، ومن المكان الذي كنْتُ أقفُ فيه لمْ أستطعْ رمايتَه بشكل جيد، وكان هناك مكان واحد فقطْ يمكنني مـن ذلـك على بعد بضعَة ياردات حيث اتَّسَـعت الحافةُ قليلاً، ذهبـتُ هناك في الوقت المناسـب وأطلقـتُ عليه، لكنَّني أضعْتُه وذاك ما حدث، فقـد اختفى، ولا يمكنُ رؤيتُه مرةً أخرى، حدّدْتُ النقطةَ حيث كان عندما أطلقتُ النّارَ، وانحدرْتُ إلى الممَر الضَّيق فـوقَ الجانـب الآخر مـن النقطة كنوع مـن الفضُول لرؤيَـة هل بالإمكان إيجـادُ مكان الرَّصاصَة التي اسْـتَقَرَّت في واجهة الصَّخرة، وكمْ كانتْ مسـافةُ الخطأ في التصويب، فوجَدْتُ ثقبَ الرصاصَة بسهولة شديدة، وكانَ يوجدُ حولَهَ نجمةٌ بيضاءَ مكانَ الصُّخور التي تناثَرتْ منه انظروا ماذا وجَدْتُ على بعد انش واحد من ثقب الرَّصاصَة».

أخـرجَ من جيبه شـيئاً صغيراً وطويلاً ومُدَبَّبا، ناولَـه بالدور، لقد كان رأسَ حربة من عصـر حجـريّ. تابع: «لقد كان مدفونـاً لنصفه بالصخرة قربَ ثقـب الرصاصة، ولكنَّه كانَ مثبتـاً إلـى الخارج في زاوية مهملة تبينُ أنَّ الشـخصَ الـذي أطلقَها كان قد صوّبَ تماماً من النقطة ذاتها التي صوّبتُ منها، وربما ذهبَ بالاندفاع ذاته للوصُول إلى النقطة الوحيدة المحتملة في الوقت المناسب، وقد تركَ الأثرَ في المكان نفسه كما فعلت».

نظـرتْ هيلدا إلى حجر الصَّوان الطَّويـل، وقلَّبَتْهُ في ضوء النّار الضَّعيف، ثمَّ أعادَتْهُ لسِتون. قالت: «ربما كانَ وعلُه سَلفاً لوعلك؛ بسبب التفافه بعيداً فقط، أتمنى أن يكون ذلك».

قـال جـون: «قصة جميلة، ولكنَّني أتمنى لو أني علمْتُ كيـف أنَّ علامتَه من العَصر الحجريّ شابَهَت علامتَك».

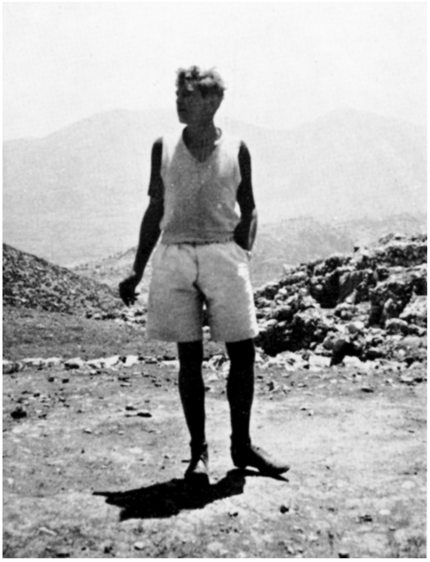
عدْنـا فـي اليـوم التالي مـرةً أخرى إلـى الداخل، وتسـلّقنا إلـى قرية جميلـة تُدعى

ميلاتـوس Milatos، حيـث ظهـرَ بيـت صغيـر جـداً، وعلـى جدرانـه البيضـاء نافورة مـن أزهار إبـرة الراعي زهريـةُ اللون قد نبتتْ مـن علب قصدير ضخمـة صُبغَتْ بلون أبيضَ كلون الجدران، وثُبتت على منصَّة اسـتوعبتها كلَّها. احتَوَتْ بعضُ المنازل على درجات خشـبيَّة ترتفعُ في الخارج، وهنا تبدو إبرةُ الراعي كرغوة على السَّـطح الأعلى لبيـت الدَّرج تتَدفَـقُ على جوانبَ الدرجات والسـور، وتتجمَّعُ كموجـات متدفقَة عبرَ قضبان السـور، وتتمايـلُ الرؤوس العطرةُ والجميلةُ والأوراقُ الباهتَةُ بلطف في أشـعة الشَّمس.

* * *



ميلاتوس الحافلة بالزهر



جون پِندِلبُري في كريت



عائلة كريتيّة

هبَّ علينا في البرّ عندَ المَسـاء من ذلك اليوم نسـيم بارد جاءَنا من البَحر، وقصَفتْ غيوم داكنة، خيّمنا على أرض مسـتويَة قربَ كنيسـة صغيرة بيضـاء، وتنقل جون بنظره في السـماء المُكفَهرَّة متفَحّصـاً وقالَ: «يومان إضافيان فقط من المسـير، أو يوم واحد فيما لو قطعنا الجُزءَ الأخيرَ بالقارب، إنَّني في الحقيقة أتمَنَّى أن نَصلَ إلى منزل سـيغر Seager قبلَ أنْ ينقلبَ الطقس».

قال سِتون: «حسناً، وإذا أمطرت الليلةُ فبإمكاننا الانتقالُ إلى الكنيسَة، أظنُّ، حسب ما أخبرتموني أنَّ ماري قد اعتراها الكلال».

توقـفَ المَطَـرُ، وكانَ اليوم التالي مفعماً بنسـمات البحر والغيـوم البيضاء المتلألئَة التـي امتَدَّتْ عبرَ سـماء زرقـاءَ داكنة وظلال كبيرة تتسـابَقَ أمامَنا وفـوقَ مُنحَدَر التّلال التي سـطعت عليها أشعة الشمس. سـرْنا في ذلك اليوم طريقاً طويلاً جداً، واعتلَينا في المسـاء آخرَ هضبة طويلة، وشـاهدْنا علـى البُعد مجموعةَ بيوت صغيـرة على الطرف الجنوبيّ من بحيرة كبيرة امتَدَّتْ في ظل تلال عالية محيطة بها. قال جون: «إنَّها ليَسْت بحيرةً حقيقيةً، ففيها منافذُ شـمالاً وجنوباً إلى البحر، في خليج ميرابيلّو Mirabello». وفي وسطه كانت ترسو سفينة بيضاءُ صغيرة.

قال: «إنَّها سـفينة صغيرة بخاريَّة تابعة لشـركة خطوط إمبراطوريـة، ففي بعض الأحيان ترسـو هنا الطائراتُ المسافرةُ بين أثينا والإسكندريّة». تقدَّمْنا ببطء أسفلَ الطريق المُنحدر؛ اسـتغرقَ حوالي سـاعةً، ثم وصلْنا إلى القرية المحاذية للماء. لقد كانَ مكاناً صغيراً قاحلاً، يحتبـسُ بيـنَ التّلال والماء، ولم يكنْ هناك مكان لبناء الخيام حتَّى في الأرض المكشـوفة؛ وكانـت هيلـدا مترددةً في تجربة أيّ من تلك المنازل. كان التعبُ يبدو واضحاً عند التَّوقف عن السَّـير حتَّى يرتاحَ المرءُ فوراً، وقفنا متشـككين للحظات على رصيف الميناء نتسـاءلُ عن أحسن خطوة تالية، وأطرافنا متألّمَة، والجوعُ يعضنا، والهواءُ قربَ الماء شديدُ البرودة، كانت السَّفينةُ البيضاءُ الصغيرةُ تشُقُّ طريقَها إلى رصيف الميناء، أخذنا نرقبها بكسل ونحنُ نتناقَـشُ، فـأدار البحّـارُ الواقفُ علـى الدَّفة السـفينةَ الصغيرةَ ببراعة وأحضرهـا بلطف عند أقدامنا، وثبّت السفينةَ الصغيرةَ، ووثبَ إلى الرَّصيف.

قـال للجميـع دونَ اسـتثناء: «تحيّاتُ قائدُ السَّـفينة پـول Poole، وهـو يتمنَّى أنَّكم ستصْعَدونَ إلى مَتْن السَّفينة الصَّغيرة لتناول طعامَ الغذاء وتمضون الليلةَ على متنها».

حدَّقنا فيه كيفَ يمكنُ لهم.....؟ لا بُدَّ أنْ يكونَ مجَرَّدَ سحْر كريتيّ مرَّةً أخرى، ظنَنّا ذلك، عندمـا كنّا نَخْطُو مندهشـينَ إلى داخل الزورق. فَتَحَ البَّحارُ الصَّمامَ، ولَفَفْنا بشـكل دائريّ، وابتَعدْنـا والقـاربُ يئزُّ بصخب متَّجهاً نَحْو السَّـفينة الصَّغيرة. كانَت السَّـفينةُ الصَّغيرةُ أنيقةً جـداً وزاهيَةً، وكُتبَتْ عبـارة «Imperia» بالذَّهَب على مقَدّمَتها؛ ووقَفَ بأعلى سـلَّم المَمَرّ رجل صَغير مرح مرتدياً بزَّةً بيْضاءَ وشعْره رماديّ أشعَثُ، وعيناه إيرلنديتان واسعتان.

قال قائدُ السَّفينة پول Poole وهو يُرَحّبُ بنا على مَتْن السَّفينة الصَّغيرة: «كنّا نترقبُ قدومَكم في اليَومين الأخيرين، لقَدْ تَبَيَّنَ أنَّ جميعَ النّاس على الشّاطئ كانوا يَعلمونَ أنَّ هناكَ خمْسَـةَ أشْخاص إنكليز مجانين يسلكونَ تلكَ الطَّريقَ عبْرَ الجبال. يقولونَ لماذا السَّيرُ عندما يكون باستطاعتكم ركوبُ بغل؟» اختَلسْتُ نَظْرَةً إلى روزالين. وتابَعَ: «لذا بقيتُ متنبهاً وحَدَّدْتُ موقعَكم بواسطة منظار الميدان من حوالي ساعة مضَتْ. بالتّاكيد لا تعلمـونَ كيـفَ حصَلَ هذا ـ ليسَ كما كانَ قرعُ طبول أو إشـاراتُ دخـان، إنَّها منْحَة ربّانيَّة لنا كي نَحظى ببعض الضُّيوف، تَعالَوا وانظُروا إلى قمراتكم ثمَّ نذْهَبُ لاحْتسـاء بعض المشْـروبات». وجَدْنا أنَّ ثلاثـَة موظفين قد أخلوا قمراتهـم وذَهبوا لينامُوا على ظهر السَّـفينة؛ ولكنَّهـم أكَّدوا لنا أنَّه ليسَ هناكَ مشَّـقَة، لَقدْ بدَوا جميعـاً مبتهجين جداً لحصولهم على رفقَة جديدة تُغيّرُ الرتابَة التي هم فيها، إذ يبدو أنَّ عملَهم موحش، فهم يَـرَون المُسـافرينَ لمدَّة قصيرة عندما تَحُـطُّ الطائراتُ هنا، وهذا كلُّ شـيء، أخبَرنا قائدُ السَّـفينة Poole عندما كنّا نتناول عصيرَ الفواكه أنَّه يفترضُ أنْ يَنْطَلقَ بالسَّـفينة الصَّغيرة Imperia بذكاء لإنقاذ أيّة طائرة هبطتْ لسبب اضطراريّ بين أثينا والإسكندريّة.

قـالَ: «ولكنّنـا لمْ نَتَلَـقَّ أيَّ نداء في السـنتين التي كنْتُ فيهما هنا، ولا نسـتطيعُ الآن الذهابَ على أيَّة حال».

سألنا: «لماذا لا تستطيعون؟».

قـال: «لأننا نقبَعُ في القيعان القاسـيَة على مياه ضحلة علـى زجاجات خمر فارغة» (بسبب قلة العمل).

احتشَدْنا في الصّالَة الصَّغيرة الدافئَة، لقَدْ كانَ غذاءً ممتعاً، ومساءً جميلاً. بقيْنا مع مرافقنا جالسين حول الطّاولَة بعْدَ شُرب القَهوَة، وتدفقُ الخَمر الكريتي الجيّد، وكنّا نُدَخّنُ السَّجائر ونتَكَلَّمُ بشكل متبادل عبْرَ الطّاولة؛ ونسمعُ حكايات من قائد السَّفينة المرح، ونسْرُدُ قصَصَنا عـن مصرَ وبغدادَ وكردسـتان. جلسَـتْ روزالين كالنّائمَة وهي مبتسـمة بسـعادة، ولا تكادُ تصَّدّقُ أنَّها قطعتْ نصفَ كريت الشَّـرقي سـيراً على الأقدام بنجاح، وأنَّ بانتظارها سـريراً حقيقياً وملاءات وكلَّ شيء. قال قائدُ السَّفينة پول Poole: «أيُّها النّاسُ لقدْ سافرتُم كثيراً»، ففتَحتْ عيْناً واحدةً وقالتْ بشكل حالم: «آه! نعم، ذهبنا لأميال وأميال».

غادرْنـا باكراً فـي الصَّباح التّالي، وكانَ قـدومُ طائرة من أثينا متَوقَّعـاً وعندما غادرنا السَّـفينةَ البيضاءَ الصَّغيرةَ السّـاحرةَ كنا مرتاحين ومبتهجين، ولوّحَ لنا مضيفونا اللطفاء مـن فـوق الحاجز، كانت طائرة مائية تهدرُ منخفضَةً من فوق الجبل الشّـماليّ وتسْـتقرُّ علـى الميـاه الهادئـة، لتجعلَ سـفينة Imperia تبدو صغيـرةً أمامها، وهي تنـدَرجُ فوقَ سطح الماء ببطء إلى جانبها.

كان سيرُنا قد انتهى، حيثُ كانت أقدامُنا متقرحةً، ووافقت الأغلبيَّةُ على أنْ نجتازَ خليج ميرابيلّو Mirabello بواسـطة زورق بخاريّ عوضاً عن السَّـير حولَ خطّ السّـاحل الطويل. ودّعْنـا آليكـو Aleko والبغلَ العجوز الطيّب، ونقلْنا أمتعتَنـا إلى حوض مركب صغير قويّ مسـقوف منتَصفـه، والمالـكُ يقف عنـد الدفَّة. وفي اللحظـة التي كنا فيها مسـتعدين لنبدأ، اقتربَ مندوب يسألُ هل بالإمكان أنْ يرافقَنا كاهن محليّ يريدُ العودةَ إلى قريته في منتصف طريق الخليج. رحَّب جون وهيلدا بالشَّـخص المبجَّل الذي يرتدي ثوباً أسودَ، وزادت من طوله المفرط قبّعتُه التي تشبهُ المدخَنَة عندما عبرَ الرَّصيفَ، وخطا على ظهر المركب، كان المفَّوضُ الذي أسـرعَ عائداً إلى منزل ليحضره قد لحق به الآن حاملاً كرسـي مطبخ حيث جلسَ بوقار وسطَ ظهر المركب تماماً، وجهُه إلى مؤخرة القارب، انحنى الكاهنُ لنا بوقار، وأخذَ مقعدَه، ورتّبَ ثوبَه المتَدلّي؛ وجَلَسْـنا على ظهر السَّفينة حولَ قدمَيه، تحَرَّكَ المَركَبُ

بعيداً عنْ رصيف الميناء، والتَفَّ جنوباً إلى قناة ضيّقَة بينَ أرض مستوية، وعندَ الطَّرف الجنوبيّ للقناة حيثُ عبَرت إلى البحر المفتوح، يصلُ الضّفتين جسرُ مشاة طويل عال. ارتفعَ بشكل كاف فوقَ الماء ليسمحَ بالمرور تحتَ الجسر، ولكنْ هلْ كانَ ارتفاعُه كافياً لمرور قلنسوته المقدَّسَة، تساءلْنا جميعاً فجأةً، وعندما كانتْ قلنسوتُه تقتربُ من أسفل الجسر بسرعة وهو يجلسُ عكسَ سير المركَب كنّا كالنائمين بلا حراك، استطعنا فقط التَّحديق مشدوهين بالرأس الملتَحي الذي سيُصْدمُ بوقاحة وعدم احترام، وما كنا نرجوه فقط هو إعادةُ المدخَنَة عندما تَسقطُ من السَّفينة.

انسابتْ مقدمةُ السَّفينة أسفلَ الجسر، التقَطْنا أنفاسَنا، ثمَّ انسابت بعدها مدخنةٌ دون أن تُمسَّ بمسافة إنشين على ما أظنُّ، وعندما عبرنا الجسرَ كانت عيون وقورة ترقُب وجوهَنا وهي تنتقلُ من التَّهَيُّج إلى الارتياح، تجعَّدتْ عيناهُ ببطء، واخترقَتْ لحيتَه الكثيفةَ ابتسامة كبيرة، ورفَعَ إصبعين بشكل أُفُقيّ ليظهرَ حدَّ الأمان، لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق؛ فالظاهرُ أنَّه اختَبَرَ ذاكَ الجسرَ وهو جالس على الكرْسيّ لمرّات عديدَة، فكانتْ له القيادةُ كلُّها.

أَخَذَت المياهُ تنشط الآنَ بفعل ريح متتاليَة، وتمايلَ الكرسيُّ الضيقُ كثيراً، ولكنَّ تلك المخاطرةَ أيضاً قد تمَّ التغلبُ عليها أيضاً، وبعدَ قليل أنزلنا الرجلَ الطيبَ على الشّاطئ الغربيّ لخليج ميرابيلّو Mirabello؛ منَحنا بركتَه من رصيف الميناء، ومَنْ يعلم أنَّها لن تجلبَ لنا السَّلامةَ خلال السّاعة التّاليَة؟ إذ بدأت الريحُ تحرّكُ موجات كبيرة، كنّا نتجهُ إلى خليج في الشّاطئ الجنوبيّ يُدعى پاخيامّوس Pakhyammos، وهو شاطئ محصن، ولدى اقترابنا منه كانتْ هناكَ فجأة موجات خضراءُ هائلة ورذاذ كثيف يندفعُ فوقَ الصُّخور المنحَدرَة الكالحَة، وأصبحَ قائدُ المركب يندفعُ إلى الخور رغماً عنه، وعيناه القلقتان تبحثان في الخضَّمّ الأزرق المُخْضَّرّ حولَ القارب عن إشارات لصخور كامنة، وهو يحاولُ إعادةَ توجيه مقدمة القارب إلى البحر، وتقدمنا وببطء شديد بعيداً عن الصُّخور، وفي النّهاية ابتعدنا عنها، ثمَّ انعطفْنا وسِرْنا باستقامة نحو امتداد منبسط في الرمال المفتوحة خلفَ تلك الصُّخور.

هناكَ طريق امتَدَّ من الشّاطئ إلى سَهل واسع أخضرَ نبتتْ فيه الأشجار، من بينها استطعْنا رؤيةَ سطح قرميد أخضرَ طويل، وعلى قمة الطَّريق رأينا رجلاً وامرأةً ينتظران، كانا صاحبَ المنزل وزوجتَه.

بنى هذا البيتَ عالمُ الآثار الأمريكيّ ر. ب. سيغَر R. B. Seager الذي نقّبَ في مدينة مينويّة في منطقَة غورنيا Gournia القريبة من هنا، بناهُ وتركَهُ لنيكولاس Nicholas الكريتي على أنْ يحافظَ عليه ويكونَ مستعداً لأيّ طالب في علم الآثار يودُّ الإقامَةَ فيه ويعتني به، قال نيكولاس وزوجتُه إنَّهما شاهدونا نتقدَّمُ عبرَ المياه من بعيد، وخافا عندما اختفى المركبُ في بعض الأوقات في أحواض من الأمواج.

بعدَ فترة وجيزة كنا نشعرُ بأمان في البيت الجميل نستريحُ في فناء مرصوف سطَعتْ عليه أشعةُ الشَّمس الحّارَّة ونَبتتْ كلُّ أطياف إبرة الراعي بلون أصفرَ شاحب وزهريّ وأحمرَ داكن نبتتْ في أحواض خضراءَ كبيرة وأوراق عشب كبيرة من ترمس أصفرَ وأزرقَ وتكتُّلات من زنبق برزتْ مقابلَ الجدران البيضاء، كما تَدَلَّت شجرةُ أزهار العَسَل كثيفةً وعطرةً فوقَ الأبواب الخضراء الجميلة. ارتفعتْ وراءَ الخليج كتلة ضخمة قاتمة لجبل كاڤوسي Mount Kavousi وهي تفَصلُ القمةَ التي في أقصى الشَّرق عن كريت وكنا سُعداء لكونها كذلك.

انتهتْ رحلتُنا بشكل جيّد في هذا المكان الجميل، فاسترحْنا مدَّةَ ثلاثة أيّام في الشَّمس، وسبَحْنا في تجويف صغير أسفلَ المنزل، ومشَيْنا عبْرَ الشَّوارع المَرصُوفَة بعناية في غورنيا Gournia العتيقة داخلَ وخارجَ بيوتها التي لها من العمر 4000 سنة، وعندَ باب كلّ بيت عتبة خارجية مزخرفة؛ وسرْنا في المساء عبرَ القرية الصَّغيرة، قربَ نُزُل تاڤِرنا *Taverna* المُضاء حيث كان هناك دوماً صوتُ غناء وصوت آلة الغيتار اللطيف، وسرنا في أعلى الطَّريق المؤدي إلى المنزل المحمي؛ حيثُ كانَ الصوتُ الوحيدُ عندَ المساء صوت عندليب يقبقُ بين الأصابع الصَّفراء المجَعَّدة لأزهار العَسَل مع همس البحر الذي لا ينتهي وهو يتحرَّكُ على الشّاطئ الأبيض.

* * *



رفيقنا في السّفينة



الدّرج الكبير في قصر
مينوس في كنوسوس



تمثال برونزي للسّير آرثر إيڤَنز
في كنوسوس

عدْنا بالسَّـيارَة إلى ڤيـلاّ آريانده Villa Ariadne؛ وذاتَ مسـاء، بعدَ عدَّة أيّام، وبعدَ تناول طعام غذاء الوداع في كانديا Candia، ركبتُ وروزالين على متن سـفينة صغيرة أخرى في المرفأ. كان الليلُ عاصفاً؛ وعلى الدوام هناك شـيء يشْـعُرُ بالوحدة واليأس عنـدَ مغادرة حِمى المرفا في ليلة قاسـية، كنّـا نتَحَرَّكُ بعيداً عن المَنـازل المُضاءَة وعن جانـب الرَّصيـف، لندخُلَ في عمق الظَّـلام المُضَّطرب الهائل، وبتنا نشـعُرُ الآن بحزن لـكلّ مـا فارقناه، ولا تـزالُ الأصواتُ حيَّةً فـي آذاننـا، والصُحبةُ الحلـوةُ، والفُكاهاتُ التافهـة، والجمـالُ المطلـقُ الـذي انطلْقنـا عبـرَه، والروائحُ العطـرةُ الوافـرةُ للأرض والأزهـار والبحر، وسـحرُ الأرض الجميلة القديمة كلُّه مازالَ حيـاً في داخلنا. قَصَدْنا قُمراتنـا بحزن، وتجَهَّزْنا لمسـاومة ليلة سـيئة، ولكـن بطريقة ما هدهَدَنـا البحرُ الهائج بسرعة إلى النَّوم، وصحَونا لنَجدَ يوماً هادئاً مشرقاً.

كان الأفُـق الجنوبيُّ فارغـاً، وامتَدَّتْ جبالُ كريت الأرجوانيَّة في مكان ما وراءَ تلك المسـافة الزرقاء والتي سـنظلُّ مشـتاقين إليها لسـنين قادمة، ولكنَّني أعلم أنَّه حتَّى في ذلك الوقت سـيظَلُّ شـيئاً من سحرها في داخلي إلى الأبد، وربَّما سأعودُ يوماً ما. ربما أنّ الحَياةُ لا تبتعدُ دائماً عن السَّعادة بخَطٍّ مستقيم كما وجدنا عنْد صحونا هذه السَّفينة الصغيـرة تفعل، وهي تبتعدُ مخلّفـةً وراءها زَبَداً أبيضَ مغبرّاً اختلَطَ بلون حجر اليشـم الأخضر على المياه السَّوداء المزرقّة.

استدرْتُ بعيداً، ونظرْتُ إلى الأمام، فرأيْتُ رأساً صغيراً على الجانب الأيمن، وإلى الأمـام قليلاً ارتفعتْ جزيرة خضراءُ فوقَ البحر تومضُ في شـمس الصَّباح الباكر. لقد كانت جزيرةَ ميلوس Milos؛ وتحَرَّكَتْ عندي ذاكرةُ سـنة خَلَت. مرةً أخرى ها أنا ذي أقتـربُ من جنـوب البرّ الرئيس لليونان، ومرةً أخرى أنسـابُ عابرةً واحداً من مراكزها الهادئة المرحّبة.

لم أسافرْ أبداً بعيداً عن السَّعادة، لكنَّني ببساطة قمتُ بدورةٍ كاملة.

* * *



جون مع الحارس الكريتي
في تيليسّوس



رياضي كريتي يتشقلب
فوق ظهر الثور



البرّ اليوناني عند الفجر
دورة كاملة

فهرس

مدينة في الرّمال
(قصة اكتشاف حاضرة إشنونّا السّومريّة)

تروي لنا هذه الآثاريّة البريطانيّة الشابّة ماري تشَب في هذا الكتاب الشائق قصة اكتشاف حاضرة إشنونّا السّومريّة التابعة لحضارة أوروك، في أواسط العراق فيما يُعرف الآن بمحافظة ديالى. تمّت البعثة تحت إشراف المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو بدءاً من عام 1929 ودامت ست سنوات بقيادة نخبة رفيعة من علماء الآثار والنقوش واللغات القديمة، وكانت لجهودها العلميّة نتائج باهرة لقيت كل اهتمام من الدوائر العلمية ما قبل الحرب العالمية الثانية. وتخبرنا تشب بأسلوب ممتع وتفاعلي حافل بالمشاعر الشخصيّة أنباء العثور على الكثير من اللقى الأثريّة، من التماثيل والنقوش القديمة التي أسهمت في جلاء وجه عالم الشرق الأدنى القديم.

السعر 00 درهم

أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE